الأخير منهما، وهو كونهم يقال لهم ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:14]، وقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله في السجدة ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:20], وقوله في سبأ: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ:42], وقوله تعالى في المرسلات: ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:29–32]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأول منهما وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة فقد ذكره الله جل وعلا في آيات من كتابه كقوله تعالى ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:47], أي جروه بقوة وعنف إلى وسط النار. والعتل في لغة العرب: الجر بعنف وقوة، ومنه قول الفرزدق:

ليس الكرام بناحليك أباهم. . . حتى ترد إلى عطية تعتل

وقوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:41] أي تجمع الزبانية بين ناصية الواحد منهم، أي مقدم شعر رأسه وقدمه، ثم تدفعه في النار بقوة وشدة

وقد بين جل وعلا أنهم أيضا يسحبون في النار على وجوههم في آيات من كتابه كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:48]، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:70–72], وقوله: في هذه الآية الكريمة ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ ، بدل من قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ﴾ ، في قوله تعالى قبله: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح هذا المعنى في قوله ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم:21].

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ .

ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس، وقد بين تعالى في آيات أخر أن أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [المدثر:38-41] .

ومن المعلوم أن التخصيص بيان، كما تقرر في الأصول

قوله تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ .

لم يذكر هنا شيء من صفات هذه الفاكهة ولا هذا اللحم إلا أنه ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ , وقد بين صفات هذه الفاكهة في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة:32-33], وبين أنها أنواع في مواضع أخر كقوله ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [محمد:15], وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [البقرة:25] . وقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ [الصافات:41-42] إلى غير ذلك من الآيات.

ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير، والفاكهة بأنها مما يتخيرونه على غيره، وذلك في قوله ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة:20-21] .

قوله تعالى: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ .

قرأه ابن كثير وأبو عمرو: "لا لَغْوَ" بالبناء على الفتح، "ولا تَأْثِيمَ" كذلك لأنها، لا، التي لنفي الجنس فبنيت معها، وهي إن كانت كذلك نص في العموم، وقرأه الباقون من السبعة ﴿ لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ بالرفع والتنوين, لأن لا النافية للجنس إذا تكررت كما هنا جاز إعمالها وإهمالها، والقراءتا في الآية فيهما المثال للوجهين وإعمالها كثير، ومن شواهد إهمالها قراءة الجمهور في هذه الآية، وقول الشاعر

وما هجرتك حتى قلت معلنة . . . لا ناقة لي في هذا ولا جمل

وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ ,أي: يتعاطون، ويتناول بعضهم من بعض كأسا أي خمرا، فالتنازع يطلق لغة على كل تعاط وتناول، فكل قوم يعطي بعضهم بعضا شيئًا

(454/7)

ويناوله إياه، فهم يتنازعونه كتنازع كووس الشراب والكلام، وهذا المعنى معروف في كلام العرب

ومنه في الشراب قول الأخطل:

وشارب مربح بالكأس نادمني . . . لا بالحصور ولا فيها بسوار

نازعته طيب الراح الشمول وقد . . . صاح الدجاج وحانت وقعة السار

فقوله: نازعته طيب الراح أي ناولته كووس الخمر وناولنيها، ومنه في الكلام قول امرىء القيس

ولما تنازعنا الحديث وأسمحت . . . هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

والكأس تطلق على إناء الخمر، ولا تكاد العرب تطلق الكأس إلا على الإنا المملوء، وهي مؤنثة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ يعني أن خمر الجنة التي يتعاطاها المؤمنون، فيها مخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا، فخمر الآخرة لا لغو فيها، واللغو كل كلام ساقط لا خير فيه، فخمر الآخرة لا تحمل شاربيها على الكلام الخبيث والهذيان، لأنها لا تؤثر في عقولهم بخلاف خمر الدنيا، فإنهم إن يشربوها سكروا وطاشت عقولهم، فتكلموا بالكلام الخبيث والهذيان، وكل ذلك من اللغو

والتأثيم: هو ما ينسب به فاعله إلى الإثم، فخمر الآخرة لا يأثم شاربها بشربها، لأنها مباحة له، فنعيلذتها كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد:15] ولا تحمل شاربها على أن يفعل إثما بخلاف خمر الدنيا، فشاربها يأثم بشربها ويحمله السكر على الوقوع في المحرمات كالقتل والزنا والقذف

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من مخالفة خمر الآخرة لخمر الدنيا، جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾

[الصافات:45–47]، وقوله: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ ، أي ليس فيها غول يغتال العقول، فيذهبها كخمر الدنيا. ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ ، أي لا يسكرون، وكقوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ

(455/7)

مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ [الواقعة:17–19]، وقوله: ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ ﴾ أي لا يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها.

وقد أوضحنا معنى هذه الآيات في صفة خمر الآخرة، وبينا أنها مخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا وذكرنا الشواهد العربية في ذلك في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ [المائدة:90].

قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ ﴾ جمع غلام، أي خدم لهم، وقد قدمنا إطلاقات الغلام وشواهدها العربية في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر:53].

ولم يبين هنا ما يطوفون عليهم به، وذكر هنا حسنهم بقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ في أصدافه، لأن ذلك أبلغ في صفائه وحسنه، وقيل: مكنون أي مخزون لنفاسته، لأن النفيس هو الذي يخزن ويكن

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ [الواقعة:17–18]، وزاد في هذه الآية كونهم مخلدين، وذكر بعض ما يطاف عليهم به في قوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف:71]، وقوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان:16].

والظاهر أن الفاعل المحذوف في قوله ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ في آية الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان في الإنسان في قوله تعالى﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ﴾ [الإنسان:19].

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن أهل الجنة يسأل بعضهم بعضا، وأن

(456/7)

المسؤول عنهم يقول للسائل: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ ، أي في دار الدنيا ﴿ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله، ونحن بين أهلنا أحياء ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي أكرمنا، وتفضل علينا بسبب الخوف منه في دار الدنيا فهدانا، ووفقنا في الدنيا ﴿ وَوَقَانَا ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ ، والسموم: النار ولفحها ووهجها، وأصله الريح الحارة التي تدخل المسام، والجمع سمائم ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

أنامل لم تضرب على البهم بالضحى. . . بهن ووجه لم تلحه السمائم

وقد يطلق السموم على الريح الشديدة البرد، ومنه قول الراجز:

اليوم يوم بارد سمومه. . . من جزع اليوم فلا ألومه

الفاء في قوله: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ ، تدل على أن علة ذلك هي الخوف من الله في دار الدنيا، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب الله في دار الدنيا، سبب للسلامة منه في الآخرة، يفهم من دليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا لم ينج منه في الآخرة وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحا في غير هذا الموضع فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ [الانشقاق:10–

14].

وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه أن إن لمكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ ، علة لقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾ .

والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف، ويؤيد ذلك قوله بعده﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ ، لأن معناه، ظن أن لن يرجع إلى الله حيا يوم القيامة، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقا في أهله خوفا من العذاب، لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وكون﴿ لَنْ يَحُورَ ﴾ ، بمعنى لن يرجع معروف في كلام العرب، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

(457/7)

أليلتنا بذي حسم أنيري . . . إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله: فلا تحوري، أي فلا ترجعي.

وقول لبيد بن ربيعة العامري:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه . . . يحور رمادا بعد ما هو ساطع

أي يرجع رمادا، وقيل: يصير، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة:41-47]، لأن تنعمهم في الدنيا المذكور في قوله ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ ، وإنكارهم للبعث المذكور في قوله﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ الآية، دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا، وهو علة كونهم﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ .

وقد قدمنا قريبا أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾

الآية، علة لقوله: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ .

وقد ذكر جل وعلا أن الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه، قال تعالى في المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج:27–28] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج:35]، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:57–61]، وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة:10–12] .

وقوله في آية الواقعة المذكورة ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ ، أي يديمون ويعزمون على الذنب الكبير، كالشرك وإنكار البعث، وقيل المراد بالحنث حنثهم في اليمين الفاجرة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:38] .

(458/7)

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ .

نفى الله جل وعلا عن نبيه صلى الله عليه وسلم في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه صلى الله عليه وسلم رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنه كاهن أو مجنون، فقد نفاها صريحا بحرف النفي الذي هو ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَمَا أَنْتَ﴾ وأكد النفي بالباء في قوله ﴿بِكَاهِنٍ﴾ وأما كونه شاعرا فقد نفاه ضمنا بـ﴿أَمْ﴾ المنقطعة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ ، لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي.

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:2] وقوله في التكوير ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾

[التكوير:22] وكقوله في نفي الصفتين الأخيرتين أعني الكهانة والشعر ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:41-42]، وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الشعراء وغيرها .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي ننتظر به حوادث الدهر، حتى يحدث له منها الموت، فالمنون: الدهر، وريبه: حوادثه التي يطرأ فيها الهلاك والتغير، والتحقيق أن الدهر هو المراد في قول أبي ذؤيب الهذلي:

أمن المنون وريبه تتوجع. . . والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأن الضمير في قوله: وريبه يدل على أن المنون الدهر، ومن ذلك أيضا قول الآخر تربص

بها ريب المنون لعلها . . . تطلق يوما أو يموت حليلها

وقال بعض العلماء: ﴿ الْمَنُونِ﴾ في الآية الموت، وإطلاق المنون على الموت معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي الغول الطهوي:

هم منعوا حمى الوقبي بضرب. . . يؤلف بين أشتات المنون

لأن الذين ماتوا عند ذلك الماء المسمى بالوقبا، جاءوا من جهات مختلفة، فجمع الموت بينهم في محل واحد، ولو ماتوا في بلادهم لكانت مناياهم في بلاد شتى

(459/7)

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:34] .

قد قدمنا أن الله تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة في قوله ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة:23]، وفي سورة يونس في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس:38] .

وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود:13].

وتحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ .

وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك في قوله ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء:88].

وقد أطلق جل وعلا اسم الحديث على القرآن في قوله هنا ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ كما أطلق عليه ذلك في قوله: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ [الزمر:23]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [يوسف:111].

قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ [مريم:78].

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا ﴾ [الحجر:16–17].

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ .

(460/7)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل:57]، وفي مواضع أخر متعددة.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود في الكلام على قوله تعالى﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ [هود:29] .

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:7]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم شيئًا في الآخرة في غير هذا الموضع، كقوله تعالى ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات:38-39] .

وبين أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضا كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ [الطارق:15-16]، وقوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:182-183] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ , الظاهر أن قوله: ﴿عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ﴾ هو ما عذبوا به في دار الدنيا من القتل وغيره،

كما دل على ذلك قوله: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:21], وقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:14] إلى غير ذلك من الآيات، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك، لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي والعلم عند الله تعالى.

(461/7)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النجم:

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

.

اختلف العلماء في المراد بهذا النجم الذي أقسم الله به في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم المراد به النجم إذا رجمت به الشياطين، وقال بعضهم إن المراد به الثريا، وهو مروي عن ابن عباس وغيره، ولفظة النجم علم للثريا بالغلبة، فلا تكاد العرب تطلق لفظ النجم مجردا إلا عليها، ومنه قول نابغة ذبيان:

أقول والنجم قد مالت أواخره. . . إلى المغيب تثبت نظرة حار

فقوله: ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ : يعني الثريا.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ : أي أسقط مع الصبح، وهذا اختيار ابن جرير. وقيل النجم: الزهرة، وقيل المراد بالنجم نجوم السماء، وعليه فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كقوله ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر:45] يعني الأدبار. وقوله: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:22] أي والملائكة. وقوله: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الفرقان:75] أي الغرف.

وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذا في القرآن، وفي كلام العرب في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [الحج:5]، وإطلاق النجم مرادا به النجوم معروف في اللغة، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا. . . عدد النجم والحصى والتراب

وقول الراعي:

فباتت تعد النجم في مستحيرة. . . سريع بأيدي الآكلين جمودها

وعلى هذا القول، فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت أو انتثارها يوم القيامة وقيل: النجم النبات الذي لا ساق له. وقال بعض أهل العلم: المراد بالنجم الجملة النازلة من القرآن، فإنه نزل على النبي صلى الله عليه

وسلم أنجما منجما في ثلاث وعشرين سنة، وكل جملة منه وقت نزولها يصدق عليها اسم النجم صدقا عربيا صحيحا كما يطلق على ما حان وقته من الدية المنجمة على العاقلة، والكتابة المنجة على العبد المكاتب.

وعلى هذا فقوله: ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ ، أي نزل به الملك من السماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقوله: ﴿ هَوَى ﴾ يهوي هويا إذا اخترق الهوى نازلا من أعلى إلى أسفل

اعلم أولا أن القول بأنه الثريا وأن المراد بالنجم خصوصها، وإن اختاره ابن جرير وروي عن ابن عباس وغير واحد، ليس بوجيه عندي

والأظهر أن النجم يراد به النجوم وإن قال ابن جرير بأنه لا يصح، والدليل على ذلك جمعه تعالى للنجوم في القسم في قوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ [الواقعة:75]، لأن الظاهر أن المراد بالنجم ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ هنا، كالمراد ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ في الواقعة.

وقد اختلف العلماء أيضا في المراد ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فقال بعضهم: هي مساقطها إذا غابت. وقال بعضهم: انتثارها يوم القيامة. وقال بعضهم: منازلها في السماء، لأن النازل في محل واقع فيه وقال بعضهم: هي مواقع نجوم القرآن النازل بها الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: أظهر الأقوال عندي وأقربها للصواب في نظري، أن المراد بالنجم إذا هوى هنا في هذه السورة، وبمواقع النجوم في الواقعة هو نجوم القرآن التي نزل بها الملك نجما فنجما، وذلك لأمرين:

أحدهما أن هذا الذي أقسم الله عليه بالنجم ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ الذي هو أن النبي صلى الله عليه وسلم على حق وأنه ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى موافق في المعنى لما أقسم عليه ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، وهو قوله: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة:77-80].

(463/7)

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صدق القرآن العظيم وأنه منزل من الله جاء موضحا في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يس, وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ, إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ, تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:1-5], وقوله تعالى: ﴿حم, وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ, إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ, وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:1-4], وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والثاني: أن كون المقسم به المعبر بالنجوم، هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:76]، لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به في غاية العظمة.

ولا شك أن القرآن الذي هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ ، قال بعض العلماء: الضلال يقع من الجهل بالحق، والغيي هو العدول عن الحق مع معرفته أي ما جهل الحق وما عدل عنه، بل هو عالم بالحق متبع له

وقد قدمنا إطلاقات الضلال في القرآن بشواهدها العربية في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:20] وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً, الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ [الكهف:103-104].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه صلى الله عليه وسلم على هدى مستقيم، جاء موضحا في آيات كثيرة، من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:79], وقوله تعالى: ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:67], وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:43].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ استدل به علماء

الأصول على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يجتهد، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد، استدلوا بقوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:43]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال:67]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:113].

قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد، لما قال ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ الآية، ولما قال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾، ولا منافاة بين الآيات، لأن قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عن الله إلا شيئًا أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول إنه شعر أو سحر أو كهانة، أو أساطير الأولين هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين في غزوة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحي خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضع

قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾.

المراد بـ ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ في هذه الآية: هو جبريل عليه السلام، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ هذا الوحي. ملك ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ هو جبريل.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين

أحدهما: أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علمه جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من الله.

والثاني: أن جبريل شديد القوة.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه، فقد جاء موضحا في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:97]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء:192-194]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه:114]، وقوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ

به﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:15–18], أي إذا قرأه عليك الملك المرسل به إليك منا مبلغا له عنا ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ، أي اقرأ كما سمعته يقرأ.

وأما الأمر الثاني، وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي، فقد ذكره في قوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:19–20], وقوله في آية التكوير هذه: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي لقوله المبلغ له عن الله، فقرينة ذكر الرسول تدل على أنه إنما يبلغ شيئًا أرسل به، فالكلام كلام الله بألفاظه ومعانيه، وجبريل مبلغ عن الله، وبهذا الاعتبار نسب القول له؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما سمعه إلا منه، فهو القول الذي أرسله الله به. وأمره بتبليغه، كما تدل عليه قرينة ذكر الرسول، وسيأتي إيضاح هذه المسألة إن شاء الله في سورة التكوير. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ .

قد قدمنا بعض الكلام عليه في أول سورة الإسراء.

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل:57]، وفي مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ , بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبين هذا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل:12–13] وبين في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل:91]، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ

وَيَرْضَى﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى:

(466/7)

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:48]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ [الزخرف:19]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ [الأحقاف:3]، وفي سورة الذاريات في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56] .

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:37] .

قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:49]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبراهيم الَّذِي وَفَّى تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ .

قوله: ﴿ تَوَلَّى ﴾ : أي رجع وأدبر عن الحق وقوله: ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ ، قال بعضهم قليلا من المال وقال بعضهم: ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ من الكلام الطيب وقوله: ﴿ وَأَكْدَى ﴾ أي قطع ذلك العطاء ولم يتمه، وأصله من أكدى صاحب الحفر إذا انتهى في حفره إلى

(467/7)

صخرة لا يقدر على الحفر فيها ، وأصله من الكدية وهي الحجارة تعترض حافر البئر ونحوه فتمنعه الحفر ، وهذا الذي أعطى قليلا وأكدى، اختلف فيه العلماء ، فقيل هو الوليد بن المغيرة قارب أن يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين، فقال: أتركت دين الأشياخ وضللتهم ؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تمامة فأنزل الله عز وجل الآية.

وعلى هذا فقوله: ﴿ تَوَلَّى ﴾ أي الوليد عن الإسلام بعد أن قارب، ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ من المال للذي ضمن له أن يتحمل عنه ذنوبه. ﴿ وَأَكْدَى ﴾ : أي بخل عليه بالباقي، وقيل ﴿ أَعْطَى قَلِيلاً ﴾ من الكلام الطيب كمدحه للقرآن، واعترافه بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَكْدَى ﴾ أي انقطع عن ذلك ورجع عنه.

وقيل: هو العاص بن وائل السهمي، كان ربما وافق النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور، وذلك هو معنى إعطائه القليل ثم انقطع عن ذلك، وهو معنى إكدائه، وهذا قول السدي ولم ينسجم مع قوله بعد ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ ﴾ .

وعن محمد بن كعب القرظي أنه أبو جهل، قال: والله ما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا بمكارم الأخلاق،

وذلك معنى إعطائه قليلا، وقطعه لذلك معروف

واقتصر الزمخشري على أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: روي أن عثمان بن عفان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أخوه من الرضاعة: يوشك ألا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوبا وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن العطاء فنزلت الآية ومعنى: ﴿ تَوَلَّى ﴾ ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل. انتهى منه.

ولا يخفى سقوط هذا القول وبطلانه، وأنه غير لائق بمنصب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور:

(468/7)

الأول: إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ ﴾ والمراد نفي علمه للغيب.

الثاني: أن لكل من إبراهيم وموسى صحفا لم ينبأ بما فيها هذا الكافر

الثالث: أن إبراهيم وفى أي أتم القيام بالتكاليف التي كلفه ربه بها

الرابع: أن في تلك الصحف، أنه ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

الخامس: أن فيها أيضا أنه ﴿ لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ .

السادس: ﴿ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ .

السابع: أنه ﴿ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى ﴾ ، أي الأكمل الأتم.

وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضع

أما الأول منها، وهو عدم علمهم الغيب، فقد ذكر تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الطور:41]، وقوله: ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ [مريم:78]، وقوله: ﴿ وَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران:179]، وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن:26-27] الآية. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:65] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقدقدمناها مرارا.

والثاني: الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفا لم يكن هذا المتولي المعطي قليلا المكدي عالما بها، ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:18-19].

والثالث: منها وهو إبراهيم وفي تكاليفه، فقد ذكره تعالى في قوله ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:124]، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلى بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه ﴿لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ

(469/7)

بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت:12] وقوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:18].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:15]، وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:25].

وأما الخامس منها: وهو أنه ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ، فقد جاء موضحا في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:7]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:46]، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

[الروم:44], والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ يدل على أن الإنسان لا يستحق أجرا إلا على سعيه بنفسه، ولم تعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات، لأن قوله ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ قد دلت اللام فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئًا إلا بسعيه، ولم تعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكا له ولا مستحقا له.

وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور:21].

وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ وبين قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ [الطور:21], في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة النجم، وقلنا فيه ما نصه: والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه . ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره، لأنه لم يقل وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى، وإنما قال: ﴿ وَأَنْ

(470/7)

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ﴾ ، وبين الأمرين فرق ظاهر، لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه.

وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه.

الثاني: أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم، إذ لو كانوا كفارا لما حصل لهم ذلك فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في الصلاة في الجماعة، فإن صلاة بعضهم مع

بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفردا، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ [الطور:21].

الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ولكن من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه، بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم

فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها، لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد، فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين، والخلق الذين ينشؤهم للجنة. والعلم عند الله تعالى. اهـ منه.

والأمر السادس والسابع: وهما أن عمله ﴿ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ، فقد جاءا موضحين في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الأعراف:8-9].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة:8].

وقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:47].

(471/7)

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء:13-14] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَهُوَ يَرَى ﴾ أي يعلم ذلك الغيب، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء في مقابلة تحمل الذنوب عن أعطى لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب، فيعلم به أن الذي

ضمن له تحمل ذنوبه بفعل ذلك، ولم ينبأ بما في الصحف الأولى، من أنه﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى،

وقد قدمنا تفسيره موضحا في سورة بني إسرائيل، وأنه لا يملك الإنسان ولا يستحق إلا سعي نفسه، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب غيره، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة

وقال أبو حيان في البحر: ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ بمعنى أخبرني، والمفعول الأول هو الموصول وصلته والمفعول الثاني هو جملة ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ [النجم:45-46].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة﴿ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ ﴾ أي النوعين الذكر والأنثى ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ ، وهي نطفة المني ﴿ إِذَا تُمْنَى ﴾ أي تصب وتراق في الرحم، على أصح القولين

ويدل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الواقعة:59] وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ [القيامة:37].

والعرب تقول: أمنى الرجل ومني إذا أراق المني وصبه.

وقال بعض العلماء: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ أي تقدر بأن يكون الله قدر أن ينشأ منها حمل، من قول العرب منى الماني إذا قدر، ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي، وقيل سويد بن عامر المصطلقي

لا تأمن الموت في حل وفي حرم. . . إن المنايا توافي كل إنسان

واسلك سبيلك فيها غير محتشم. . . حتى تلاقي ما يمني لك الماني

(472/7)

وقد قدمنا الكلام على النطفة مستوفي من جهات في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [النحل:4]، وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ

الْبَعْثِ﴾ [الحج:5]، وفي كل من الموضعين زيادة ليست في الآخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين، أعني الذكر والأنثى من النطفة جاء موضحا في غير هذا الموضع، وأنه يستدل به على أمرين هما قدرة الله على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة:36-40]، فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرا على من ظن ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ أي مهملا من التكليف والجزاء.

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ [الفرقان:54].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، وأحلنا عليها مرارا كثيرة

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لما أهلك به عادا، والآيات الموضحة لما أهلك به ثمود في سورة فصلت في قوله تعالى في الكلام في شأن عاد: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ [فصلت:16]، وقوله في شأن ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت:17].

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾.

قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى﴾ أي وأهلك قوم نوح ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر من

كما به كقوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ [الفرقان:37] .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:14] .

وقوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء:77] .

وقوله تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ [نوح:25] .

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [هود:37] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح﴿ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ ، أي أشد ظلما وطغيانا من غيرهم، قد بينه تعالى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ [نوح:5-7] .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ [نوح:21-24] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح:27] .

وقوله: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود:38] .

ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت:14] لأن قوما لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل، لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم

قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ .

المؤتفكة، مفتعلة من الإفك، وهو القلب والصرف، والمراد بها قرى قوم لوط بدليل قوله في غير هذا الموضع ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ بالجمع. فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مرارا، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب

(474/7)

وأحلنا عليه مرارا، وإنما قيل لها: مؤتفكة، لأن جبريل أفكها فأتفكت، ومعنى أفكها أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلا أعلاها أسفلها، وجعل عاليها أسفلها، هو ائتفاكها وإفكها

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة هود في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ [هود:82].

وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:73-74], وقد بينا قصة قوم لوط في هود والحجر.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ أَهْوَى﴾ . تقول العرب: هوى الشيء إذا انحدر من عال إلى أسفل وأهواه: غيره إذا ألقاه من العلو إلى السفل، لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها أي ألقاها تهوى إلى الأرض، منقلبة أعلاها أسفلها .

قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل:1]، وفي سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ [غافر:18].

قوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ .

قد قدمنا الآيات التي فيها إطلاق اسم الحديث على القرآن في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور:34].

(475/7)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر:

قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل:1]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام:7] .

قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [يس:51]، وفي سورة ق في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ [ق:44] .

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان:24] وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج:47] .

قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف هذا عامر: "فَفَتَّحْنَا" بتشديد التاء للتكثير، وباقي السبعة بتخفيفها

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحا دعاه قائلا: إن قومه غلبوه

سائلا ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم، فأهلكهم بالغرق، لأنه تعالى فتح ﴿ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيونا.

وقوله: ﴿ عُيُوناً ﴾ ، تمييز محول عن المفعول، والأصل فجرنا عيون الأرض. والتفجير: إخراج الماء منها بكثرة، و ﴿ الْ ﴾ ، في قوله: ﴿ الْتَقَى الْمَاءُ ﴾ للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ ، أي قدره الله وقضاه.

وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما الله بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر، والأول أظهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه جل وعلا، أن ينتصر له، من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعا بالغرق في هذا الماء الملتقى من السماء والأرض، جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء:77] .

وقوله تعالى في الصافات: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ .

وقد بين جل وعلا أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكا مستأصلا وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: ﴿ فَانْتَصِرْ ﴾ وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح:26-27] وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ [هود:36]، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:40] .

وقوله تعالى: ﴿ عُيُوناً ﴾ قرأه ابن كثير وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم، في رواية شعبة وحمزة

والكسائي: "عِيُوناً" بكسر العين لمجانسة الياء

وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام وعاصم في رواية حفص﴿ عُيُوناً ﴾ بضم العين على الأصل.

(477/7)

قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ .

لم يبين هنا ذات الألواح والدسر، ولكنه بين في مواضع أخر أن المراد وحملناه على سفينة﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ ، أي من الخشب ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ أي: مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد الدسر دسار ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة

وقال بعض العلماء: الدستور جؤجؤ السفينة أي صدرها ومقدمها الذي تدسر به الماء أي تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر وهو الدفع.

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:11] أي السفينة كما أوضحناه في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ ﴾ [الشورى:32] .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ [العنكبوت:15]، وقوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس:41]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

الضمير في قوله تعالى: ﴿ تَرَكْنَاهَا ﴾ ، قال بعض العلماء إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح والمعنى، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم، لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل، لئلا نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح وكون هذه الفعلة آية نص عليه تعالى بقوله ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ

أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان:37] وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:119–121].

وقال بعض العلماء: الضمير في ﴿ تَرَكْنَاهَا ﴾ عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية بينه الله تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:15] وقوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:41–42].

(478/7)

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد:24].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له، وكلام أهل العلم في يوم النحس المستمر، في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت:16].

قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهما في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [صّ:4]، وقوله تعالى: ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ [صّ:8].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ .

قوله: ﴿ مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾ ، أي مخرجوها من الهضبة، ﴿ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أي ابتلاء واختبارا، وهو مفعول من أجله، لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقة من صخرة، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه، فأخرج الله الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح، وفتنة لهم أي ابتلاء واختبارا، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها،

وأن الله حذرهم على لسان نبيه صالح من أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أخذهم الله بعذابه

والمفسرون يقولون: إنهم قالوا له: إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة وبراء عشراء اتبعناك

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحانا واختبارا، وأنهم إن تعرضوا لآية الله

هذه، التي هي الناقة بسوء أهلكهم، جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الأعراف

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ

(479/7)

لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:73]، وقوله تعالى في سورة هود عن صالح: ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:64–65]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:155–156] .

وقد بين تعالى: أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأعراف ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:77]، إلى قوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:78]، وقوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء:157–158]، وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ ﴾ [الشمس:14] .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:17] .

قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ ، أي: أخبر يا صالح ثمود أن الماء وهو ماء

البئر التي كانت تشرب منها الناقة قسمة بينهم، فيوم للناقة ويوم لثمود، فقوله﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الناقة وثمود، وغلب العقلاء على الناقة﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ أي يحضره صاحبه، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحا في آية أخرى وهي قوله تعالى في الشعرا﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:155] وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:13] .

قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ .

قوله: ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ ، قال أبو حيان في البحر: ﴿ فتعاطى ﴾ هو مطاوع عاطا، وكأن

(480/7)

هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضا، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول: تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله، وعاطاه إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه

كلتاهما حلب العصير فعاطني. . . بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله: ﴿ فَعَقَرَ﴾ أي تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه﴿ صَاحِبَهُمْ﴾ ، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم وذلك في قوله ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة، لأنه قال: ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ ، بالإفراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:77]، وقوله تعالى في هود: ﴿ فَعَقَرُوهَا

فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:65]، وقوله في الشعراء: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:157]، وقوله في الشمس: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس:14] .

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحدا منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره ومعلوم أن المتمالئين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضا إلى الجميع، لأنهم متمالئون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ على ندائهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ أي نادوه ليعقرها .

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مرادا به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب

وقد قدمنا في سورة الحجرات أن منه قراءة حمزة في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ

فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة:191]، بصيغة المجرد في الفعلين، لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله، بل المراد في إن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، ونظيره قول ابن مطيع

فإن تقتلونا عند حرة واقم . . . فإنا على الإسلام أول من قتل

أي فإن تقتلوا بعضنا، وأن منه أيضا: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ [الحجرات:14] لأن هذا في بعضهم دون بعض، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:99] .

وقد قدمنا في الحجرات وغيرها، أن من أصرح الشواهد العربية في ذلك قول الشاعر

فسيف بني عبس وقد ضربوا به . . . نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

وقوله تعالى: ﴿ فَعَقَرَ ﴾ , أي قتلها . والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح ومنه قول امرىء القيس

تقول وقد مال الغبيط بنا معا . . . عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

ومن إطلاق العقر على نحر الإبل لقري الضيف قول جرير

تعدون عقر الذيب أفضل مجدكم . . . بني ضوطرا لولا الكمي المقنعا

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ .

قوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ , قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ [الفرقان:40]، وقوله: ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحا شافيا بكثرة

(482/7)

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود وسورة الحجر في الكلام على القصة المذكورة في السورتين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ .

تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور:

الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر.

الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله.

الثالث: أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات أخر من كتاب الله

أما الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه

اعلم أولا: أن قوله: ﴿ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ ، قيل: هو جمع نذير وهو الرسول وقيل هو مصدر بمعنى الإنذار فعلي أنه مصدر.

فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون، وعلى أنه جمع نذير أي منذر، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في طه: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [طه:47] . ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [طه:48] ونحوها من الآيات، وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن الله تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون، كما قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:16], وهنا جمع النذر في قوله ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ ، وللعلماء عن هذا أجوبة أحدها: أن أقل الجمع اثنان كما هو المقرر في أصول مالك بن أنس رحمه الله، وعقده صاحب مراقي السعود بقوله

أقل معنى الجمع في المشتهر . . . لاثنان في رأي الإمام الحمير

(483/7)

قالوا، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم:4] ولهما قلبان فقط وقوله ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ [النساء:11], والمراد بالإخوة اثنان فصاعدا كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافا لابن عباس، وقوله: ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ [طه:130], وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون ومنها أن ﴿ النُّذُرُ ﴾ مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق في الجواب، أن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيرا واحدا فقد كذب جميع النذر، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة، وهي مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25], وقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:45] .

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميع في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾ [النساء:150–151]، وأشار إلى ذلك في قوله: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة:285] . وقوله: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136], وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء:152] .

وقد أوضح تعالى في سورة الشعراء أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:105] ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحا وحده، حيث فرد ذلك بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء:117], وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:123]، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرده بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:124] ونحو ذلك في قوله تعالى في

(484/7)

قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحا قوله صلى الله عليه وسلم "إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد" يعني أنهم كلهم متفقون في

الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله، فقد جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:132]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه:56]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ [النازعات:20–21]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:12–14].

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ، فقد جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذريات:38–40] وقوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:78] وقوله تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة:50] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ يوضحه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:102].

وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"، ثم تلى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ [هود:102]، والعزيز الغالب، والمقتدر: شديد القدرة عظيمها.

قوله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ [الزخرف:8]، وفي صدر سورة الروم، وغير ذلك من المواضع

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور:13] .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزخرف في بعض المناقشات التي ذكرناها في الكلام على قوله تعالى ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ .

الصحيح في معنى الآية أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر، التي هي صحف الأعمال ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ ، أي مكتوب عليهم لا يترك منه شيء.

وهذا المعنى جاء موضحا في آيات من كتاب الله كقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ [الكهف:49]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ [آل عمران:30] .

والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب. والمستطر معناه المسطور، أي المكتوب، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ .

أي في جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك في قوله ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة:25]، وقوله تعالى: ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد:15] .

وقد ذكرنا كثيرا من أمثلة إطلاق المفرد، وإرادة الجمع كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه وإضافته، وأكثرنا أيضا من الشواهد العربية على ذلك في سورة

الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج:5]، وفي غير ذلك من المواضع والعلم عند الله تعالى.

(487/7)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرحمن:

قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ .

قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية لما تجاهل الكفار الرحمن جل وعلا، كما ذكره الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان:60], كما تقدم في الفرقان.

وقد قدمنا معنى الرحمن وأدلته من الآيات في أول سورة الفاتحة

قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ . أي علم نبيه صلى الله عليه وسلم القرآن فتلقته أمته عنه، وهذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار في قولهم إنه تعلم هذا القرآن من بشر كما تقدم في قوله﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل:103]، وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر:24] أي يرويه محمد عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:4-5] .

فقوله تعالى هنا: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن جل وعلا هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جدا، كقوله تعالى﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفرقان:6]، وقوله تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

خَبِيرٍ﴾ [هود:1]، وقوله تعالى: ﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [فصلت:1-4] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى

(488/7)

عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:52], وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ [طه:113], وقوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان:33], وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:17-19], وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52] وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:3], وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء:113], ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم. وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:185] .

وتعليمه جل وعلا هذا القرآن العظيم، قد بين في مواضع أخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:32] .

وقد علم الله تعالى الناس أن يحمدوه على هذه النعمة العظمى التي هي إنزال القرآن، وذلك في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ [الكهف:1]، وبين أن إنزاله رحمة منه لخلقه جل وعلا في آيات من كتابه كقوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص:86] وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الدخان:5-6], وقد بينا الآيات الموضحة لذلك في الكهف والزخرف.

﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ حذف في أحد المفعولين، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثاني كما ظنه الفخر الرازي، وقد رده عليه أبو حيان، والصواب هو ما ذكره، من أن المحذوف الأول، وتقديره علم النبي صلى الله عليه وسلم وقيل جبريل، وقيل الإنسان.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ .

اعلم أولا أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة، كما أشار تعالى لذلك بقوله، في أول النحل: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾

(489/7)

[النحل:4]، وقوله: في آخر يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [يس:77].

فالإنسان بالأمس نطفة واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام يجادل في ربه وينكر قدرته على البعث، فالمنافاة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام، مع أن خلقه من نطفة وجعله خصيما مبينا آية من آياته جل وعلا دالة على أن المعبود وحده، وأن البعث من القبور حق.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في الفلاح ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون:12-14]، والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة.

وقد بينا ما يتعلق بالإنسان من الأحكام في جميع أطواره قبل ولادته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [الحج:5]، وبينا هناك معنى النطفة والعلقة والمضغة في اللغة.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في

الضمير.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحا في قوله تعالى﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [النحل:4] في سورة النحل ويس، وقوله ﴿ مُبِينٌ ﴾ على أنه اسم فاعل أبان المتعدية، والمفعول محذوف للتعميم، أي مبين كل ما يريد بيانه، وإظهاره بلسانه مما في ضميره، وذلك لأنه ربه علمه البيان، وعلى أنه صفة مشبهة من أبان اللازمة، وأن المعنى﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ أي بين الخصومة ظاهرها، فكذلك أيضا، لأنه ما كان بين الخصومة إلا لأن الله﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ .

وقد امتن الله جل وعلا على الإنسان بأنه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان، وذلك في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد:8-9] .

(490/7)

قوله تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ .

الحسبان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، كما زيدت في الطغيان والرجحان والكفران، فمعنى ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي بحساب وتقدير من العزيز العليم وذلك من آيات الله ونعمه أيضا على بني آدم، لأنهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام، ويعرفون شهر الصوم وأشهر الحج ويوم الجمعة وعدد النساء اللاتي تعتد بالشهور، كاليائسة والصغيرة والمتوفي عنها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾

[الإسراء:12] .

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ .

اختلف العلماء في المراد بالنجم في هذه الآية، فقال بعض العلماء النجم هو ما لا ساق له من النبات كالبقول، والشجر هو ما له ساق، وقال بعض أهل العلم المراد بالنجم نجوم السماء.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله جل وعلا في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه. ونعني بآية الحج قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ ﴾ [الحج:18] .

فدلت هذه الآية أن الساجد من الشجر في آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وعلى هذا الذي اخترنا فالمراد بالنجم النجوم، وقد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم

(491/7)

وأول سورة الحج، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجم قول الراعي

فباتت تعد النجم في مستحيرة. . . سريع بأيدي الآكلين جمودها

وقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي:

أبرزها مثل المهاة تهادى. . . بين خمس كواعب أتراب

ثم قالوا تحبها قلت بهرا . . . عدد النجم والحصا والتراب

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ .

قوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ قد بينا الآيات الموضحة له في سورة ق في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق:6] .

وقوله: ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ، قد قدمنا الكلام عليه في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:17] .

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:152]، وذكرنا بعضه في سورة شورى.

قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية أنه وضع الأرض للأنام وهو الخلق، لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم، القابل لجميع أنواع الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار وزرع الحبوب والثمار، ودفن الأموات وغيرذلك من أنواع المنافع من أعظم الآيات

(492/7)

وأكبر الآلاء التي هي النعم، ولذا قال تعالى بعده ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه جل وعلا على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع، وجعلها آية لهم، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده، جاء موضحا في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد:3]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك:15].

وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا, أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا, وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا, مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:33] وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذريات:48], وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ [البقرة:22] .

وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ, تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ, وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً﴾ [ق:7-9] .

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:29], والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي فواكه كثيرة، وقد قدمنا أن هذا أسلوب عربي معروف، وأوضحنا ذلك بالآيات وكلام العرب

وقوله: ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ذات أي صاحبة، والأكمام جمع كم بكسر الكاف، وهو ما يظهر من النخلة في ابتداء إثمارها، شبه اللسان ثم ينفخ عن النور، وقيل: هو ليفها، واختار ابن جرير شموله للأمرين

وقوله: ﴿ وَالْحَبُّ﴾ كالقمح ونحوه.

وقوله: ﴿ ذُو الْعَصْفِ﴾ ، قال أكثر العلماء: ﴿ الْعَصْفِ﴾ ورق الزرع، ومنه قوله تعالى: ﴿ فجعلهم كعصف مأكول﴾ وقيل ﴿ الْعَصْفِ﴾ : التبن.

وقوله: ﴿ وَالرَّيْحَانُ﴾ , اختلف العلماء في معناه، فقال بعض أهل العلم: هو كل

ما طاب ريحه من النبت وصار يشم للتمتع بريحه وقال بعض العلماء ﴿ الرَّيْحَانُ﴾ : الرزق، ومنه قول النجم بن تولب العكلي:

فروح الإله وريحانه . . . ورحمته وسماء درر

غمام ينزل رزق العباد . . . فأحيا البلاد وطاب الشجر

ويتعين كون ﴿ الرَّيحَانُ ﴾ بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائي، وأما على قراءة غيرهما فهو محتمل للأمرين المذكورين.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيحَانُ ﴾ بضم الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وهو عطف على ﴿ فَاكِهَةٌ ﴾ أي فيها فاكهة، وفيها الحب إلخ.

وقرأه ابن عامر: "وَالْحَبَّ ذَا الْعَصْفِ وَالرَّيحَانَ"، بفتح الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وفي رسم المصحف الشامي "ذَا الْعَصْفِ" بألف بعد الذال، مكان الواو، والمعنى على قراءته وخلق الحب ذا العصف والريحان، وعلى هاتين القراءتين، فالريحان محتمل لكلا المعنيين المذكورين

وقراءة حمزة والكسائي بضم الباء في الحب وضم الذال في ذو العصف وكسر نون الريحان عطفا على العصف، وعلى هذا فالريحان لا يحتمل المشموم لأن الحب الذي هو القمح ونحوه صاحب عصف وهو الورق أو التبن وليس صاحب مشموم طيب ريح

فيتعين على هذه القراءة أن المراد بالعصف ما تأكله الأنعام من ورق وتبن، والمراد بالريحان ما يأكله الناس من نفس الحب، فالآية على هذا المعنى كقوله ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات:33]، وقوله تعالى: ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ [السجدة:27]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه:54]، وقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ ﴾ [النحل:10-11] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ما ذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التي هي أنواع، جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة

الفلاح: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:19], وقوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:31] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره هنا من الامتنان بالحب جاء موضحا في آيات أخر، كقوله تعالى ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [قّ:9]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً ﴾ [عبس:27–28] وقوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:33]، وقوله تعالى: ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً﴾ [الأنعام:99], وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام:95] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنحل، جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله تعالى﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ, رِزْقاً لِلْعِبَادِ ﴾ [قّ:10–11]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [المؤمنون:19]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة

وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان، على أنه الرزق كما في قراءة حمزة والكسائي، جاء موضحا في آيات كثيرة أيضا كقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً ﴾ [غافر:13], وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:31]، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك:21], وقوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر:64]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

مسألة:

أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة:29], أن الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع، لأن الله امتن على الأنام بأنه وضع لهم الأرض، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية الرحمن هذه، وامتن عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعا في قوله ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:29] .

ومعلوم أنه جل وعلا لا يمتن بحرام إذ لا منة في شيء محرم، واستدلوا لذلك أيضا بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِيمَا

أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام:145]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:33], وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:151] .

وفي هذه المسألة قولان آخران:

أحدهما: أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله جل وعلا، والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه، وفي هذا مناقشات معروفة في الأصول، ليس هذا محل بسطها.

القول الثاني: هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الليل، فتحصل أن في المسألة ثلاثة مذاهب: المنع، والإباحة، والوقف.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو التفصيل، لأن الأعيان التي خلقها الله في الأرض للناس بها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها .

الثانية: أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة

الثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29], وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ .

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله صلى الله عليه وسلم "لا ضرر ولا ضرار" .

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات

الأولى: أن يكون النفع أرجح من الضرر.

والثانية: عكس هذا .

والثالثة: أن يتساوى الأمران.

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساويا له فالمنع لحديث "لا ضرر ولا

(496/7)

ضرار" ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وإن كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز، لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة، كما أشار له في مراقي السعود بقوله

وألغ إن يك الفساد أبعدا

أو رجح الإصلاح كالأسارا . . . تفدى بما ينفع للنصارا

وانظر تدلي دوالي العنب . . . في كل مشرق وكل مغرب

ومراده: تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة، أو البعيدة ممثلا له بمثالين:

الأول منهما: أن تخليص أسارى المسلمين من أيدي العدو بالفداء مصلحة راجحة قدمت على المفسدة المرجوحة، التي هي انتفاع العدو بالمال المدفوع لهم فداء للأسارى

الثاني: أن انتفاع الناس بالعنب والزبيب، مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر من العنب، فلم يقل أحد بإزالة العنب من الدنيا لدفع ضرر عصر الخمر منه، لأن الانتفاع بالعنب والزبيب مصلحة راجحة على تلك المفسدة، وهذا التفصيل الذي اخترنا، قد أشار له صاحب مراقي السعود بقوله

والحكم ما به يجيء الشرع . . . وأصل كل ما يضر المنع

تنبيه:

اعلم أن علماء الأصول يقولون إن الإنسان لا يحرم عليه فعل شيء إلا بدليل من الشرع، ويقولون إن الدليل على ذلك عقلي، وهو البراءة الأصلية المعروفة بالإباحة العقلية، وهي استصحاب العدم الأصلي حتى يرد دليل

ناقل عنه.

ونحن نقول: إنه قد دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب العدم الأصلي قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة في الإباحة، ومن ذلك أن الله لما أنزل تشديده في تحريم الربا في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة:279]، وكانت وقت نزولها عندهم أموال مكتسبة من الربا، اكتسبوها قبل نزول التحريم، بين الله تعالى لهم أن ما فعلوه من الربا، على البراءة الأصلية قبل نزول التحريم لا حرج عليهم فيه، إذ

(497/7)

لا تحريم إلا ببيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ [البقرة:275]، وقوله: ﴿ مَا سَلَفَ ﴾ أي ما مضى قبل نزول التحريم ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء:22] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء:23] والأظهر أن الاستثناء فيهما في قوله ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ منقطع أي لكن ما سلف من ذلك قبل نزول التحريم، فهو عفو، لأنه على البراءة الأصلية

ومن أصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:115]، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما استغفر لعمه أبي طالب بعد موته على الشرك، واستغفر المسلمون لموتاهم المشركين عاتبهم الله في قوله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ [التوبة:113]، ندموا على الاستغفار لهم، فبين الله لهم أن استغفارهم لهم لا مؤاخذة به، لأنه وقع قبل بيان منعه، وهذا صريح فيما ذكرنا

وقد قدمنا أن الأخذ بالبراءة الأصلية يعذر به في الأصول أيضا في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:15]، وبينا هناك كلام أهل العلم في ذلك، وأوضحنا ما جاء في ذلك من الآيات القرآنية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ . الصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي صوت إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال المنتن، والفخار الطين المطبوخ، وهذه الآية بين الله فيها طورا من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران:59]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج:5]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم:20]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [غافر:67]، وقوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:55].

(498/7)

وقد بينا في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج:5]، وقوله: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ [طه:55]، أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها، لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طينا، ولذا قال: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء:61] وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون:12]، وقال تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة:7]، وقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ [الصافات:11]، وقال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ [ص:71] ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنونا، أي طينا أسود متغير الريح كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:26]، قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:28] وقال عن إبليس: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر:33]، والمسنون قيل المتغير وقيل المصور وقيل الأملس، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالا؛ كما قال هنا: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ ﴾ .

فالآيات يصدق بعضها بعضها، وتبين فيها أطوار ذلك التراب؛ كما لا يخفى

قوله: ﴿وَالْجَانَّ﴾ أي وخلق الجان وهو أبو الجن، وقيل هو إبليس وقيل: هو الواحد من الجن.

وعليه فالألف واللام للجنس، والمارج اللهب الذي لا دخان فيه، وقوله ﴿مِنْ نَارٍ﴾ بيان لمارج. أي من لهب صاف كائن من النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى خلق الجان من النار، جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:12].

وقد أوضحنا الكلام على هذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34].

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ .

(499/7)

قد أوضحنا الكلام عليه في أول الصافات في الكلام على قوله تعالى ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات:5].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ [الفرقان:53].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ .

قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو، "يُخْرَجُ" بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول، وعليه فاللؤلؤ نائب فاعل يخرج وقرأه باقي السبعة ﴿يَخْرُجُ﴾ بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل، وعليه فاللؤلؤ فاعل يخرج.

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب.

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه، لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر:12], فالتنوين في قوله: ﴿مِنْ كُلٍّ﴾ تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه

وقد أوضحنا هذا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام:130], واللؤلؤ الدر، والمرجان الخرز الأحمر. وقال بعضهم: المرجان صغار الدر واللؤلؤ كباره.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾ .

(500/7)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾ [الشورى:32] .

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه جل وعلا المتصف بالجلال والإكرام، جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:88]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:58], وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل

عمران:185] إلى غير ذلك من الآيات.

والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسه، فعلينا أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، وفي سورة القتال والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر:17] وتكلمنا أيضا هناك على غيرها من الآيات التي يفسرها الجاهلون بكتاب الله بغير معانيها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: ﴿ وَرْدَةً﴾ , أي حمراء كلون الورد، وقوله﴿ كَالدِّهَانِ﴾ , فيه قولان معروفان للعلماء.

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه.

(501/7)

والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه، فالدهان، قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد، لأن العرب تسمى ما يدهن به دهانا، وهو مفرد، ومنه قول امرىء القيس

كأنهما مزادتا متعجل . . . فريان لما تدهني بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها

يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبهها بجمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر.

قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها.

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله وقد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر.

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ [المعارج:8]، والمهل شيء ذائب على كلا القولين سواء قلنا: إنه دردي الزيت وهو عكره، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف:29].

والقول بأن الوردة تشبيه الفرس الكميت وهو الأحمر لأن حمرته تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حمرتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل

وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية، وقول من قال إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ [الطور:9]، ولكنه لا يخلو عندي من بعد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:1]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ [الحاقة:15-16] وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان:25]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:1]، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة ق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق:6].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه يوم القيامة لا يسأل إنسا ولا جانا عن ذنبه، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في القصص: ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:78].

وقد ذكر جل وعلا في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:6]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:92-93].

وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافا اعلم أولا: أن للسؤال المنفي في قوله هنا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ ، وقوله: ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:78]، أخص من السؤال المثبت في قوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أن السؤال نوعان: أحدهما سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب، والثاني هو سؤال الاستخبار والاستعلام فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام، لأن الله أعلم

بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة:6] .

وعليه فالمعنى: ﴿ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ ، سؤال استخبار واستعلام لأن الله أعلم بذنبه منه والسؤال المثبت في الآيات الآخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران:106]، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات:24–26]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً، هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ الآية [الطور:13–15]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ [الأنعام:130] .

أما سؤال الموءودة في قوله: ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ [التكوير:8]، فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب، لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه، لأنها هي تقول لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلما.

وكذلك سؤال الرسل، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته، وباقي أوجه الجمع بين الآيات لا يدل عليه قرآن، وموضوع هذا الكتاب بيان القرآن بالقرآن، وقد بينا بقيتها في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في أول سورة الأعراف

وقد قدمنا طرفا من هذا الكتاب المبارك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:6] .

قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ .

قوله: ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بعلامتهم المميزة لهم، وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران:106]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى

اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:60]، وقال تعالى: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:27]، وقال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:42]، لأن معنى قوله: ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود، وقال تعالى في زرقة عيونهم ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ [طه:102] ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون، ولذا لما أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوإ الأوصاف وأقبحها، فوصفها بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال

وللبخيل على أمواله علل. . . زرق العيون عليها أوجه سود

ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره، كما في قوله ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ فإن ذلك يزيده قبحا على قبح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ، وقد قدمنا تفسيره والآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً ﴾ [الطور:13].

قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ .

أما قوله: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور أيضا في الكلام على قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:14].

وأما قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:44]، فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله: ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج:20].

قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ .

قد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن الآية قد يكون فيها وجهان صحيحان كلاهما يشهد له قرآن، فنذكر ذلك كله مبينين أنه كله حق، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في

هذا الكتاب المبارك، ومن ذلك هذه الآية الكريمة

وإيضاح ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء، كلاهما يشهد له قرآن

أحدهما: أن المراد بقوله: ﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ , أي قيامه بين يدي ربه، فالمقام اسم مصدر بمعنى القيام، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه بين يديه، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات:39–41]، فإن قوله: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النازعات:40], قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه، فنهى نفسه عن هواها.

والوجه الثاني: أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام، هو الله تعالى أي خاف هذا العبد قيام العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:255]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:33]، وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس:61], إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى في شأن الجن ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف:31]، أن قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ، وتصريحه بالامتنان بذلك على الإنس والجن في قوله ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:47]، نص قرآني على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة

قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ .

قد بينا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل:14], جميع الآيات القرآنية الدالة على تنعم أهل الجنة بالسندس والإستبرق، والحلية بالذهب والفضة، وبينا أن جميع ذلك

يحرم على ذكور هذه الأمة في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ .

(506/7)

قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات:48] .

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ .

قد قدمنا معنى القصر في الخيام، وقصر الطرف على الأزواج في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات:48]، وقدمنا الآيات الدالة على صفات نساء أهل الجنة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في سورة البقرة والصافات وغير ذلك.

(507/7)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة:

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ .

الذي يظهر لي صوابه أن ﴿إِذَا﴾ هنا هي الظرفية المضمنة معنى الشرط، وأن قوله الآتي ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً﴾ بدل من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ وأن جواب ﴿إِذَا﴾ هو قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ، وهذا هو اختيار أبي حيان خلافا لمن زعم أنها مسلوبة معنى الشرط هنا، وأنها منصوبة بأذكر مقدرة أو أنها مبتدأ، وخلافا لمن زعم أنها منصوبة بـ: ﴿لَيْسَ﴾ المذكورة بعدها .

والمعروف عند جمهور النحويين أن ﴿ إِذَا ﴾ ظرف مضمن معنى الشرط منصوب بجزائه، وعليه فالمعنى إذا قامت القيامة وحصلت هذه الأحوال العظيمة ظهرت منزلة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أي قامت القيامة، فالواقعة من أسماء القيامة كالطامة والصاخة والآزفة والقارعة.

وقد بين جل وعلا أن الواقعة هي القيامة في قوله ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ, وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة:13-16].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء كلها حق، وبعضها يشهد له قرآن.

الوجه الأول: أن قوله ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ مصدر جاء بصفة اسم الفاعل، فالكاذبة بمعنى الكذب كالعافية بمعنى المعافاة، والعاقبة بمعنى العقبى، ومنه قوله تعالى عند جماعات من العلما ﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ [الغاشية:11]، قالوا معناه لا تسمع فيها لغوا، وعلى هذا القول، فالمعنى ليس لقيام القيمة كذب ولا تخلف بل هو أمر واقع يقينا لا محالة.

(508/7)

ومن هذا المعنى، قولهم حمل الفارس على قرنه فما كذب، أي ما تأخر ولا تخلف ولا جبن

ومنه قول زهير:

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا . . . ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء:87]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج:7]، وقوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران:9]، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:7] .

الوجه الثاني: أن اللام في قوله: ﴿ لِوَقْعَتِهَا ﴾ ظرفية، و ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ اسم فاعل صفة لمحذوف أي ليس في وقعة الواقعة نفس كاذبة بل جميع الناس يوم القيامة صادقون بالاعتراف بالقيامة مصدقون بها ليس فيهم نفس كاذبة بإنكارها ولا مكذبة بها.

وهذا المعنى تشهد له في الجملة آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الشعراء:201]، وقوله تعالى: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:55] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:66]، وباقي الأوجه قد يدل على معناه قرآن ولكنه لا يخلو من بعد عندي، ولذا لم أذكره، وأقربها عندي الأول

قوله تعالى: ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ .

خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة رافعة، ومفعول كل من الوصفين محذوف.

قال بعض العلماء: تقديره هي خافضة أقواما في دركات النار، رافعة أقواما إلى الدرجات العلى إلى الجنة، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:145]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ

(509/7)

الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [طه:75-76], وقوله تعالى: ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:21], والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقال بعض العلماء: تقديره خافضة أقواما كانوا مرتفعين في الدنيا رافعة أقواما كانوا منخفضين في الدنيا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين:29-35]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: تقديره، خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:2] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير:2] .

﴿رَافِعَةٌ﴾ ، أي: رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:47]، فقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:47]، لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:88] .

وقد قدمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن، أن ذلك يوم القيامة، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن.

وقد صرح بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضا يوم القيامة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [الحاقة:13-14] .

وعلى هذا القول، فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة، وأنه يختل فيه نظام العالم، وعلى القولين الأولين، فالمراد الترغيب والترهيب، ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضا، وقد قدمنا مرارا أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ .

قد قدمنا أن الأظهر عندنا أن قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ , بدل من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ، والرج: التحريك الشديد ، وما دلت عليه هذه الآية من أن الأرض يوم القيامة تحرك تحريكا شديدا جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:1]، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1], وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ في معناه لأهل العلم أوجه متقاربة، لا يكذب بعضها بعضا وكلها حق، وكلها يشهد له قرآن

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها أوجه كلها حق وكلها يشهد له قرآن، فنذكر جميع الأوجه وأدلتها القرآنية

الوجه الأول: قال أكثر المفسرين: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ أي فتت تفتيتا حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقا عنده فخاف أن يعجل عنه، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقا ملتوتا، وهو البسيسة

لا تخبزا خبزا وبسا بسا . . . ولا تطيلا بمناخ حبسا

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [المزمل:14]، فقوله: ﴿كَثِيباً مَهِيلاً﴾ أي رملا متهايلا، ومنه قول امرىء القيس

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت. . . علي وآلت حلفة لم تحلل

ومشابهة الدقيق المبسوس بالرمل المتهايل واضحة، فقوله ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ مطابق في المعنى لتفسير ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ بأن بسها هو تفتيتها وطحنها كما ترى

وما دلت عليه هذه الآيات من أنها تسلب عنها قوة الحجرية وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق، والرمل المتهايل يشهد له في الجملة تشبيهها في بعض الآيات بالصوف المنفوش الذي هو العهن، كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة:5]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ

الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج:9]، وأصل العهن أخص من مطلق الصوف لأنه الصوف المصبوغ خاصة ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتات العهن في كل منزل. . . نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم: الجبال منها جدد بيض وحمر ومختلف ألوانها وغرابيب سود، فإذا بست وفتتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى، وهذا الوجه يدل عليه ترتيبٍ كينونتها ﴿هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ بالفاء على قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها. ﴿مُنْبَثّاً﴾ أي متفرقا، ووصفها بالهباء المنبث أنسب لتكون البس بمعنى التفتيت والطحن

الوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ أي سيرت بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها من قول العرب: بسست الإبل أبسها، بضم الباء وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ومنه حديث: "يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام، والعراق يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون".

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف:47]، وقوله ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ [الطور:10].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:88].

الوجه الثالث: أن معنى قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ نزعت من أماكنها وقلعت، وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال الجبال يوم القيامة، وأطوارها، بالآيات القرآنية، وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ [طه:105]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ [النبأ:20]، والهباء إذا انبث، أي تفرق، واضمحل وصار لا شيء، والسراب قد قال الله تعالى فيه: ﴿حتى إذا جاءه لم

يجده شيئا ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً ﴾ .

(512/7)

أي صرتم أزواجا ثلاثة، والعرب تطلق كان بمعنى صار، ومنه ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ أي فتصيرا من الظالمين.

ومنه قول الشاعر:

بتيهاء قفر والمطي كأنها . . . قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

وقوله: ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ ، أي أصنافا ثلاثة، ثم بين هذه الأزواج الثلاثة بقوله ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أما أصحاب الميمنة فهم أصحاب اليمين، كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ ، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ .

قال بعض العلماء: قيل لهم أصحاب اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم

وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة

وقيل: لأنهم عن يمين أبيهم آدم، كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ليلة الإسراء

وقيل سموا أصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة لأنهم ميامين، أي مباركون على أنفسهم، لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة، واليمن البركة.

وسمي الآخرون أصحاب الشمال، وقيل: لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم

وقيل لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تسمي الشمال شؤما، كما تسمي اليمين يمينا، ومن هنا

قيل لهم أصحاب المشأمة أو لأنهم مشائيم على أنفسهم فعصوا الله فأدخلهم النار، والمشائيم ضد الميامين، ومنه قول الشاعر:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة. . . ولا ناعب إلا ببين غرابها

وبين جل وعلا أن السابقين هم المقربون، وذلك في قوله ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ، وهذه الأزواج الثلاثة المذكورة هي

(513/7)

وجزاؤها في أول هذه السورة الكريمة جاءت هي وجزاؤها أيضا في آخرها، وذلك في قوله﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ .

والمكذبون هم أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال

وذكر تعالى بعض صفات أصحاب الميمنة والمشأمة في البلد في قوله تعالى ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ [البلد:13–20].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ، وقوله: ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ استفهام أريد به التعجب من شأن هؤلاء في السعادة، وشأن هؤلاء في الشقاوة، والجملة فيهما مبتدأ وخبر، وهي خبر المبتدأ قبله، وهو أصحاب الميمنة في الأول وأصحاب المشأمة في الثاني

وهذا الأسلوب يكثر في القرآن نحو ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ، ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ، والرابط في جملة الخبر في جميع الآيات المذكورة هو إعادة لفظ المبتدأ في جملة الخبر كما لا يخفي، وقوله ﴿ وَالسَّابِقُونَ﴾ لم يذكر فيه استفهام تعجب كما ذكره فيما قبله، ولكنه ذكر في مقابلة تكرير لفظ السابقين

والأظهر في إعرابه أنه مبتدأ وخبر على عادة العرب في تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثاني عن الأول، يعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذي لا يحتاج إلى تعريف ومنه قول أبي النجم

أنا أبو النجم وشعري شعري. . . لله درى ما أجن صدري

فقوله: وشعري شعري يعني شعري هو الذي بلغك خبره، وانتهى إليك وصفه

قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير، هم ثلة، والثلة الجماعة من الناس،

(514/7)

وأصلها القطعة من الشيء وهي الثل، وهو الكسر.

وقال الزمخشري: والثلة من الثل، وهو الكسر، كما أن الأمة من الأم وهو الشبح، كأنها جماعة كسرت من الناس، وقطعت منم . اهـ منه.

واعلم أن الثلة تشمل الجماعة الكثيرة، ومنه قول الشاعر:

فجاءت إليهم ثلة خندفية. . . بجيش كتيار من السيل مزبد

لأن قوله: تيار من السيل: يدل على كثرة هذا الجيش المعبر عنه بالثلة

وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الثلة من الأولين، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا، كما اختلفوا في الثلتين المذكورتين في قوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة:39-40]، فقال بعض أهل العلم: كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة، وأن المراد بالأولين منهم الصحابة

وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير في قوله صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم" الحديث، والذين قالوا: هم كلهم من هذه الأمة، قالوا: إنما المراد بالقليل، ﴿ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ ، وهم من بعد ذلك إلى قيام الساعة.

وقال بعض العلماء: المراد بالأولين في الموضعين الأمم الماضية قبل هذه الأمة، فالمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة.

قال مقيده عفا الله عنه، وغفر له ظاهر القرآن في هذا المقام أن الأولين في الموضعين من الأمم الماضية، والآخرين فيهما من هذه الأمة، وأن قوله تعالى ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ في السابقين خاصة، وأن قوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ في أصحاب اليمين خاصة.

وإنما قلنا: إن هذا هو ظاهر القرآن في الأمور الثلاثة، التي هي شمول الآيات لجميع الأمم، وكون ﴿ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ في خصوص السابقين، وكون ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ في خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات.

أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة، لأن قوله ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة، وأن

(515/7)

الجميع مستوون في الأهوال والحساب والجزاء

فدل ذلك على أن قوله: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ [الواقعة:7] عام في جميع أهل المحشر، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين منهم من هو من الأمم السابقة، ومنهم من هو من هذه الأمة

وعلى هذا، فظاهر القرآن، أن السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة، وأن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليست أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة، لأنه عبر في السابقين من هذه الأمة بقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ وعبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة ﴿ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ .

ولا غرابة في هذا، لأن الأمم الماضية أمم كثيرة وفيها أنبياء كثيرة ورسل، فلا مانع من أن يجتمع من سابقيها من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها

أما أصحاب اليمين من هذه الأمة فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمملأن الثلة تتناول العدد الكثير، وقد يكون أحد العددين الكثيرين أكثر من الآخر، مع أنهما كلاهما كثير

ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير، لا ينافي ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة.

فأما كون قوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ دل ظاهر القرآن على أنه في خصوص السابقين، فلأن الله قال ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ثم قال تعالى مخبرا عن هؤلاء السابقين المقربين ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ .

وأما كون قوله: ﴿ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ في خصوص أصحاب اليمين، فلأن الله تعالى قال﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لأصحاب اليمينثلة من الاولين وثلة من الآخرين﴾ ، والمعنى هم أي أصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وهذا واضح كما ترى

قوله تعالى: ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ .

(516/7)

السرر جمع سرير، وقد بين تعالى أن سررهم مرفوعة في قوله في الغاشية ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية:13] وقوله تعالى: ﴿ مَوْضُونَةٍ﴾ منسوجة بالذهب، وبعضهم يقول بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت، وكل نسج أحكم ودوخل بعضه في بعض، تسمية العرب وضنا ، وتسمى المنسوج به موضونا ووضينا ، ومنه الدرع الموضونة إذا أحكم نسجها ودوخل بعض حلقاتها في بعض

ومنه قول الأعشى:

ومن نسج داود موضونة . . . تساق مع الحي عيرا فعيرا

وقوله أيضا:

وبيضاء كالنهي موضونة . . . لها قونس فوق جيب البدن

ومن هذا القبيل تسمية البطان الذي ينسج من السيور، مع إدخال بعضها في بعض وضينا

ومنه قول الراجز:

ليك تعدو قلقا وضينها . . . معترضا في بطنها جنينها

مخالفا دين النصارى دينها

وهذه السرر المزينة، هي المعبر عنها بالأرائك في قوله ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ [الكهف:31] وقوله: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس:56], وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ والتقدير: استقروا على سرر في حال كونهم متكئين عليه.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أي ينظر بعضهم إلى وجه بعض، كلهم يقابل الآخر بوجهه، جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى في الحجز ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر:47] وقوله في الصافات: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الصافات:42-44] .

(517/7)

قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ [الطور:24] .

قوله تعالى: ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور:23], وفي المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ [المائدة:90] .

قوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور:22] .

قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:25]، وفي الصافات في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات:48], وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه بإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ [مريم:62], وتكلمنا هناك على الاستثناء المنقطع وذكرنا شواهده من القرآن وكلام العرب، وبينا كلام أهل العلم في حكمه شرعا.

قوله تعالى: ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ, وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ, وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ, لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ .

أما قوله: ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً﴾ [النساء:57], وأما قوله: ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾

(518/7)

فقد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد:15] وقوله: ﴿ إن المتقين في جنات وعيون﴾ وقوله: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف:50], إلى غير ذلك من الآيات.

والمسكوب اسم مفعول سكب الماء ونحوه إذا صبه بكثرة، والمفسرون يقولون إن أنهار الجنة تجري في غير

أخدود، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاءوا، كما قال تعالى ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ [الإنسان:6]، وأما قوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ ، فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور:22] .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ .

الضمير في ﴿أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ ، قال بعض أهل العلم: هو راجع إلى مذكور، وقال بعض العلماء: هو راجع إلى غير مذكور، إلا أنه دل عليه المقام

فمن قال إنه راجع إلى مذكور، قال هو راجع إلى قوله ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ قال: لأن المراد بالفرش النساء، والعرب تسمي المرأة لباسا وإزارا وفراشا ونعلا، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ رفع المنزلة والمكانة.

ومن قال: إنه راجع إلى غير مذكور، قال: إنه راجع إلى نساء لم يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن لأنهن يتكئن عليها مع أزواجهن.

وقال بعض العلماء: المراد بهن الحور العين، واستدل من قال ذلك بقوله ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع.

وقالت جماعة من أهل العلم: أن المراد بهن بنات آدم التي كن في الدنيا عجائز شمطا رمصا، وجاءت في ذلك آثار مرفوعة عنه صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا القول فمعنى ﴿أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ أي خلقناهن خلقا جديدا .

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ﴾ أي فصيرناهن أبكارا، وهو جمع بكر، وهو ضد الثيب

وقوله: ﴿عُرُباً﴾ قرأه عامة القراء السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم ﴿عُرُباً﴾

بضم العين والراء، وقرأ حمزة وشعبة "عُرْباً" بسكون الراء، وهي لغة تميم، ومعنى القراءتين واحد، وهو جمع عروب، وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل، وهذا هو قول الجمهور وهو الصواب إن شاء الله.

ومنه قول لبيد:

وفي الخباء عروب غير فاحشة. . . ريا الروادف يعشى دونها البصر

وقوله تعالى: ﴿ أَتْرَاباً ﴾ جمع ترب بكسر التاء، والترب اللدة وإيضاحه أن ترب الإنسان ما ولد معه في وقت واحد، ومعناه في الآية أن نساء أهل الجنة على سن واحدة ليس فيهن شابة وعجوز، ولكنهن كلهن على سن واحدة في غاية الشباب.

وبعض العلماء يقول: إنهن ينشأن مستويات في السن على قدر بنات ثلاثة وثلاثين سنة، وجاءت بذلك آثار مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكون الأتراب بمعنى المستويات في السن مشهور في كلام العرب

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

أبرزوها مثل المهاة تهادى. . . بين خمس كواعب أتراب

وهذه الأوصاف الثلاثة التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من صفات نساء أهل الجنة، جاءت موضحة في آيات أخر.

أما كونهن يوم القيامة أبكارا، فقد أوضحه في سورة الرحمن في قوله تعالى ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ [الرحمن:56]، في الموضعين لأن قوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ نص في عدم زوال بكارتهن، وأما كونهن ﴿ عُرُباً ﴾ أي متحببات إلى أزواجهن، فقد دل عليه قوله في الصافات ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾ [الصافات:48]، لأن معناه أنهن قاصرات العيون على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لشدة محبتهن لهم واقتناعهن بهم، كما قدمنا إيضاحه، ولا شك أن المرأة التي لا ينظر إلى غير زوجها متحببة إليه حسنة التبعل معه.

وقوله في ص: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [صّ:52]، وقوله في الرحمن: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ [الرحمن:56]، وأما

(520/7)

كونهن ﴿ أَتْرَابًا ﴾ فقد بينه تعالى في قوله في آية ص هذه، ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ ، وفي سورة النبأ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ [النبأ:31-33] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ يتعلق بقوله: ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ ﴾ ، وقوله: ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ ﴾ أي: أنشأناهن وصيرناهن أبكارا لأصحلب اليمين.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة:41-43] .

قد قدمنا معنى أصحاب الشمال في هذه السورة الكريمة، وأوضحنا معنى السموم في الآيات القرآنية التي يذكر فيها في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطور:27] .

وقد قدمنا صفات ظل أهل النار وظل أهل الجنة في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء:57]، وبينا هناك أن صفات ظل أهل النار هي المذكورة في قوله هنا: ﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ وقوله في المرسلات: ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات:30-31] .

وقوله: ﴿ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ أي من دخان أسود شديد السواد ووزن اليحموم يفعول، وأصله من الحمم وهو الفحم، وقيل: من الحم، وهو الشحم المسود لاحتراقه بالنار.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [الطور:26-27] .

قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ .

لما ذكر جل وعلا ما أعد لأصحاب الشمال من العذاب، بين بعض أسبابه، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في

دار الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ أي متنعمين، وقد قدمنا أن القرآن دل على أن الإتراف والتنعم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة، لأن صاحبه معرض عن الله لا يؤمن به ولا برسله، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى:

(521/7)

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً، وَيَصْلَى سَعِيراً، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ [الانشقاق:10–13]، وقد أوضحنا هذا في الكلام على آية الطور المذكورة آنفا.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سببا لدخول النار، لأن قوله تعالى لما ذكر أنهم: ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ ، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ﴾ جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد:5].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ﴾ [الفرقان:11]، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في قوله ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين والآخرين في قوله ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ جاء موضحا في غير هذا الموضع، فبينا فيه أن البعث الذي أنكروا، سيتحقق في حال كونهم أذلاء صاغرين، وذلك في قوله تعالى في الصافات ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الصافات:15–19].

وقوله: ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ ، قرأه عامة القراء السبعة، غير ابن عامر وقالون عن نافع: "أَوَآبَاؤُنَا" بفتح الواو على الاستفهام والعطف، وقد قدمنا مرارا أن همزة الاستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف كالواو والفاء،

وثم نحو ﴿أَوَآبَاؤُنَا﴾ , ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ [الأعراف:97], ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ [يونس:51]، أن في ذلك وجهين لعلماء العربية والمفسرين:

الأول منهما: أن أداة العطف عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها، وهمزة الاستفهام متأخرة رتبة عن حرف العطف، ولكنها قدمت عليه لفظا لا معنى لأن الأصل في الاستفهام التصدير به كما هو معلوم في محله.

والمعنى على هذا واضح وهو أنهم أنكروا بعثهم أنفسهم بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وعطفوا على ذلك بالواو إنكارهم بعث آبائهم الأولين، بأداة الإنكار التي هي

(522/7)

الهمزة المقدمة عن محلها لفظا لا رتبة، وهذا القول هو قول الأقدمين من علماء العربية، واختاره أبو حيان في البحر المحيط وابن هشام في مغني اللبيب، وهو الذي صرنا نميل إليه أخيرا بعد أن كنا نميل إلى غيره

الوجه الثاني: هو أن همزة الاستفهام في محلها الأصلي، وأنها متعلقة بجملة محذوفة، والجملة المصدرية بالاستفهام معطوفة على المحذوفة بحرف العطف الذي بعد الهمزة، وهذا الوجه يميل إليه الزمخشري في أكثر المواضع من كشافه، وربما مال إلى غيره

وعلى هذا القول، فالتقدير: أمبعوثون نحن وآباؤنا الأولون؟ وما ذكره الزمخشري هنا من أن قوله أو آباؤنا معطوف على واو الرفع في قوله ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ ، وأنه ساغ العطف على ضمير رفع متصل من غير توكيد بالضمير المنفصل لأجل الفصل بالهمزة لا يصح، وقد رده عليه أبو حيان وابن هشام وغيرهما

وهذا الوجه الأخير مال إليه ابن مالك في الخلاصة في قوله

وحذف متبوع بدا هنا استبح . . . وعطفك الفعل على الفعل يصح

وقرأ هذا الحرف قالون وابن عامر: "أو آباؤنا" بسكون الواو، والذي يظهر لي على قراءتهما أو بمعنى الواو

العاطفة، وأن قوله: ﴿آبَاؤُنَا﴾ ، معطوف على محل المنصوب الذي هو اسم إن، لأن عطف المرفوع على منصوب إن بعد ذكر خبرها جائز بلا نزاع، لأن اسمها وإن كان منصوبا فأصله الرفع لأنه مبتدأ في الأصل، كما قال ابن مالك في الخلاصة

وجائز رفعك معطوفا على. . . منصوب إن بعد أن تستكملا

وإنما قلنا إن أو بمعنى الواو، لأن إتيانها بمعنى الواو معروف في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً, عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ [المرسلات:5-6], لأن الذكر الملقى للعذر، والنذر معا لا لأحدهما، لأن المعنى أنها أتت الذكر إعذارا وإنذارا، وقوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان:24], أي ولا كفورا، وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم. . . ما بين ملجم مهرة أو سافع

(523/7)

فالمعنى ما بين الملجم مهره وسافع: أي آخذ بناصيته ليلجمه، وقول نابغة ذبيان

قالت ألا ليت ما هذا الحمام لنا. . . لى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما زعمت. . . ستا وستين لم تنقص ولم تزد

فقوله: أو نصفه بمعنى ونصفه كما هو ظاهر من معنى البيتين المذكورين، لأن مرادها أنها تمنت أن يكون الحمام المار بها هو ونصفه معه لها مع حمامتها التي معها، ليكون الجميع مائة حمامة، فوجدوه ستا وستين ونصفها ثلاث وثلاثون، فيكون المجموع تسعا وتسعين، والمروي في ذلك عنها أنها قالت

ليت الحمام ليه. . . إلى حمامتيه

ونصفه قديه. . . تم الحمام مايه

وقول توبة بن الحمير:

قد زعمت ليلى بأني فاجر . . . لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقوله تعالى: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ جمع عامة القراء على ثبات همزة الاستفهام في قوله: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا ﴾ وأثبتها أيضا عامة السبعة غير نافع والكسائي فيقوله: ﴿ أَإِنَّا ﴾ وقرأه نافع والكسائي: "إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" ، بهمزة واحدة مكسورة على الخبر، كما عقده صاحب الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع بقوله:

فصل واستفهام إن تكررا . . . فصير الثاني منه خبرا

واعكسه في النمل وفوق الروم . . . . .إلخ

والقراآت في الهمزتين في ﴿ أَإِذَا ﴾ و ﴿ أَإِنَّا ﴾ معروفة، فنافع يسهل الهمزة الثانية بين بين ورواية قالون عنه هي إدخال ألف بين الهمزتين الأولى المحققة والثانية المسهلة

ورواية قالون هذه عن نافع بالتسهيل والإدخال مطابقة لقراءة أبي عمرو، فأبو عمرو وقالون عن نافع يسهلان ويدخلان، ورواية ورش عن نافع هي تسهيل الأخيرة منهما بين بين من غير إدخال ألف وهذه هي قراءة ابن كثير وورش فابن كثير وورش يسهلان ولا يدخلان

(524/7)

وقرأ هشام عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين، وبينهما ألف الإدخال

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين من غير ألف الإدخال، هذه هي القراآت الصحيحة، في مثل "أَءِذَا" و "أَءِنَّا" ونحو ذلك في القرآن.

تنبيه:

اعلم وفقني الله وإياك أن ما جرى في الأقطار الافريقية من إبدال الأخيرة من هذه الهمزة المذكورة وأمثالها في القرآن هاء خالصة من أشنع المنكر وأعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمة القرآن العظيم، وتعد لحدود الله، ولا

يعذر فيه إلا الجاهل الذي لا يدري، الذي يظن أن القراءة بالهاء الخالصة صحيحة، وإنما قلنا هذا لأن إبدال الهمزة فيما ذكر هاء خالصة لم يروه أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينزل عليه به جبريل البتة، ولم يرو عن صحابي ولم يقرأ به أحد من القراء، ولا يجوز بحال من الأحوال، فالتجرؤ على الله بزيادة حرف في كتابه، وهو هذه الهاء التي لم ينزل بها الملك من السماء البتة، هو كما ترى، وكون اللغة العربية قد سمع فيها إبدال الهمزة هاء لا يسوغ التجرؤ على الله بإدخال حرف في كتابه لم يأذن بإدخاله الله ولا رسوله.

ودعوى أن العمل جرى بالقراءة بالهاء لا يعول عليها، لأن جريان العمل بالباطل باطل، ولا أسوة في الباطل بإجماع المسلمين، وإنما الأسوة في الحق، والقراءة سنة متبعة مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا لا خلاف فيه.

وقوله تعالى: ﴿مِتْنَا﴾ ، وقرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم "مُتْنَا" بضم الميم وقرأه نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿مِتْنَا﴾ بكسر الميم، وقد قدمنا مسوغ كسر الميم لغة في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ .

لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين في الآية المتقدمة، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن

يخبرهم خبرا مؤكدا بأن الأولين والآخرين كلهم مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء بعد بعثهم

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:9]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء:87]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:9]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود:103]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾

[المرسلات:38]، وقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف:47] .

وقد قدمنا هذا موضحا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [الحجر:17] .

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ .

قد قدمنا إيضاح هذا وتفسير في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات:67] .

قوله تعالى: ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ .

النزل بضمتين: هو رزق الضيف الذي يقدم له عند نزوله إكراما له، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف:107]، وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا في عذابهم المذكور في قولهم: ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ إلى قوله: ﴿ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ﴾ أي هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار، كقوله تعالى للكافر الحقير الذليل: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:49] .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضحا

في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:93-94]، وقوله تعالى في آخر الكهف ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ [الكهف:102]، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا . . . جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقوله: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء كما تقدم مرارا.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ .

لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين، وأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين، وذكر جزاء منكري البعث بأكل الزقوم وشرب الحميم، أتبع ذلك بالبراهين القاطعة الدالة على البعث فقال ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ هذا الخلق الأول ﴿فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ , أي فهل لا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني، لأن إعادة الخلق لا يمكن أن تكون أصعب من ابتدائه كما لا يخفى

وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني، جاء موضحا في آيات كثيرة جدا كقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:27]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:104]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج:5] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:79]، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:51]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد ذكرناها بإيضاح وكثرة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة والنحل والحج والجاثية، وغير ذلك من المواضع وأحلنا عليها كثيرا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ ، لولا حرف تحضيض، ومعناه الطلب بحث وشدة، فالآية تدل على شدة حث الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث لظهور برهانه القاطع الذي هو خلقه لهم أولا .

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ .

قد قدمنا قريبا كلام أهل العلم في همزة الاستفهام المتبوعة بأداة عطف، وذكرنا قبل

هذا مرارا، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ ﴾ يعني أفرأيتم ما تصبونه من المني في أرحام النساء، فلفظة ﴿ مَا ﴾ موصولة، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد إلى الصفة محذوف، لأنه منصوب بفعل، والتقدير أفرأيتم ما تمنونه، والعرب تقول: أمنى النطفة بصيغة الرباعي، يمنيها بضم حرف المضارعة، إذا أراقها في رحم المرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ [النجم:46] ومنى يمنى بصيغة الثلاثي لغة صحيحة إلا أن القراءة بها شاذة.

وممن قرأ ﴿ تُمْنُونَ ﴾ بفتح التاء مضارع في الثلاثي المجرد، أبو السمال وابن السميقع، وقوله تعالى: ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ استفهام تقرير، فإنهم لا بد أن يقولوا: أنتم الخالقون، فيقال لهم: إذا كنا خلقنا هذا الإنسان الخصيم المبين من تلك النطفة التي تمنى في الرحم، فكيف تكذبون بقدرتنا على خلقه مرة أخرى، وأنتم تعلمون أن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من الابتداء، والضمير المنصوب في ﴿ تَخْلُقُونَهُ ﴾ عائد إلى الموصول أي تخلقون ما تمنونه من النطف علقا، ثم مضغا إلى آخر أطواره

وهذا الذي تضمنته هذه الآية من البراهين القاطعة على كمال قدرة الله على البعث وغيره، وعلى أنه المعبود وحده، ببيان أطوار خلق الإنسان، جاء موضحا في آيات أخر، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفي بالآيات القرآنية، وبينا ما يتعلق بكل طور من أطواره من الأحكام الشرعية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [الحج:5].

وذكرنا أطوار خلق الإنسان في سورة الرحمن أيضا في الكلام على قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن:3–4] وفي غير ذلك من المواضع.

وبينا الآيات الدالة على أطوار خلقه جملة وتفصيلا في الحج

تنبيه:

هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نطفة مني تمنى، يجب على كل إنسان النظر فيه، لأن الله جل وعلا وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان، والأصل في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا لدليل صارف عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:5–6]، وقد قدمنا

شرحها في أول سورة النحل، وقرأ هذا الحرف نافع،﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ بتسهيل الهمزة بعد الراء بين بين والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عنه إبدال الهمزة ألفا وإشباعها لسكون الياء بعدها .

وقرأ الكسائي: "أَفَرَيْتُمْ" بحذف الهمزة، وقرأه باقي السبعة بتحقيق الهمزة

وقوله تعالى: "ءَأَنْتُمْ" قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر في إحدى الروايتين بتسهيل الهمزة الثانية، والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عن نافع إبدال الثانية ألفا مشبعا مدها لسكون النون بعدها ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وهشام عن ابن عامر في الرواية الآخرى بتحقيق الهمزتين، وقالون، وأبو عمرو وهشام بألف الإدخال بين الهمزتين والباقون بدونها.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن كثير ﴿ قَدَّرْنَا ﴾ بتشديد الدال، وقرأه ابن كثير بتخفيفها ، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير، ويكون كل ذلك صحيحا ، وكله يشهد له قرآن، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن، ومن ذلك هذه الآية الكريمة

وإيضاح ذلك أن قوله: ﴿ قَدَّرْنَا ﴾ وجهين من التفسير وفيما تتعلق به﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ ﴾ وجهان أيضا ، فقال بعض العلماء: وهو اختيار ابن جرير أن قوله: ﴿ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي قدرنا لموتكم آجالا مختلفة وأعمارا متفاوتة فمنكم من يموت صغيرا ومنكم من يموت شابا ، ومنكم من يموت شيخا

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ [الحج:5] وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:67] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ

عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:11], وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:11] وقوله:

(529/7)

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ما نحن بمغلوبين، ولعرب تقول: سبقه على كذا أي غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه أي وما نحن بمغلوبين على ما قدرنا من آجالكم وحددناه من أعماركم فلا يقدر أحد أن يقدم أجلا أخرناه ولا يؤخر أجلا قدمناه.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:145] إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فقوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ ليس متعلقا بمسبوقين بل بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ والمعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي نبدل من الذين ماتوا أمثالا لهم نوجدهم.

وعلى هذا، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام:133] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير، وقراءة قدرنا بالتشديد مناسبة لهذا الوجه، وكذلك لفظة بينكم

الوجه الثاني: أن قدرنا بمعنى قضينا وكتبنا أي كتبنا الموت وقدرناه على جميع الخلق، وهذ الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:88]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:185]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:58]،

وعلى هذا القول فقوله: ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ﴾ , متعلق بمسبوقين أي ما نحن مغلوبين والمعنى وما نحن بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلا منكم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ [النساء:133], وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام:133]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

(530/7)

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:16–17], وقوله تعالى: ﴿الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا﴾ [محمد:38]، وقد قدمنا هذا في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء:133], وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ، فيه للعلماء أقوال متقاربة.

قال بعضهم: ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات، كأن ننشئكم قردة وخنازير، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم.

وقال بعضهم: ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات، فنغير صفاتكم ونجمل المؤمنين ببياض الوجوه، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة برهانا قاطعا ثانيا على البعث وامتنانا عظيما على الخلق بخلق أرزاقهم لهم، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ، يعني أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها أي تحريكها وتسويتها أأنتم تزرعونه، أي تجعلونه زرعا، ثم تنمونه إلى أن يصير مدركا صالحا للأكل أم نحن الزارعون له، ولا شك أن

الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا هو الزارع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم، وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث، جاء موضحا في آيات كقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [فصلت:39] وقوله تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم:50]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:57].

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مستوفاة مع سائر آيات براهين البعث في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والجاثية، وغير ذلك من المواضع،

(531/7)

وأحلنا عليها مرارا.

تنبيه:

اعلم أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، لأن الله جل وعلا وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان، لأعظم النعم على الخلق، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

[عبس:32].

والمعنى: انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه، من هو الذي خلق الماء

الذي صار سببا لإنباته هل يقدر أحد غير الله على خلق الماء ؟ أي إبرازه من أصل العدم إلى الوجود ثم هب أن الماء خلق، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقى به الأرض من غير هدم ولا غرق ؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع ؟ ثم هب أن الزرع طلع، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه ؟ ثم هب أن السنبل خرج منه، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحا للأكل ؟﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99]، والمعنى: انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفا لا يصلح للأكل، وانظروا إلى ينعه، أي انظروا إليه بعد أن صار يانعا مدركا صالحا للأكل، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء منعم عليكم عظيم الأنعام، ولذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99]، فاللازم أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ أي عن النبات شقا إلى آخر ما بيناه وقوله تعالى في هذه الآية الكريم: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ يعني لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاما، أي فتاتا وهشيما، ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بكم، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزاء الشرط، وتقديره كما ذكرنا، وقوله﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ .

(532/7)

قال بعض العلماء: المعنى فظلتم تعجبون من تحطيم زرعكم

وقال بعض العلماء: تفكهون بمعنى تندمون على ما خسرتم من الإنفاق عليه كقوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:42] .

وقال بعض العلماء: تندمون على معصية الله التي كانت سببا لتحطيم زرعكم، والأول من الوجهين في سبب الندم هو الأظهر.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا

تَشْكُرُونَ﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة امتنانا عظيما على خلقه بالماء الذي يشربونه، وذلك أيضا آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى أفرأيتم الماء الذين تشربون الذي لا غنى لكم عنه لحظة ولو أعدمناه لهلكتم جميعا في أقرب وقت ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ .

والجواب الذي لا جواب غيره هو أنت يا ربنا هو منزله من المزن، ونحن لا قدرة لنا على ذلك فيقال لهم: إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكرا لنعمة هذا الماء، كما أشار له هنا بقوله ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:22]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:10]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:48-49], وقوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات:27], إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:70] أي لو نشاء جعله أجاجا لفعلنا، ولكن جعلناه عذبا فراتا سائغا شرابه، وقد قدمنا في سورة الفرقان أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديدتين

(533/7)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى لو شاء لجعل الماء غير صالح للشراب، جاء معناه في آيات أخر كقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك:30], وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:18], لأن الذهاب بالماء وجعله غورا لم يصل إليه وجعله أجاجا، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتي شرب الماء، وهذه الآيات

المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك، أن أصله كله نازل من المزن، وأن الله أسكنه في الأرض وخزنه فيها لخلقه

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:18] وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر:21] وقد قدمنا هذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:22] وفي سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ:2] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فلولا بمعنى هلا، وهي حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وحض والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض.

واعلم أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده

فشكر العبد لربه، ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا ما يرضي من خلقها، وهكذا في جميع الجوارح، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامره ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان، وشكر العبد لربه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى هنا ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152], والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:158] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شَكُورٌ﴾ [فاطر:34] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه لغوي:

اعلم: أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة، وإلى المنعم أخرى، فإن عديت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر كقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل:19]، وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذي هو اللام كقولك نحمد الله ونشكر له، ولم تأت في القرآن معداة إلا باللام، كقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152]، وقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:14]، وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:172]، وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:17]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه هي اللغة الفصحى، وتعديتها للمفعول بدون اللام لغة لا لحن، ومن ذلك قول أبي نخيلة

شكرتك إن الشكر حبل من اتقى . . . وما كل من أوليته نعمة يقضى

وقول جميل بن معمر:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلما . . . على عذبة الأنياب طيبة النشر

فإنكما إن عجتما لي ساعة . . . شكرتكما حتى أغيب في قبري

وهذه الآيات من سورة الواقعة قد دلت على أن اقتران جواب لو باللام، وعدم اقترانه بها كلاهما سائغ، لأنه تعالى قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ باللام ثم قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً﴾ بدونها .

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿الَّتِي تُورُونَ﴾ أي توقدونها من قولهم أورى النار إذا قدحها وأوقدها ، والمعنى أفرأيتم النار التي توقدونها من الشجر أأنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها ، أي أوجدتموها من العدم ؟

والجواب الذي لا جواب غيره أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها ، ونحن

لا قدرة لنا بذلك فيقال: كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شيء ؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث، وجاء موضحا في يس في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:79–80]، فقوله في آخر يس: ﴿ تُوقِدُونَ﴾ هو معنى قوله في الواقعة ﴿ تُورُونَ﴾ وقوله في آية يس: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بعد قوله: ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل واضح على أن خلق النار من أدلة البعث وقوله هنا: ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ أي الشجرة التي توقد منها كالمرخ والعفار، ومن أمثال العرب في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيبا في استخراج النار منهما، يأخذون قضيبا من المرخ ويحكمون به عودا من العفار فتخرج من بينهما النار. ويقال كل شجر فيه نار إلا العناب.

وقوله: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي نذكر الناس بها في دار الدنيا إذا أحسوا شدة حرارتها نار الآخرة التي هي أشد منها حرا لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة فهي تفوقها بتسع وستين ضعفا كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا سبعين مرة فهي تفوقها بتسع وستين ضعفا كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي منفعة للنازلين بالقواء من الأرض، وهو الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد، وهم المسافرون، لأنهم ينتفعون بالنار انتفاعا عظيما في الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ واردا للامتنان وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوما للمقوين، لأنه جيء به للامتنان أي وهي متاع أيضا لغير المقوين من الحاضرين بالعمران، وكل شيء خلا من الناس يقال له أقوى، فالرجال إذا كان في الخلا قيل له أقوى، والدار إذا خلت من أهلها قيل لها أقوت.

ومنه قول نابغة ذبيان:

يا دار مية بالعلياء فالسند. . . أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقول عنترة:

(536/7)

حيت من طلل تقادم عهده. . . أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقيل للمقوين: أي للجائعين، وقيل غير ذلك، والذي عليه الجمهور هو ما ذكرنا

قوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ .

أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، وأكد إخباره بأن هذا القرآن العظيم هو حق اليقين، وأمر نبيه بعد ذلك بأن يسبح باسم ربه العظيم

وهذا الذي تضمنته هذه الآية ذكره الله جل وعلا في آخر سورة الحاقة في قوله في وصفه للقرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:50-52]، والحق هو اليقين.

وقد قدمنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربي، وذكرنا كثرة وروده في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ولدار هي الآخرة وقوله: ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ ، والمكر هو السيىء بدليل قوله بعده: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ .

وقوله: ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ والحبل هو الوريد، وقوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ والشهر هو رمضان.

ونظير ذلك من كلام العرب قول امرىء القيس

كبكر المقانات البياض بصفرة. . . غذاها نمير الماء غير المخلل

والبكر هي المقاناة.

وقول عنترة:

ومشك سابغة هتكت فروجها . . . بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك هنا الدرع نفسها بدليل قوله هتكت فروجها ، يعني الدرع، وإن كان أصل المشك لغة السير الذي تشد به الدرع،لأن السير لا تمكن إرادته في بيت

(537/7)

عنترة هذا خلافا لما ظنه صاحب تاج العروس، بل مراد عنترة بالمشك الدرع، وأضافه إلى السابغة التي هي الدرع كما ذكرنا ، وإلى هذا يشير ما ذكروه في باب العلم وعقده في الخلاصة بقوله:

وإن يكونا مفردين فأضف . . . حتما وإلا أتبع الذي ردف

لأن الإضافة المذكورة من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين، وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أن قوله في الخلاصة

ولا يضاف اسم لما به اتحد . . . معنى وأول موهما إذا ورد

أن الذي يظهر لنا من استقراء القرآن والعربية أن ذلك أسلوب عربي، وأن الاختلاف بين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، وأنه لا حاجة إلى التأويل مع كثرة ورود ذلك في القرآن والعربية

ويدل له تصريحهم بلزوم إضافة الاسم إلى اللقب إن كانا مفردين نحو سعيد كرز، لأن ما لا بد له من تأويل لا يمكن أن يكون هو اللازم كما ترى، فكونه أسلوبا أظهر.

وقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ التسبيح: أصله الإبعاد عن السوء، وتسبيح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وذلك التنزيه واجب له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والظاهر أن الباء في قوله ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ داخلة على المفعول، وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم:25]، أدلة كثيرة من القرآن وغيره على دخول الباء على المفعول الذي يتعدى إليه

الفعل بنفسه، كقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم:25] والمعنى: وهزي جذع النخلة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج:25] أي إلحادا إلى آخر ما قدمنا من الأدلة الكثيرة، وعليه، فالمعنى سبح اسم ربك العظيم كما يوضحه قوله في الأعلى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:1].

وقال القرطبي: الاسم هنا بمعنى المسمى، أي سبح ربك، وإطلاق الاسم بمعنى المسمى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد:

(538/7)

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم، لأن أسماء الله لحد فيها قوم ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن، وفي ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة، وذلك في قوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:180]، وقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:110].

ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى، هل الاسم هو المسمى أو لا؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية، والعلم عند الله تعالى.

(539/7)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد:

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قد قدمنا مرارا أن التسبيح هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وأصله في اللغة الإبعاد عن السوء، من قولهم: ﴿ سَبَّحَ ﴾ , إذا صار بعيدا، ومنه قيل للفرس: سابح، لأنه إذا جرى يبعد بسرعة، ومن ذلك قول عنترة في معلقته:

إذ لا أزال على رحالة سابح . . . نهد تعاوره الكماة مكلم

وقول عباس بن مرداس السلمي:

لا يغرسون فسيل النخل حولهم . . . ولا تخاور في مشتاهم البقر

إلا سوابح كالعقبان مقربة . . . في دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذي هو سبح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله تعالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفتح:9]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ [الإنسان:26]، وقد يتعدى باللام كقوله هنا: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، وعلى هذا فسبحه وسبح له لغتان كنصحه ونصح له وشكره وشكر له، وذكر بعضهم في الآية وجها آخر، وهو أن المعنى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، أي أحدث التسبيح لأجل الله أي ابتغاء وجهه تعالى. ذكره الزمخشري وأبو حيان، وقيل: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ أي صلى له.

وقد قدمنا أن التسبيح يطلق على الصلاة، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أهل السماوات والأرض يسبحون لله، أي ينزهونه عما لا يليق، بينه الله جل وعلا في آيات أخر من كتابه كقوله تعالى في سورة الحشر ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر:1] وقوله في الصف: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الصف:1]، وقوله في الجمعة: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة:1]، وقوله في التغابن: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن:1] .

وزاد في سورة بني إسرائيل أن السموات السبع والأرض يسبحن لله مع ما فيهما

من الخلق وأن تسبيح السموات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أي لا نفهمه، وذلك في قوله تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء:44]، وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء:79] ونحو ذلك تسبيح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

والآية الكريمة فيها الرد الصريح، على من زعم من أهل العلم، أن تسبيح الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها، لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها، يفهمها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:164]، وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن.

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد:15]، وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [الكهف:77]، وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:72]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقد عبر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، وكذلك هو الحشر، والصف، وعبر في الجمعة والتغابن، وغيرهما بقوله: ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بصيغة المضارع.

قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك التسبيح لله، هو شأن أهل السموات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان

وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قد قدمنا معناه مرارا وذكرنا أن العزيز، هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، وأن العزة هي الغلبة، ومنه قوله ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ وقوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ، أي غلبني في الخصام، ومن أمثال العرب من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يختشى . . . إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

والحكيم، هو من يضع الأمور في مواضعها ، ويوقعها في مواقعها

وقوله: ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ , غلب فيه غير العاقل وقد قدمنا في غير هذا الموضع، أنه تعالى تارة يغلب غير العاقل. في نحو ما في السموات وما في الأرض لكثرته، وتارة يغلب العاقل لأهميته، وقد جمع المثال للأمرين قوله تعالى في البقرة ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:116], فغلب غير العاقل في قوله: ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ، وغلب العاقل في قوله ﴿ قَانِتُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ .

قوله: ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ , قد قدمنا إيضاحه في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:9–12]، وفي سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:54] .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف:54], وذكرنا طرفا صالحا من ذلك في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24] .

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ .

قد قدمنا إيضاحه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ:2] .

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه وبينا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة، والمعية الخاصة، مع بيان معنى المعية في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ

(542/7)

الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:128].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي ينزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم آيات بينات، أي واضحات، وهي هذا القرآن العظيم، ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات، أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبينا في قوله تعالى في الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق:10-11]، وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخصوص، وأنه لا يخرج بهذا القرآن العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله في الحديد: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ .

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة، ولكن التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله، كما دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله جل وعلا يقول: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:25].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نورا يخرج الله به المؤمنين من الظلمات إلى النور، جاء موضحا في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً

[النساء:174]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:15-16] وقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن:8] وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157] وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52].

(543/7)

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم:40].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين يوم القيامة، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهو جمع يمين، وأنهم يقال لهم: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد:12].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا، جاء موضحا في آيات أخر، أما سعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فقد بينه تعالى في سورة التحريم، وزاد فيها بيان دعائهم الذين يدعون به في ذلك الوقت وذلك في قوله تعالى ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:8].

وأما تبشيرهم بالجنات، فقد جاء موضحا في مواضع أخر، وبين الله فيها أن الملائكة تبشرهم وأن ربهم أيضا

يبشرهم كقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:21–22] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت:30–32] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ .

الضمير المرفوع في ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ راجع إلى المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، قالوا لهم انظروا نقتبس من نوركم، وقيل لهم جوابا لذلك ارجعوا وراءكم فالتمسوا

(544/7)

نورا، وضرب بينهم بالسور المذكور أنهم ينادون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ ، أي في دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم في الغزوات وندين بدينكم؟ قالوا بلى، أي كنتم معنا في دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم.

وقد قدمنا مرارا معاني الفتنة وإطلاقاتها في القرآن، وبينا أن من معاني إطلاقاتها في القرآن الضلال كالكفر والمعاصي، وهو المراد هنا أي فتنتم أنفسكم أي أضللتموها بالنفاق الذي هو كفر باطن، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:193] أي لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه، وقوله ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ التربص: الانتظار، والأظهر أن المراد به هنا تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر أي انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى في منافقي الأعراب المذكورين في قوله ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ

مُنَافِقُونَ﴾ [التوبة:101]، ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ [التوبة:98] وقوله تعالى: ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي شككتم في دين الإسلام، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى في قوله عنهم ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:45].

وقوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد:14]، الأماني جمع أمنية، وهي ما يمنون به أنفسهم من الباطل، كزعمهم أنهم مصلحون في نفاقهم، وأن المؤمنين حقا سفهاء في صدقهم، أي في إيمانهم، كما بين تعالى ذلك في قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة:11–12]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:13]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الأماني المذكورة من الغرور الذي اغتروا به جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [النساء:123–124].

وقوله: ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ، الأظهر أنه الموت لأنه ينقطع به العمل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ هو

(545/7)

الشيطان وعبر عنه بصيغة المبالغة، التي هي المفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [النساء:120].

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، من أن الشيطان الكثير بالغرو غرهم بالله، جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى في آخر لقمان: ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:33]، وقوله في أول فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ

الْغَرُورُ, إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:5-6], وقوله تعالى في آية لقمان وآية فاطر المذكورتين: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ .

وترتيبه على ذلك النهي عن أن يغرهم بالله الغرور، دليل واضح على أن مما يغرهم به الشيطان أن وعد الله بالبعث ليس بحق، وأنه غير واقع، والغرور بالضم الخديعة

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران:91] وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

قد قدمنا مرارا أن كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بلم، إذا تقدمتها همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان.

الأول منهما: هو أن تقلب مضارعته ماضوية، ونفيه إثباتا، فيكون بمعنى الماضي المثبت، لأن لم حرف تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى المضي، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في لم فينفيه ونفي النفي إثبات، فيرجع المعنى إلى الماضي المثبت وعليه فالمعنى، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ﴾ أي آن للذين آمنوا.

والوجه الثاني: أن الاستفهام في جميع ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن

(546/7)

يقر فيقول: بلى, وقوله: يأن: هو مضارع أنى يأنى إذا جاء إناه أي وقته، ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

ولقد أنى لك أن تناهي طائعا . . . أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله: أنى لك أن تناهي طائعا، أي جاء الإناه الذي هو الوقت الذي تتناهي فيه طائعا، أي حضر وقت تناهيك، ويقال في العربية: آن يئين كباع يبيع، وأنى يأني كرمى يرمي، وقد جمع اللغتين قول الشاعر

ألما يئن لي أن تجلى عمايتي . . . وأقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنه حان للمؤمنين، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي جاء الحين والأوان لذلك، لكثرة ما تردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه

وقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ المصدر المنسبك من أن وصلتها من أن وصلتها في محل رفع فاعل بأن، والخشوع أصله في اللغة السكون والطمانينة والانخفاض، ومنه قول نابغة ذبيان

رماد ككحل العين لأيا أبينه . . . ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

فقوله: خاشع أي منخفض مطمئن، والخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف

وقوله: ﴿ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:2] أي خافت عند ذكر الله، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد

وقال بعض العلماء: المراد بذكر الله القرآن، وعليه فقوله ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظين، كقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الإنسان:1-3]، كما أوضحناه مرارا.

وعلى هذا القول، فالآية كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا

مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:23]، فالاقشعرار المذكور، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث، يفسر معنى الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق هنا كما ذكر، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:16], قد قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:74] بعض أسباب قسوة قلوبهم، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا في آية الحديد هذه، وغير ذلك في بعض الآيات الآخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين، من أهل الكتاب جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:110] وقوله تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:27] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ [الزمر:21]، وبينا هناك الآية الدالة على سبب اصفراره.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن كل ما أصاب من المصائب في الأرض كالقحط والجدب والجوائح في الزراعة والثمار وفي الأنفس، من الأمراض والموت كله مكتوب في كتاب قبل خلق الناس، وقبل وجود المصائب، فقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ ، الضمير فيه عائد على الخليقة المفهومة في ضمن قوله ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أو إلى المصيبة، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو

مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:51]، وقوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [التغابن:11]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:155]، لأن قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ [البقرة:155]، قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له جل وعلا قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم، لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ ، مما أصاب من مصيبة في الأنفس، وقوله في آية الحديد هذه: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد:23]، أي بينا لكم أن الأشياء مقدرة مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنوا على شيء فاتكم، لأن فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسى عليه، ولا تفرحوا بما آتاكم، لأنكم إذا علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد أن يأتيكم قل فرحكم به، وقوله ﴿ تَأْسَوْا ﴾ ، مضارع أسى بكسر السين يأسى بفتحها أسى بفتحتين على القياس، بمعنى حزن ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة:68]، وقوله: ﴿ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ مجرور في محل رفع لأنه فاعل أصاب جر بمن المزيدة لتوكيد النفي، وما نافية

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة شورى هذا الكلام على قوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى:17]، وقدمنا هناك كلام أهل العلم في معناه

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ .

بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة والتي قبلها، أن إقامة دين الإسلام يتبنى على أمرين: أحدهما هو ما ذكره بقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد:25] لأن في ذلك إقامة البراهين على الحق وبين الحجة

وإيضاح الأمر والنهي والثواب والعقاب، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح، فإن الله تبارك

(549/7)

وتعالى أنزل الحديد أي خلقه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام، وعلى هذا فقوله هنا: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ توضحه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:14]، وقوله تعالى: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:12]، والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة، وقوله ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ ، لا يخفى ما في الحديد من المنافع للناس، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ [الرعد:17] لأن مما يوقد عليه في النار ابتغاء المتاع الحديد

قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ﴾ [الزخرف:28–29] .

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص:52–54] .

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إيتاء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ، وزادهم بقوله: ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:28] .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء

(550/7)

موضحا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:107] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:2] .

(551/7)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة:

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه موضحا في سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب:4]، وبينا هناك كلام أهل العلم، وأدلتهم ومناقشتها في مسائل الظهار، ومسائل أحكام الكفارة بالعتق، والصيام، والإطعام، وأوجه القراءة في الآية

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى

قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل:128]، وذكرنا هناك معنى المعية الخاصة، والمعية العامة، والآيات القرآنية الدالة على كل واحدة منهما .

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه مع بيان الفرق بين النجوى بالخير، والنجوى بالإثم والعدوان في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء:114] .

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ ﴾ .

قال بعض أهل العلم: معنى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ : ألم ينته علمك إلى الذين تولوا.

وقد قدمنا الرد على من قال: إن لفظة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لا تعدى إلا بحرف الجر الذي هو

(552/7)

﴿ إِلَى ﴾ ، ولا تتعدى بنفسها إلى المفعول، وبينا أن ذلك وإن كان هو الذي في القرآن في جميع المواضع فإن تعديتها إلى المفعول بنفسها صحيحة

ومن شواهد ذلك قول امرىء القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقا . . . وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود والكفار وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي، وقد صرح الله بالنهي عن ذلك في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة:13] .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون المنافقين ليسوا من المؤمنين، ولا من القوم الذين تولوهم وهم الذين غضب الله عليهم من اليهود، جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ [النساء:142–143].

قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنة والأيمان جمع يمين، وهي الحلف، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح، والمعنى أنهم جعلوا الإيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين أنهم معهم وأنهم مخلصون في باطن الأمر، ترسا لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم، وقوله تعالى ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف أي فصدوا غيرهم ممن أطاعهم لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد، كما أوضحناه مرارا.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة وهما كون المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة لتكون لهم جنة، وأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله جاءا موضحين في آيات أخر من كتاب الله، أما أيمانهم الكاذبة فقد بينها الله جل وعلا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هذه السورة ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة:62]، وقوله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ

(553/7)

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [التوبة:95]، وقوله تعالى: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة:42]، وقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون:2].

وأما صدهم من أطاعهم عن سبيل الله فقد بينه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب:18]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران:156]، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران:168]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء:72] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، أي لأجل نفاقهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء:145] .

قوله تعالى: ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف:36] .

قوله تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إسناد إنساء ذكر الله إلى الشيطان، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام:68]، وقوله تعالى ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف:42]، وفي معناه قول فتى موسى: ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف:63] .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الذين يحادون الله ورسوله داخلون في جملة الأذلين، لا يوجد أحد أذل منهم وقوله: ﴿ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي يعادون ويخالفون ويشاقون، وأصله مخالفة حدود الله التي حدها .

وقوله: ﴿ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي الذين هم أعظم الناس ذلا والذل: الصغار والهوان والحقارة.

(554/7)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله، بينه جل وعلا في غير هذا الموضع، وذلك بذكره أنواع عقوبتهم المفضية إلى الذل والخزي والهوان، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:63], وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة:5]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر:3–4], وقوله تعالى: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال:12–14], إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رسل الله غالبون لكل من غالبهم، والغلبة نوعان غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميع الرسل، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به وقد دلت هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآية كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:171–173], أنه لن يقتل نبي في جهاد قط، لأن المقتول ليس بغالب، لأن القتل قسم مقابل للغلبة، كما بينه تعالى في قوله ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء:74], وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر:51], وقد نفي عن المنصور كونه مغلوبا نفيا باتا في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:160] .

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:87] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران:183] ليسوا مقتولين في جهاد، ولأن نائب الفاعل في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ

(555/7)

مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ [آل عمران:146]، على قراءة قتل بالبناء للمفعول، هو ربيون لا ضمير النبي وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:146] وذكرنا بعضه في الصافات في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:171] .

قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ .

وردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي البليد، والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراده الإنشاء، كما هو معلوم في محله، ومعنى قوله﴿ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ , أي يحبون ويوالون أعداء الله ورسوله

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:4], وقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:54], وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:123], وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:73], إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ زعم بعضهم أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قائلا إنه قتل أباه كافرا يوم بدر أو يوم أحد، وقيل نزلت في ابن عبد الله بن عبد الله بن أبي المنافق المشهور، وزعم من قال: إن عبد الله استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه عبد الله بن أبي فنهاه، وقيل نزلت في أبي

بكر، وزعم من قال إن أباه أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سوقط.

(556/7)

وقوله: ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ، زعم بعضهم أنها نزلت في أبي بكر حين طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن يوم بدو

وقوله: ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ , زعم بعضهم أنها نزلت في مصعب بن عمير قالوا؛ قتل أخاه عبيد بن عمير. وقال بعضهم: مر بأخيه يوم بدر يأسره رجل من المسلين، فقال : شدد عليه الأسر، علم أن أمه ملية وستفديه

وقوله: ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ , قال بعضهم: نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لما قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، في المبارزة يوم بدر، وهم بنو عمهم، لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف وعبد شمس أخو هاشم كما لا يخفي،

وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ أي ثبته في قلوبهم بتوفيقه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان في قلوبهم جاء موضحا في قوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات:7–8] .

(557/7)

المجلد الثامن

سورة الحشر

...

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماوَاتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله كلام على معنى التسبيح عند قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الانبياء: 79]

وقال رحمه الله التسبيح في اللغة الإبعاد عن السوء وفي اصطلاح الشرع تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله وساق رحمه الله النصوص في تسبيح المخلوقات جميعها

وقال في آخر المبحث والظاهر أن قوله تعالى ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ مؤكد لقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة[من الجزء الرابع 337 وذكر عند أول سورة"الحديد " زيادة لذلك]

وفي مذكرة الدراسة مما أملاه رحمه الله في فصل الدراسة على أول سورة الجمعة﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماوَاتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1] قال: التسبيح التنزيه ﴿ وما ﴾ التي لغير العقلاء لتغلب غير العقلاء لكثرتهم وكان يمكن الاكتفاء بالإحالة على ما ذكره رحمه الله تعالى إلا أن الحاجة الآن تدعو إلى مزيد بيان بقدر المستطاع لتعلق المبحث بأمر بالغ الأهمية ونحن اليوم في عصر تغلب عليه العلمانية والمادية فنورد ما أمكن أملا في زيادة الإيضاح

إن أصل التسبيح من مادة سبح والسباحة والتسبيح مشتركان في أصل المادة فبينهما اشتراك في أصل المعنى والسباحة في الماء ينجو بها صاحبها من الغرق وكذلك المسبح لله والمنزه له ينجو من الشرك ويحيا بالذكر والتمجيد لله تعالى

وقد جاء الفعل هنا بصيغة الماضي ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ كما جاء في أول سورة

"الحديد"

قال أبو حيان عندها لما أمر الله تعالى الخلق بالتسبيح في آخر سورة الواقعة يعني في قوله تعالى﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [56/95-96] جاء في أول السورة التي تليها مباشرة بالفعل الماضي ليدل على أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزم به كل ما في السماوات والأرض اه

ومعلوم أن الفعل قد جاء أيضا بصيغة المضارع كما في آخر هذه السورة﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [59/24] وفي أول سورة الجمعة ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [62/1] وفي أول سورة التغابن ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [64/1] وهذه الصيغة تدل على الدوام والاستمرار بل جاء الفعل بصيغة الأمر﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [87/1] ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [56/74]

وجاءت المادة بالمصدر ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [17/1] ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [30/17] ليدل ذلك كله بدوام واستمرار التسبيح لله تعالى من جميع خلقه كما سبح سبحانه نفسه وسبحته ملائكته ورسله على ما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه

وما في قوله تعالى﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من صيغ العموم وأصل استعمالها لغير العقلاء وقد تستعمل للعاقل إذا نزل غير العاقل كما في قوله تعالى﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [4/3] ومجيؤها هنا لغير العاقل تغليبا له لكثرته كما تقدم فتكون شاملة للعاقل من باب أولى

ومما يلفت النظر أن التسبيح الذي في معرض العموم كله في القرآن مسند إلى﴿ ما ﴾ دون ﴿ من ﴾ إلا في موضع واحد هو قوله تعالى﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [17/44] له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وهذا شاهد على شمول﴿ ما ﴾ وعمومها المتقدم ذكرها لأنه سبحانه أسند التسبيح أولا إلى السماوات السبع والأرض صراحة بذواتهن وهن من غير العقلاء بما في كل منهن من أفلاك وكواكب وبروج أو جبال ووهاد وفجاج ثم عطف

على غير العقلاء بصيغة ﴿ من ﴾ الخاصة بالعقلاء فقال ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ وإن كانت ﴿ من ﴾ قد تستعمل لغير العقلاء إذا نزلن منزلة العقلاء كما في قول الشاعز

أسرب القطا هل من يعير جناحه . . . لعلي إلى من قد هويت أطير

وبهذا شمل إسناد التسبيح لكل شيء في نطاق السماوات والأرض عاقل وغير عاقل وقد أكد هذا الشمول بصريح قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [44/17] وكلمة ﴿ شيء ﴾ أعم العمومات كما في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [6/13] فشملت السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن والطير والحيوان والنبات والشجر والمدر وكل مخلوق لله تعالى

وقد جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة إثبات التسبيح من كل ذلك كل على حدة

أولا تسبيح الله تعالى نفسه ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الاسراء: من الآية1] الذي أسرى بعبده ليلا ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [30/17–18] ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [22/21]

ثانيا تسبيح الملائكة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [30/2] وقوله ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [75/39] ﴿ حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ﴾ و ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [20/21]

ثالثا تسبيح الرعد ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ [13/13]

رابعا تسبيح السماوات السبع والأرض ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ ﴾ [44/17]

مكتبة أحمد محمد صلى الله عليه وسلم

خامسا تسبيح الجبال ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [18/38] سادسا تسبيح الطير ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [79/21]

(5/8)

سابعا تسبيح الإنسان ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [98/15] ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [74/56] ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [11/19]

فهذا إسناد التسبيح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة

وجاء مثل التسبيح ونظيره وهو السجود مسندا لعوالم أخرى وهي بقية ما في هذا الكون من أجناس وأصناف في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [18/22]

ويلاحظ هنا أنه تعالى أسند السجود أولا لمن في السماوات ومن في الأرض و﴿ من ﴾ هي للعقلاء أي الملائكة والإنس والجن ثم عطف على العقلاء غير العقلاء بأسمائهن من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب فهذا شمول لم يبق كائن من الكائنات ولا ذرة في فلاة إلا شمله

وبعد بيان هذا الشمول والعموم يأتي مبحث العام الباقي على عمومه والعام المخصوص وهل عموم ﴿ ما ﴾ هنا باق على عمومه أم دخله تخصيص

قال جماعة من العلماء منهم ابن عباس إن العموم باق على عمومه وإن لفظ التسبيح محمول على حقيقته في التنزيه والتحميد

وقال قوم إن العموم باق على عمومه لم يدخله خصوص ولكن التسبيح يختلف ولكل تسبيح بحسبه فمن العقلا بالذكر والتحميد والتمجيد كالإنسان والملائكة والجن ومن غير العاقل سواء الحيوان والطير والنبات والجماد

فيكون بالدلالة بأن يشهد على نفسه ويدل على أن الله تعالى خالق قادر

وقال قوم قد دخله التخصيص

ونقل القرطبي عن عكرمة قال الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبح وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد فقال قد كان يسبح مرة يريد أن التسبيح من الحي أو النامي سواء الحيوان أو النبات وما عداه

(6/8)

فلا وقال القرطبي ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما من وضع الجريد الأخضر على القبر وقوله صلى الله عليه وسلم فيه "لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا" أي بسبب تسبيحهما فإذا يبسا انقطع تسبيحهما ا هـ

والصحيح من هذا كله الأول الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما وهو الذي يشهد له القرآن الكريم لعدة أمور:

أولا لصريح قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [44/17]

ثانيا أن الحامل لهم على القول بتسبيح الدلالة هو تحكيم الحس والعقل حينما لم يشاهدوا ذلك ولم تتصوره العقول ولكن الله تعالى نفي تحكيم العقل الحسي هنا وخطر على العقل بقوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

ثالثا قوله تعالى في حق نبي الله داود عليه السلام ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ [79/21]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [18/38] فلو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون لما كان لداود عليه السلام خصوصية على غيره

رابعا أخبر الله تعالى أن لهذه العوالم كلها إدراكا تاما كإدراك الإنسان أو أشد منه قال تعالى عن السماوات

والأرض والجبال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [72/33] فأثبت تعالى لهذه العوالم إدراكا وإشفاقا من تحمل الأمانة بينما سجل على الإنسان ظلما وجهالة في تحمله إياها ولم يكن هذا العرض مجرد تسخير ولا هذا الإباء مجرد سلبية بل عن إدراك تام كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [11/41]، فهما طائعتان لله وهما يأبين أن يحملن الأمانة إشفاقا منها وفي أواخر هذه السورة الكريمة سورة الحشر قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [21/59] ومثله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ

(7/8)

وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [74/2] وهذا هو عين الإدراك أشد من إدراك الإنسان.

وفي الحديث: "لا يسمع صوت المؤذن من حجر ولا مدر ولا شجر إلا شهد له يوم القيامة" فبم سيشهد إن لم يك مدركا الأذان والمؤذن.

وعن إدراك الطير قال تعالى عن الهدهد يخاطب نبي الله سليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ [22/27–24].

ففي هذا السياق عشر قضايا يدركها الهدهد ويفصح عنها لنبي الله سليمان

الأولى: إدراكه أنه أحاط بما لم يكن في علم سليمان

الثانية: معرفته لسبإ بعينها دون غيرها ومجيؤه منها بنبأ يقين لا شك فيه

الثالثة: معرفته لتولية المرأة عليهم مع إنكاره ذلك عليهم.

الرابعة: إدراكه ما أوتيته سبأ من متاع الدنيا من كل شيء

الخامسة: أن لها عرشا عظيما .

السادسة: إدراكه ما هم عليه من السجود للشمس من دون الله

السابعة: إدراكه أن هذا شرك بالله تعالى،

الثامنة: أن هذا من تزيين الشيطان لهم أعمالهم

التاسعة: أن هذا ضلال عن السبيل القويم

العاشرة: أنهم لا يهتدون.

وقد اقتنع سليمان بإدراك الهدهد لهذا كله فقال له ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [27/27] وسلمه رسالة وبعثه سفيرا إلى بلقيس وقومها ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [28/27], وكانت سفارة موفقة جاءت

(8/8)

بهم مسلمين في قوله تعالى عنها ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [44/27]

وكذلك ما جاء عن النملة في قوله تعالى عنها ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [18/27], فقد أدركت مجيء الجيش وأنه لسليمان وجنوده وأدركت كثرتهم وأن عليها وعلى النمل أن يتجنبوا الطريق ويخلوا مساكنهم وهذا الإدراك منها جعل سليمان عليه السلام يتبسم ضاحكا من قولها وأن لها قولا علمه سليمان عليه السلام فقد جاء في السنة إثبات إدراك الحيوانات للمغيبات فضلا عن المشاهدات كما في حديث الموطأ في فضل يوم الجمعة" وإن فيه خلق آدم وفيه أسكن الجنة" إلى قوله صلى الله عليه وسلم "وفيه تقوم الساعة وما من دابة في الأرض إلا

وهي تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة حتى طلوع الشمس إشفاقا من الساعة إلا الجن والإنس" فهذا إدراك وإشفاق من الحيوان وإيمان بالمغيب وهو قيام الساعة وإشفاق من الساعة أشد من الإنسان

وقصة الجمل الذي ند على أهله وخضع له صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق لكأنه يعلم إنك رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم: "نعم إنه ما بين لابتيها إلا وهو يعلم أني رسول الله

فهذا كله يثبت إدراكا للحيوان بالمحسوس وبالمغيب إدراكا لا يقل عن إدراك الإنسان فما المانع من إثبات تسبيحها حقيقة على ما يعلمه الله تعالى منها وقد جاء النص صريحا في التسبيح المثبت لها في أنه تسبيح تحميد لا مطلق دلالة كما في قوله تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ [13/13], بحمده وقرنه مع تسبيح الملائكة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [13/13], وهذا نص في محل النزاع وإثبات لنوع التسبيح المطلوب

خامسا لقد شهد المسلمون منطق الجماد بالتسبيح وسمعوه بالتحميد حسا كتسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم وكحنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم حتى سمعه كل من في المسجد وما أخبر به صلى الله عليه وسلم "إني لأعلم حجرا في مكة ما مررت عليه إلا وسلم علي" وما ثبت بفرد يثبت لبقية أفراد جنسه كما هو معلوم في قاعدة الواحد بالجنس والواحد بالنوع

ومن هذا القبيل في أعظم من ذلك ما رواه البخاري في كتاب المناقب عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحدا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: "أثبت أحد فإن عليك نبيا وصديقا وشهيدين" .

(9/8)

وفي موطأ مالك لما رجع صلى الله عليه وسلم من سفر طلع عليهم أحد فقال: "هذا جبل يحبنا ونحبه" فهذا جبل من كبار جبال المدينة يرتجف لصعود النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فيخاطبه صلى الله عليه وسلم خطاب العاقل المدرك "أثبت أحد فإن عليك نبيا وصديقا وشهيدين" فيعرف النبي

ويعرف الصديق والشهيد فيثبت فبأي قانون كان ارتجافه وبأي معقول كان خطابه وبأي معنى كان ثبوته ثم ها هو يثبت له صلى الله عليه وسلم المحبة المتبادلة بقوله "يحبنا ونحبه"

وإذا ناقشنا أقوال القائلين بتخصيص هذا العموم من إثبات التسبيح للجمادات ونحوها لما وجدنا لهم وجهة نظر إلا أن الحس لم يشهد شيئا من ذلك وقد أوردنا الأمثلة على إثبات ذلك لسائر الأجناس وتقدم تنبيه الشيخ على تأكيد ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [21/29] ردا على استبعاده

ومن الأدلة القرآنية في هذا المقام ما جاء في سياق قوله تعالى﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [17/44] جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ﴾ [17/45] جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا وهذا نص يكذب المستدلين بالحس لأن الله تعالى أخبر بأنه جعل بين الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبه عنهم وهذا الحجاب مستور عن أعينهم فلا يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه محجوب عنهم ولا يرون الحجاب لأنه مستور وهذا هو الصحيح في هذه الآية

وقد قال فيها بعض البلاغيين إن﴿ مستورا ﴾ هنا بمعنى ساترا ويقال لهم إن جعل مستورا بمعنى ساتر تكرار لمعنى حجاب لأن قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً﴾ [17/45] هو بمعنى ساتر أي يستره عن الذين لا يؤمنون بالآخرة وليس في ذلك زيادة معنى ولا كبير معجزة ولكن الإعجاز في كون الحجاب مستورا عن أعينهم وفي هذا تحقيق وجود المعنيين وهما حجبه صلى الله عليه وسلم وسلم عنهم وستر الحجاب عن أعينهم وهذا أبلغ في حفظه صلى الله عليه وسلم منهم لأنه لو كان الحجاب مرئيا أي ساترا فقط مع كونه مرئيا لربما اقتحموه عليه وأقوى في الإعجاز لأنه لو كان الحجاب مرئيا لكان كاحتجاب غيره من سائر الناس ولكن حقيقة الإعجاز فيه هو كونه مستورا عن

أعينهم وهذا ما رجحه ابن جرير

وقد جاءت قصة امرأة أبي لهب مفصلة هذا الذي ذكرناه كما ساقها ابن كثير قال لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [111/5-1] جاءت امرأة أبي لهب وفي يدها فهر ولها ولولة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس مع أبي بكر رضي الله عنه عند الكعبة فقال له إني أخاف عليك أن تؤذيك فقال صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى عاصمني منها" وتلا قرآنا فجاءت ووقفت على أبي بكر وقالت إن صاحبك هجاني قال لا ورب هذه البنية إنه ليس بشاعر ولا هاج فقالت إنك مصدق وانصرفت أي ولم تره وهو جالس مع أبي بكر رضي الله عنه

فهل يقال بعدم وجود الحجاب لأنه مستور لم يشاهد أم أننا نثبته كما أخبر تعالى وهو القادر على كل شيء وعليه وبعد إثباته نقول ما الفرق بين إثبات حقيقة قوله تعالى هنا ﴿ حِجَاباً مَسْتُوراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [17/44] ؟ ففي كلا المقامين إثبات أمر لا ندركه بالحس فالتسبيح لا نفقهه والحجاب لا نبصره

وقد أوردنا هذه النماذج ولو مع بعض التكرار لما يوجد من تأثر البعض بدعوى الماديين أو العلمانيين الذين لا يثبتون إلا المحسوس لتعطي القارىء زيادة إيضاح ويعلم أن المؤمن بإيمانه يقف على علم ما لم يعلمه غيره ويتسع أفقه إلى ما وراء المحسوس ويعلم أن وراء حدود المادة عوالم يقصر العقل عن معالمها ولكن المؤمن يثبتها

وقد رسم لنا النبي صلى الله عليه وسلم الطريق الصحيح في مثل هذا المقام من إثبات وإيمان كما في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال "بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها فقالت إنا لم نخلق لهذا وإنما خلقنا للحرث" فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال "فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها منه فقال له الذئب هذا استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري" فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم قال "فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم"

ففي هذا النص الصريح نطق البقرة ونطق الذئب بكلام معقول من خصائص العقلاء على غير العادة مما استعجب له الناس وسبحوا الله إعظاما لما سمعوا ولكن

(11/8)

الرسول صلى الله عليه وسلم يدفع هذا الاستعجاب بإعلان إيمانه وتصديقه ويضم معه أبا بكر وعمر وإن كانا غائبين عن المجلس لعلمه منهما أنهما لا ينكران ما ثبت بالسند الصحيح لمجرد استبعاده عقلا

وهنا يقال لمنكري التسبيح حقيقة وما المانع من ذلك ؟ أهو متعلق القدرة أم استبعاد العقل لعدم الإدراك الحسي ؟

فأما الأول فممنوع لأن الله تعالى على كل شيء قدير وقد أخرج لقوم صالح ناقة عشراء من جوف الصخرة الصماء وأنطق الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم

وأما الثاني فلا سبيل إليه حتى ينتظر إدراكه وتحكيم العقل فيه فإن الله تعالى قائل ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [44/17]

فلم يبق إلا الإيمان أشبه ما يكون بالمغيبات وإيمان تصديق وإثبات لا تكييف وإدراك وخالق الكائنات أعلم بحالها وبما خلقها عليه

فيجب أن نؤمن بتسبيح كل ما في السماوات والأرض وإن كان مستغربا عقلا ولكن أخبر به خالقه سبحانه وشاهدنا المثال مسموعا من بعض أفراده

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾

أجمع المفسرون أنها في بني النضير إلا قولا للحسن أنها في بني قريظة ورد هذا القول بأن بني قريظة لم يخرجوا ولم يجلوا ولكن قتلوا

وقد سميت هذه السورة بسورة بني النضير حكاه القرطبي عن ابن عباس

قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس سورة الحشر قال قل سورة "النضير" وهم رهط من اليهود من ذرية هارون عليه السلام نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارا لمحمد صلى الله عليه وسلم

واتفق المفسرون على أن بني النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة فأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر

(12/8)

بقتل كعب فقتله محمد بن مسلمة غيلة وكان أخاه من الرضاعة وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم في دية المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري منصرفه من بئر معونة فهموا بطرح الحجر عليه صلى الله عليه وسلم فعصمه الله تعالى

ولما قتل كعب أمر صلى الله عليه وسلم بالمسيرة إليهم وطالبهم بالخروج من المدينة فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ولكن أرسل إليهم عبد الله بن أبي سرا لا تخرجوا من الحصن ووعدهم بنصرهم بألفي مقاتل من قومه ومساعدة بني قريظة وحلفائهم من غطفان أو الخروج معهم فدربوا أنفسهم وامتنعوا بالتحصينات الداخلية فحاصرهم صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين ليلة

وقيل أجمعوا على الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له اخرج في ثلاثين من أصحابك ويخرج إليك ثلاثون منا ليسمعوا منك فإن صدقوا آمنا كلنا ففعل فقالوا كيف نفهم ونحن ستون أخرج في ثلاثة ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ففعلوا فاشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها وكان مسلما فأخبرته بما أرادوا فأسرع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فساره بخبرهم قبل أن يصل صلى الله عليه وسلم إليهم فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة فقذف الله في قلوبهم

الرعب وأيسوا من نصر المنافقين الذي وعدهم به ابن أبي فطلبوا الصلح فأبى عليهم صلى الله عليه وسلم إلا الجلاء على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من المتاع إلا الحلقة فكانوا يحملون كل ما استطاعوا ولو أبواب المنازل يخربون بيوتهم ويحملون ما استطاعوا معهم

وقد أوردنا مجمل هذه القصة في سبب نزول هذه السورة لأن عليها تدور معاني هذه السورة كلها وكما قال الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله في رسالة أصول التفسير إن معرفة السبب تعين على معرفة التفسير وليعلم المسلمون مدى ما جبل عليه اليهود من غدر وما سلكوا من أساليب المراوغة فما أشبه الليلة بالبارحة

والذي من منهج الشيخ رحمه الله في الأضواء قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ حيث أسند إخراجهم إلى الله تعالى مع وجود حصار المسلمين إياهم

وقد تقدم للشيخ رحمه الله نظيره عند قوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ

(13/8)

يَنَالُوا خَيْراً﴾ [25/33]

قال رحمه الله تعالى عندها ذكر جل وعلا أنه﴿ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ الآية ولم يبين السبب الذي ردهم به ولكنه جل وعلا بين ذلك بقوله﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ [9/33] اهـ

وهنا أيضا في هذه الآية أسند إخراجهم إليه تعالى مع حصار المسلمين إياهم وقد بين تعالى السبب الحقيقي لإخراجهم في قوله تعالى: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهذا من أهم أسباب إخراجهم لأنهم في موقف القوة وراء الحصون لم يتوقع المؤمنون خروجهم وظنوا هم أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد كان هذا الإخراج من الله إياهم بوعد سابق من الله لرسوله في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [137/2]

وبهذا الإخراج تحقق كفاية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم منهم فقد كفاه إياهم بإخراجهم من ديارهم فكان إخراجهم حقا من الله تعالى وبوعد مسبق من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم

وقد أكد هذا بقوله تعالى مخاطبا للمسلمين في خصوصهم﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [6/59]

وتسليط الرسول صلى الله عليه وسلم هو بما بين صلى الله عليه وسلم في قوله "نصرت بالرعب مسيرة شهر"

وهو ما يتمشى مع قوله تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [26/33]

وجملة هذا السياق هنا يتفق مع السياق في سورة "الأحزاب" عن بني قريظة سواء بسواء وذلك في قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [33/26 – 27] وعليه ظهرت حقيقة إسناد إخراجهم لله تعالى فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب كما أنه هو تعالى الذي رد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا بما أرسل عليهم من الرياح والجنود وهو الذي كفي المؤمنين القتال وهو تعالى الذي أنزل بني قريظة من صياصيهم وورث المؤمنين ديارهم وأموالهم وكان الله على كل شيء قديرا

ورشح لهذا كله التذييل في آخر الآية بطلب الاعتبار والاتعاظ بما فعل الله بهم

(14/8)

﴿ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [2/59] أي بإخراج الذين كفروا من حصونهم وديارهم ومواطن قوتهم ما ظننتم أن يخرجوا لضعف اقتداركم وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم لقوتها ومنعتها ولكن أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب فلم يستطيعوا البقاء وكانت حقيقة إخراجهم من ديارهم هي من الله تعالى

قوله تعالى: ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾

اختلف في معنى الحشر في هذه الآية وبناء عليه اختلف في معنى الأول

فقيل: المراد بالحشر أرض المحشر، وهي الشام

وقيل: المراد بالحشر: الجمع

واستدل القائلون بالأول بآثار منها ما رواه ابن كثير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال من شك في أن أرض المحشر ه‍ا هنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ، وما رواه أبو حيان في البحر عن عكرمة أيضا والزهري وساق قوله صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني النضير "أخرجوا" قالوا إلى أين قال إلى أرض المحشر وعلى هذا تكون الأولية هنا مكانية أي لأول مكان من أرض المحشر وهي أرض الشام وأوائله خيبر وأذرعات

وقيل إن الحشر على معناه اللغوي وهو الجمع قال أبو حيان في البحر المحيط الحشر الجمع للتوجه إلى ناحية ما ومن هذا المعنى قيل الحشر هو حشد الرسول صلى الله عليه وسلم الكتائب لقتالهم وهو أول حشر منه لهم وأول قتال قاتلهم وعليه فتكون الأولية زمانية وتقتضي حشرا بعده فقيل هو حشر عمر إياهم بخيبر وقيل نار تسوق الناس من المشرق إلى المغرب وهو حديث في الصحيح وقيل البعث

إلا أن هذه المعاني أعم من محل الخلاف لأن النار المذكورة والبعث ليستا خاصتين باليهود ولا ببني النضير خاصة ومما أشار إليه الشيخ رحمه الله أن من أنواع البيان الاستدلال على أحد المعاني بكونه هو الغالب في القرآن ومثل له في المقدمة بقوله تعالى ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [21/58] فقد قال بعض العلماء بأن المراد بهذه الغلبة الغلبة بالحجة والبيان والغالب في القرآن استعمال الغلبة بالسيف والسنان وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية لأن خير ما يبين به القرآن القرآن

وهنا في هذه الآية فإن غلبة استعمال القرآن بل عموم استعماله في الحشرإنما هو للجمع ثم بين المراد بالحشر لأي شيء منها قوله تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ﴾ [17/27] وقوله ﴿ وَحَشَرْنَا

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [111/6] وقوله عن نبي الله داود ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [19/38] وقوله تعالى عن فرعون ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [59/20] وقوله تعالى ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [111/7] وقوله: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ [23/79]، فكلها بمعنى الجمع.

وإذا استعمل بمعنى يوم القيامة فإنه يأتي مقرونا بما يدل عليه وهو جميع استعمالات القرآن لهذا مثل قوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ [47/18] وذلك في يوم القيامة لبروز الأرض وقوله تعالى﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [85/19]وذلك في يوم القيامة لتقييده باليوم وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [102/20] وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [5/81] وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [19/41]، إلى غير ذلك مما هو مقيد بما يعين المراد بالحشر وهو يوم القيامة.

فإذا أطلق كان لمجرد الجمع كما في الأمثلة المتقدمة وعليه فيكون المراد بقوله تعالى﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ أن الراجع فيه لأول الجمع وتكون الأولية زمانية وفعلافقد كان أول جمع لليهود وقد أعقبه جمع آخر لإخوانهم بني قريظة بعد عام واحد وأعقبه جمع آخر في خيبر وقد قدمنا ربط إخراج بني النضير من ديارهم بإنزال بني قريظة من صياصيهم وهكذا ربط جمع هؤلاء بأولئك إلا أن هؤلاء أجلوا وأخرجوا وأولئك قتلوا واسترقوا

تنبيه

وكون الحشر بمعنى الجمع لا يتنافي مع كون خروجهم كان إلى أوائل الشام لأن الغرض الأول هو جمعهم للخروج من المدينة ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الشام أو إلى غيرها.

وقد استدل بعض العلماء على أن توجههم كان إلى الشام من قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [47/4] لأن السياق في أهل الكتاب والتعريض بأصحاب السبت ألصق بهم

فقال بعض المفسرين: الوجوه هنا هي سكناهم بالمدينة وطمسها تغير معالمها، وردهم على أدبارهم، أي إلا بلاد الشام التي جاءوا منها أولا حينما خرجوا من الشام إلى المدينة انتظارا لمحمد صلى الله عليه وسلم، حكاه أبو حيان وحسنه الزمخشري.

قوله تعالى ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾

أتى تأتي لعدة معان، منها بمعنى المجيء، ومنها بمعنى الإنذار، ومنها بمعنى المداهمة

وقد توهم الرازي أنها من باب الصفات، فقال المسألة الثانية قوله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ ، لا يمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء فدل على أن باب التأويل مفتوح وإن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائزا هـ

وهذا منه على مبدئه في تأويل آيات الصفات ويكفي لرده أنه مبني على مقتضى الدلائل العقلية ومعلوم أن العقل لا مدخل له في باب صفات الله تعالى لأنها فوق مستويات العقول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [11/42] ولا يحيطون به علما سبحانه وتعالى.

أما معنى الآية فإن سياق القرآن يدل على أن مثل هذا السياق ليس من باب الصفات كما في قوله تعالى ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [26/16] أي هدمه واقتلعه من قواعده ونظيره ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [24/10 ﴾ وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [41/13]، وقوله ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [44/21]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في العدوى أني قلت أتيت أي دهيت وتغير عليك حسك فتوهمت ما ليس بصحيح صحيحا

ويقال أتي فلان بضم الهمزة وكسر التاء إذا أظل عليه العدو ومنه قولهنم من مامنه

يؤتي الحذر فيكون قوله تعالى: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ ، أخذهم ودهاهم وباغتهم من حيث لم يحتسبوا من قتل كعب بن الأشرف وحصارهم وقذف الرعب في قلوبهم

وهناك موقف آخر في سورة البقرة يؤيد ما ذكرناه هنا وهو قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [109/2] فقوله تعالى ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ وهو في سياق أهل الكتاب وهم بذاتهم الذين قال فيهم ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ فيكون فأتاهم الله هنا هو إتيان أمره تعالى الموعود في بادىء الأمر عند الأمر بالعفو والصفح

وقد أورد الشيخ رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ أن هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق وقال والأمر في قوله ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ قال بعض العلماء هو واحد الأوامر وقال بعضهم هو واحد الأمور.

فعلى القول الأول بأنه الأمر الذي هو ضد النهي فإن الأمر المذكور هو المصرح به في قوله ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [29/9] .

وعلى القول بأن واحد الأمور فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ ﴾ [59/2-3] إلى غير ذلك من الآيات والآية غير منسوخة على التحقيق اهـ من الجزء الأول من الأضواء.

فقد نص رحمه الله على أن آية ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ مرتبطة بآية ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ هذه كما قدمنا أن هذا هو الأمر الموعود به وقد أتاهم به من حيث لم يحتسبوا ويشهد

لهذا كله القراءة الثانية﴿ فآتاهم﴾ بالمد بمعنى أعطاهم وأنزل بهم ويكون الفعل متعديا والمفعول محذوف دل عليه قوله مِنْ

(18/8)

حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي أنزل بهم عقوبة وذلة ومهانة جاءتهم من حيث لم يحتسبوا والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾

منطوقه أن الرعب سبب من أسباب هزيمة اليهود ومفهوم المخالفة يدل على أن العكس بالعكس أي أن الطمانينة وهي ضد الرعب سبب من أسباب النصر وهو ضد الهزيمة

وقد جاء ذلك المفهوم مصرحا به في آيات من كتاب الله تعالى منها قوله تعالى﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [18/48] ومنها قوله تعالى ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [9/25–26] فقد ولوا مدبرين بالهزيمة ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا من الملائكة فكان النصر لهم وهزيمة أعدائهم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [9/25] أي بالقتل والسبي في ذلك اليوم

ومنها قوله تعالى ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [9/40]

وهذا الموقف آية من آيات الله اثنان أعزلان يتحديان قريشا بكاملها بعددها وعددها فيخرجان تحت ظلال السيوف ويدخلان الغار في سدفة الليل ويأتي الطلب على فم الغار بقلوب حانقة وسيوف مصلتة وآذان

مرهفة حتى يقول الصديق رضي الله عنه والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت نعليه لأبصرنا فيقول صلى الله عليه وسلم وهو في غاية الطمانينة ومنتهى السكينة"ما بالك باثنين الله ثالثهما"

ومنها وفي أخطر المواقف في الإسلام في غزوة بدر، حيثما التقى الحق بالباطل وجها لوجه جاءت قوى الشر في خيلائها وبطرها وأشرها، وأمامها جند الله في تواضعهم

(19/8)

وإيمانهم وضراعتهم إلى الله ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السماء مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [8/9–11]

فما جعل الله الإمداد بالملائكة إلا لتطمئن به قلوبهم وما غشاهم النعاس إلا أمنة منه وتم كل ذلك بما ربط على قلوبهم فقاوموا بقلتهم قوى الشر على كثرتهم وتم النصر من عند الله بمدد من الله كما ربط على قلوب أهل الكهف ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [18/14]

هذه آثار الطمانينة والسكينة والربط على القلوب المدلول عليه بمفهوم المخالفة من قوله تعالى ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقد جمع الله تعالى الأمرين المنطوق والمفهوم في قوله تعالى ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [8/12] فنص على الطمانينة بالتثبيت في قوله ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ونص على الرعب في قوله ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ فكانت الطمانينة تثبيتا للمؤمنين والرعب زلزلة للكافرين

وقد جاء في الحديث أن جبريل عليه السلام لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتوجه إلى بني قريظة قال"إني متقدمكم لأزلزل بهم الأقدام" ومما يدل على أسباب هذه الطمانينة في هذه المواقف قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [8/45–46]

فذكر الله تعالى أربعة أسباب للطمانينة

الأولى: الثبات وقد دل عليها قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [4/61]

(20/8)

والثانية: ذكر الله كثيرا وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [28/13]

والثالثة: طاعة الله ورسوله ويدل لها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ [20/47–21]

والرابعة: عدم التنازل والاعتصام والألفة ويدل عليها قوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [103/3]

ومن ذكر أسباب الهزيمة من رعب القلوب وأسباب النصر من السكينة والطمانينة تعلم مدى تأثير الدعايات في الآونة الأخيرة وما سمي بالحرب الباردة من كلام وإرجاف مما ينبغي الحذر منه أشد الحذر وقد حذر الله تعالى منه في قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [18/33] وقد حذر تعالى من السماع لهؤلاء في قوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [47/9]

ولما اشتد الأمر على المسلمين في غزوة الأحزاب وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليهود نقضوا عهدهم أرسل إليهم صلى الله عليه وسلم من يستطلع خبرهم وأوصاهم إن هم رأوا غدرا ألا يصرحوا بذلك وأن يلحنوا له لحنا حفاظا على طمانينة المسلمين وإبعادا للإرجاف في صفوفهم

كما بين تعالى أثر الدعاية الحسنة في قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [60/8] وقد كان بالفعل لخروج جيش أسامة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وعند تربص الأعراب كان له الأثر الكبير في إحباط نوايا المتربصين بالمسلمين وقالوا ما أنفذوا هذا البعث إلا وعندهم الجيوش الكافية والقوة اللازمة

وما أجراه الله في غزوة بدر من هذا القبيل أكبر دليل عملي إذ يقلل كل فريق في أعين الآخرين كما قال تعالى ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي

(21/8)

أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [8/43–44]

وهذا كله مما ينبغي الاستفادة منه اليوم على العدو في قضية الإسلام والمسلمين

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

المشاقة العصيان ومنه شق العصا والمخالفة

وهذا يدل على أن الله تعالى أوقع ما أوقعه ببني النضير من إخراجهم من ديارهم وتخريب بيوتهم بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وأن المشاقة المذكورة هي علة العقوبة الحاصلة بهم ولا شك أن مشاقة الله ورسوله من أعظم أسباب الهلاك

وفي الآية مبحث أصولي مبني على أن المشاقة قد وقعت من غير اليهود فلم تقع بهم تلك العقوبة كما وقع من

المشركين المنصوص عليها في قوله تعالى﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [8/13]، وهذا في بدر قطعا، ثم قال ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [8/13] ولما قدر صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لم يوقع بهم ما أوقع باليهود من قتل بل قال "اذهبوا فأنتم الطلقاء" فوجد الوصف الذي هو المشاقة الذي هو علة الحكم ولم يوجد الحكم الذي هو الإخراج من الديار وتخريب البيوت قال الفخر الرازي فإن قيل لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب أن يقال أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب ومعلوم أنه ليس كذلك قلنا هذا أحد ما يدل على أن تخصيص العلة المنصوصة لا يقدح في صحتها اهـ

وقد بحث الشيخ رحمه الله هذه المسألة في آداب البحث والمناظرة وفي مذكرة الأصول في مبحث النقض وعنون له في آداب البحث بقوله تخلف الحكم ليس بنقض سواء لوجود مانع أو تخلف شرط

ومثل لتخلف الحكم بوجود مانع بقتل الوالد ولده عمدا مع عدم قتله قصاصا به لأن علة القصاص موجودة وهي القتل العمد والحكم وهو القصاص متخلف

ومثل لتخلف الشرط بسرقة أقل من نصاب أو من غير الحرز.

(22/8)

ثم قال النوع الثالث تخلف حكمها عنها لا لسبب من الأسباب التي ذكرنا ومثل له بعضهم بقوله تعالى﴿ وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [59/3] قالوا فهذه العلة التي هي مشاقة الله ورسوله قد توجد في قوم يشاقون لله ورسوله مع تخلف حكمها عنها وهذه الآية الكريمة تؤيد قول من قال إن النقض في فن الأصول تخصيص للعلة مطلقا لا نقض لها وعزاه في مراقي السعود للأكثرين في قوله في مبحث القوادح في الدليل في الأصول:

منها وجود الوصف دون الحكم. . . سماه بالنقض وعاة العلم

والأكثرون عندهم لا يقدح . . . بل هو تخصيص وذا مصحح

إلى قوله:

ولست فيما استنبطت بضائر. . . إن جاء لفقد شرط أو لمانع

وقد أطلعني بعض الإخوان على شرح لفضيلة الشيخ رحمه الله على مراقي السعود في أوائله على قول المؤلف

ذو فترة بالفرع لا يراع

وتكلم على حكم أهل الفترة ثم على تخصيص بعض الآيات ومن ثم إلى تخصيص العلة

وجاء في هذا المخطوط ما نصه ورجح الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الحشر" أن تخصيص العلة كتخصيص النص مطلقا مستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ [59/3]، وقد فعل ذلك غير بني النضير فلم يفعل لهم مثل ما فعل لهم والله أعلم ا هـ

إلا أني طلبت هذا الترجيح في ابن كثير عند الآية فلم أقف عليه فليتأمل ولعله في غير التفسير

أما ما ذكره رحمه الله تعالى عن بعض في آداب البحث والمناظرة وهو أنه قد يتخلف الحكم عن العلة لا لشيء من الأسباب التي ذكرنا فالذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن تخلف الحكم عن العلة في غير اليهود وإنما هو لتخلف جزء منها وأن العلة

(23/8)

مركبة أي هي في اليهود مشاقة وزيادة تلك الزيادة لم توجد في غير اليهود فوقع الفرق وذلك أن مشاقة غير اليهود كانت لجهلهم وشكهم كما أشار تعالى لذلك عنهم بقوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [36/78 – 79] إلى آخر السورة فهم في حاجة إلى زيادة بيان وكذلك في قوله في أول سورة ص ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ

الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ [38/ 4–8]

فهم في عجب ودهشة واستبعاد أن ينزل عليه صلى الله عليه وسلم الذكر من بينهم وهم في شك من أمرهم فهم في حاجة إلى إزالة الشك والتثبت من الأمر ولذا لما زال عنهم شكهم وتبينوا من أمرهم وراحوا يدخلون في دين الله أفواجا بينما كان كفر اليهود جحود بعد معرفة فكانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [2/146] وقد سمي لهم فيما أنزل كما قال عيسى عليه السلام ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [61/6] فلم ينفعهم بيان ولكنه الحسد والجحود كما بين تعالى أمرهم بقوله عنهم﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [2/109] وقوله ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [3/69]،وقوله ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [2/75] وقوله ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [3/71].

فقد كانوا جبهة تضليل الناس وتحريف للكتب وتلبيس للحق بالباطل كل ذلك عن قصد وعلم بدافع الحسد ومناصبة العداء وخصم هذا حاله فلا دواء له لأن المدلس لا يؤمن جانبه والمضلل لا يصدق والحاسد لا يشفيه إلا زوال النعمة عن المحسود ومن جانب آخر فقد قطع الله الطمع عن إيمانهم﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [2/75]،كما أيأس من إيمانهم بعد إقرارهم على أنفسهم بتغلف قلوبهم عن سماع الحق ورؤية النور﴿ وَقَالُوا

قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [88/2]

وكل هذه الصفات لم تكن موجودة في كل من شاق الله ورسوله من غير اليهود وقد صرح تعالى بأنهم استحقوا هذا الحكم للأسباب التي اختصوا بها دون غيرهم في قوله تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [84/2 – 85].

فكل ذلك من نقض الميثاق والغدر في الصلح وسفك الدماء والتظاهر بالإثم والعدوان والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كان خاصا باليهود فكانت العلة مركبة من المشاقة ومن هذه الصفات التي اختصوا بها وكان الحكم صريحا هنا بقوله عنهم﴿ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [85/2] وكان خزيهم في الدنيا هو ما وقع بهم من إخراج وتخريب وتقتيل

وإن من كانت هذه حاله كما تقدم لم يكن لهم الاستئصال الكلي بإخراجهم أو تقتيلهم فلم يعد يصلح فيهم استصلاح ولا يتوقع منهم صلاح ويكفي شاهدا على ذلك أن بني قريظة لم يتعظوا ولم يستفيدوا ولم يعتبروا كما أمرهم الله ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [2/59].

ما اتعظ بنو قريظة بما وقع بإخوانهم بني النضير فلجؤوا بعد عام واحد إلى ما وقع فيه بنو النضير من غدر وخيانة فكان اختصاص اليهود بالحكم لتلك العلة المشتركة لأنهم وإن شاركهم غيرهم في المشاقة فلم يشاركهم غيرهم في الجانب الآخر مما قدمنا من دوافع المشاقة

وللدوافع تأثير في الحكم كما في قصة آدم وإبليس فقد اشترك آدم وإبليس في عموم علة العصيان إذ نهي آدم عن قربان الشجرة وأمر إبليس بالسجود لآدم مع الملائكة فأكل آدم مما نهي عنه وامتنع إبليس عما أمر به فاشتركا في العصيان كما قال تعالى عن آدم﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [121/20] وقال عن إبليس ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [12/7] ولكن السبب كان مختلفا فآدم نسي ووقع تحت وسوسة

الشيطان فخدع بقسم إبليس بالله تعالى ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [21/7] لكما لمن الناصحين وكانت معصية عن إغواء ووسوسة ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [36/2]

أما إبليس فكان عصيانه عن سبق إصرار وعن حسد واستكبار كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [34/2] ولما خاطبه الله تعالى بقوله ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [75/38] قال في إصراره وحسده وتكبره: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [76/38]

فاختلفت الدوافع، وكان لدى إبليس ما ليس لدى آدم في سبب العصيان وبالتالي اختلفت النتائج فكانت النتيجة مختلفة تماما أما آدم فحين عاتبه على أكله من الشجرة في قوله تعالى ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [22/7] رجعا حالا واعترفا بذنبهما قائلين ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [23/7] وكانت العقوبة لهما قوله تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [24/7]

فكان هبوط آدم مؤقتا ولحقه قوله تعالى ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [38/2] فأدركته هداية الله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [37/2]

أما نتيجة إبليس فلما عاتبه تعالى في معصيته في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [75/38]، كان جوابه استيلاء وتعاظما على النقيض مما كان في جوابه لذلك عكس ما كان جوابا على آدم، إذ قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [76/38] فكان جوابه كذلك عكس ما كان جوابا على آدم ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [38/ 77 – 78]

ولقد قالوا إن الذي جر على إبليس هذا كله هو الحسد حسد آدم على ما أكرمه الله به فاحتقره وتكبر عليه فوقع في العصيان وكانت نتيجته الطرد

(26/8)

وهكذا اليهود إن داءهم الدفين هو الحسد والعجب بالنفس فجرهم إلى الكفر ووقعوا في الخيانة وكانت النتيجة القتل والطرد

وقد بين الشيخ رحمه الله أن مشاقة اليهود هذه هي من الإفساد في الأرض الذي نهاهم الله عنه وعاقبهم عليه مرتين وتهددهم إن هم عادوا للثالثة عاد للانتقام منهم وها هم قد عادوا وشاقوا الله ورسوله فسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين

قال رحمه الله في سورة الإسراء عند قوله تعالى ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ [8/17] لما بين تعالى أن بني إسرائيل قضي إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين وبين نتائج هاتين المرتين بين تعالى أيضا أنهم إن عادوا للإفساد في المرة الثالثة فإنه جل وعلا يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم وذلك في قوله ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ ولم يبين هنا هل عادوا للإفساد في المرة الثالثة أم لا ؟

ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وكتم صفاته ونقض عهوده ومظاهرة عدوه عليه إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة فعاد الله جل وعلا للانتقام منهم تصديقا لقوله ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ فسلط عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم والمسلمين وجرى على بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسلب والإجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم وضرب الذلة والمسكنة

ومن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [89/2–90] وقوله ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ [100/2]، وقوله ﴿ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ [13/5] ونحو ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد إلى الانتقام منهم قوله تعالى﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ

(27/8)

عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [2/59–4] وقوله: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ [26/33–27] الآية اهـ منه

فهذا منه رحمه الله بيان ودليل إلى مغايرة المشاقة الواقعة من اليهود للمشاقة الواقعة من غيرهم فكان تخلف الحكم عمن شاقوا الله ورسوله من غير اليهود لتخلف بعض العلة في الحكم كما قدمنا والله تعالى أعلم

قوله تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: 5]

اللينة هنا قيل: اسم عام للنخل وهذا اختيار ابن جرير

وقيل: نوع خاص منه وهو ما عدا البرني والعجوة فقط

ونقل ابن جرير عن بعض أهل البصرة يقول اللينة من اللون وقال وإنما سميت لينة لأنها فعلة من فعل وهو اللون وهو ضرب من النخل ولكن لما انكسر ما قبلها انقلبت إلى ياء إلخ وهذا الأخير قريب مما عليه أهل المدينة اليوم

حيث يطلقون كلمة "لونة" على ما لا يعرفون له اسما خاصا ولعل كلمة لونة محرفة عن كلمة لينة ويوجد عند أهل المدينة من أنواع النخيل ما يقرب من سبعين نوعا

وقيل إن اللينة كل شجرة لليونتها بالحياة

وقد نزلت هذه الآية في تقطيع وتحريق بعض النخيل لبني النضير عند حصارهم وقطع من البستان المعروف بالبويرة كما روى ابن كثير عن صاحبي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فأنزل الله عز وجل﴿ ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية

وقال حسان رضي الله عنه وقال حسان رضي الله عنه

وهان على سراة بني لؤي . . . حريق بالبويرة مستطير

والبويرة معروفة اليوم وهي بستان يقع في الجنوب الغربي من مسجد قباء

(28/8)

وقيل في سبب نزولها إن اليهود قالوا يا محمد إنك تنهي عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار فأنزل الله الآية

وقيل إن المسلمين نهى بعضهم بعضا عن قطع النخيل وقالوا إنما هو مغانم المسلمين فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطع من الإثم وأن قطع ما قطع وترك ما ترك﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾

وعلى هذه الأقوال قال ابن كثير وغيره إن قوله تعالى﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي الإذن القدري والمشيئة الإلهية أي كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [166/3] وقوله ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [152/3]

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الإذن المذكور في الآية هو إذن شرعي وهو ما يؤخذ من عموم الإذن في قوله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [39/22] لأن الإذن بالقتال إذن بكل ما يتطلبه بناء على قاعدة الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به

والحصار نوع من القتال ولعل من مصلحة الحصار قطع بعض النخيل لتمام الرؤية أو لإحكام الحصار أو لإذلال وإرهاب العدو في حصاره وإشعاره بعجزه عن حماية أمواله وممتلكاته وقد يكون فيه إثارة له ليندفع في حمية للدفاع عن ممتلكاته وأمواله فينكشف عن حصونه ويسهل القضاء عليه إلى غير ذلك من الأغراض الحربية والتي أشار الله تعالى إليها في قوله ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي بعجزهم وإذلالهم وحسرتهم وهم يرون نخيلهم يقطع ويحرق فلا يملكون له دفعا

وعلى كل فالذي أذن بالقتال وهو سفك الدماء وإزهاق الأنفس وما يترتب عليه من سبي وغنائم لا يمنع في مثل قطع النخيل إن لزم الأمر ويمكن أن يقال إن ما أذن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبإذن الله أذن وبهذا يمكن أن يقال إذا حاصر المسلمون عدوا ورأوا أن من مصلحتهم أو من مذلة العدو إتلاف منشآته وأمواله فلا مانع من ذلك والله تعالى أعلم

وغاية ما فيه أنه إتلاف بعض المال للتغلب على العدو وأخذ جميع ماله وهذا له

(29/8)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

نظير في الشرع كعمل الخضر في سفينة المساكين لما خرقها أي أعابها بإتلاف بعضها ليستخلصها من اغتصاب الملك إياها وقال ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [82/18]

وقد جاء اعتراض المشركين على المسلمين في قتالهم في الأشهر الحرم كما اعترض اليهود على المسلمين في قطع النخيل وذلك في قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [217/2]

فقد تعاظم المشركون قتل المسلمين لبعض المشركين في وقعة نخلة ولم يتحققوا دخول الشهر الحرام واتهموهم باعتداء على حرمة الأشهر الحرم فأجابهم الله تعالى بموجب ما قالوا بأن القتال في الشهر الحرام كبير ولكن ما ارتكبه المشركون من صد عن سبيل الله وكفر بالله وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه وهم المسلمون

أكبر عند الله والفتنة عن الدين وأكبر من القتل أي الذي استنكروه من المسلمين

وهكذا هنا لئن تعاظم اليهود على المسلمين قطع بعض النخيل وعابوا على المسلمين إيقاع الفساد بإتلاف بعض المال فكيف بهم بغدرهم وخيانتهم نقضهم العهود وتمالئهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سجل هذا المعنى كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل ابن الأشرف وقد سجل هذا المعنى كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل ابن الأشرف:

لقد خزيت بغدرتها الحبور . . . كذاك الدهر ذو صرف يدور

وذلك أنهم كفروا برب . . . عظيم أمره أمر كبير

وقد أوتوا معا فهما وعلما . . . وجاءهم من الله النذير

إلى أن قال:

فلما أشربوا غدرا وكفرا . . . وجذبهم عن الحق النفور

أرى الله النبي برأي صدق . . . وكان الله يحكم لا يجور

فأيده وسلطه عليهم . . . وكان نصيره نعم النصير

فقد أشار إلى أن خزي بني النضير بسبب غدرهم وكفرهم بربهم فكان الإذن في قطع النخيل هو إذن شرعي ويمكن أن يقال عنه هو عمل تشريعي إذا ما دعت الحاجة لمثل ما دعت الحاجة هنا إليه والعلم عند الله تعالى.

(30/8)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ﴾

الضمير في ﴿ مِنْهُمْ﴾ هنا عائد على بني النضير

والفيء الغنيمة بدون قتال وقد جعله تعالى هنا على رسوله خاصة

وقال ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ [6/59] أي لما كان إخراج اليهود مرده إلى الله تعالى بما قذف في قلوبهم الرعب وبما سلط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فكان هذا الفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشاركه فيه غيره

وقد جاء مصداق ذلك عن عمر رضي الله عنه الذي ساقه الشيخ تغمده الله برحمته عند آخر كلامه على مباحث الأنفال عند قوله المسألة التاسعة اعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يأخذ نفقة سنته من فيء بني النضير لا من المغانم وساق حديث أنس بن أوس المتفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة مطالبة علي والعباس ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه قال لهما إن الله كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا بشيء لم يعطه أحدا غيره فقال عز وجل ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ قَدِيرٌ ﴾ [6/59] فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم لقد أعطاكموه وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال فكان النبي صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنته ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله إلخ اهـ

وكانت هذه خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن جاء بعدها ما هو أعم من ذلك في قوله تعالى ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أي عموما ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [7/59]

وهذه الآية لعمومها مصدرا ومصرفا فقد اشتملت على أحكام ومباحث عديدة وقد تقدم لفضيلة الشيخ تغمده الله برحمته الكلام على كل ما فيها عند أول سورة الأنفال على قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ [1/8] فاستوفى واستقصى وفصل وبين مصادر ومصارف الفيء والغنيمة والنفل وما فتح من البلاد صلحا أو عنوة ومسائل عديدة مما لا مزيد عليه ولا غنى عنه والحمد لله تعالى

قوله تعالى ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾

معنى الدولة والدولة بضم الدال في الأولى وفتحها في الثانية يدور عند المفسرين على معنيين الدولة بالفتح الظفر في الحرب وغيره وهي المصدر وبالضم اسم الشيء الذي يتداول من الأموال وقال الزمخشري معنى الآية كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدا بين الأغنياء يتكاثرون به أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم

ومعنى الدولة الجاهلية أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرئاسة والغلبة والدولة وكانوا يقولون من عز بز والمعنى كيلا يكون أخذه غلبة أثرة جاهلية ومنه قول الحسن اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به إلخ

والجدير بالذكر هنا أن دعاة بعض المذاهب الاقتصادية الفاسدة يحتجون بهذا الآية على مذهبهم الفاسد ويقولون يجوز للدولة أن تستولي على مصادر الإنتاج ورؤوس الأموال لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء وما يسمونهم طبقة العمال وهذا على ما فيه من كساد اقتصادي وفساد اجتماعي قد ثبت خطؤه وظهر بطلانه مجانبا لحقيقة الاستدلال

لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة من الإنفاق على المجاهدين وتأمين الغزاة في الحدود والثغور وليس يعطي للأفراد كما يقولون ثم هو أساسا مال جاء غنيمة للمسلمين وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه ولما كان مال الغنيمة ليس ملكا لشخص ولا هو أيضا كسب لشخص معين تحقق فيه العموم في مصدره وهو الغنيمة والعموم في مصرفه وهو عموم مصالح الأمة ولا دخل ولا وجود للفرد فيه فشتان بين هذا الأصل في التشريع وهذا الفرع في التضليل

ومن المؤسف أنهم يؤيدون دعواهم بإقحام الحديث في ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم الناس شركاء في ثلاث الماء والنار والكلأ ومعلوم أن الشركة في هذه الثلاثة ما دامت على عمومها فالماء شركة بين الجميع ما دام في مورده من النهر أو البئر العام أو السيل أو الغدير أما إذا انتقل من مورده العام وأصبح في حيازة ما فلا شركة لأحد فيه مع من حازه كمن ملأ إناء من النهر أو السيل ونحوه فما كان في إنائه فهو خاص به وهذا الكلأ

ما دام عشبا في الأرض العامة لا في ملك إنسان معين فهو عام لمن سبق إليه فإذا ما احتشه إنسان وحازه فلا شركة لأحد فيه وكذلك ما كان منه نابتا في ملك إنسان بعينه فهو أحق به من غيره

ويظهر ذلك بالحوت في البحر والنهر فهو مشاع للجميع والطير في الهواء يصاد فإنه قدر مشترك بين جميع الصيادين فإذا ما صاده إنسان فقد حازه واختص به وهذا أمر تعترف فيه جميع النظم الاقتصادية وتعطي تراخيص رسمية لذلك

وهناك العمل الجاري في تلك الدول مما يجعلهم يتناقضون في دعواهم الاشتراك في الماء والنار والكلأ وذلك في شركات المياه والنور فإنهم يجعلون في كل بيت عدادا يعد جالونات الماء التي استهلكها المنزل ويحاسبونه عليه وإذا تأخر قطعوا عليه الماء وحرموه من شربه

وكذلك التيار الكهربائي فإنه نار وهو الطاقة الفعالة في المدن فإنهم يقيسونه بعداد يعد الكيلوات ويبيعونه على المستهلك فلماذا لا يجعلون الماء والكهرباء شركة بين المواطنين أم الناس شركاء فيما لا يعود على الدولة أما حق الدولة فخاص للحكام إنه عكس ما في قضية الفيء تماما

حيث إن الفيء والغنيمة الذي جعله الله حلالا من مال العدو وهو كسب عام دخل على الأمة بجهود الأمة كلها الماثل في الجيش الذي يقاتل باسمها وجعله تعالى في مصارف عامة في مصالح الأمة لله وللرسول﴿ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾

﴿ فَلِلَّهِ﴾ أي الجهاد في سبيل الله

﴿ وَلِلرَّسُولِ﴾ لقيامه بأمر الأمة وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ نفقة أهله عاما وما بقي يرده في سبيل الله

﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ من تلزمه نفقتهم.

﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ هذا هو التكافل الاجتماعي في الأمة

﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المنقطع في سفره وهذا تأمين للمواصلات

فكان مصرفه بهذا العموم دون اختصاص شخص به أو طائفة﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾

وإنه لمن مواطن الإعجاز في القرآن أن يأتي بعد هذا التشريع قوله تعالى﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الآية[7/59] لأنه تشريع في أمر يمس الوتر الحساس في النفس وهو موطن الشح والحرص ألا وهو كسب المال الذي هو صنو النفس والذي تولى الله قسمته في أهم من ذلك وهو في الميراث قسمه تعالى مبينا فروضه وحصة كل وارث لأنه كسب بدون مقابل وكسب إجباري والنفوس متطلعة إليه فتولاه الله تعالى وكذلك الفيء والغنيمة وحرم الغلول فيه قبل القسمة

ومثل هذا المال هو الذي ألفوا قسمته مغنما والذي بذلوا النفوس والمهج قبل الوصول إليه فإذا بهم يمنعون منه ويحال بينهم وبينه فيقسم المنقول فقط ولا يقسم العقار الثابت ويقال لهم حدث هذ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ سواء الأغنياء بأبدانهم وقدرتهم على العمل وعلى الجهاد أو الأغنياء بأموالهم بما حصلوه من مغانم قبل ذلك

وكان لا بد لنفوسهم من أن تتحرك نحو هذا المال وفعلا ناقشوا عمر رضي الله عنه فيه ولكن هنا يأتي سوط الطاعة المسلت وأمر التشريع المسكت إنه عن الله أتاكم به رسول الله﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإن الآية وإن كانت عامة في جميع التشريع إلا أنها هنا أخص وهي به أقرب والمقام إليها أحوج.

وهنا ينتقل بنا القول إلى ما آتانا به الرسول صلى الله عليه وسلم وفي هذا المعنى بالذات أي معنى المشاركة في الأموال.

لقد جاء صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والأنصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وقد أعانهم الله على شح نفوسهم فمجتمعهم مجتمع بذل وإعطاء وتضحية

وإيثار ومع هذا فقد كان منه صلى الله عليه وسلم أن يأتيه الضيف فلا يجد له قرى في بيته فيقول لأصحابه "من يضيف هذا الليلة وله الجنة" فيأخذه بعض أصحابه ويأتيه فقراء المهاجرين يطلبونه ما يحملهم عليه في الجهاد فيعتذر إليهم أنه لا يجد ما يحملهم عليه فيتولون وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما يحملهم عليه ويأتيه القدح من اللبن فيدعو يا أهل الصفة ليشاركوه إياه لقلة ما عندهم وأبو هريرة يخرج من المسجد فيصرع على بابه من الجوع بينما العديد من أصحابه ذوو يسار منهم من يجهز الجيش من ماله ومنهم من يتصدق بالقافلة كلماة وما فيها ومنهم من يتصدق بخيار بساتين المدينة ومنهم ومنهم فلم يأخذ قط ولا درهما واحدا ممن تصدق بقافلة كاملة وما تحمل لم يأخذ منه درهما بدون رضاه ليشارك معه فيه واحدا من أهل الصفة ولا ممن تصدق ببستانه صاع تمر يعطيه لأبي هريرة يسد مسغبته ولا بعيرا واحدا ممن جهز جيشا من ماله يحمل عليه متطوعا في سبيل الله.

إنها أموال محترمة وأملاك مستقرة خاصة بأصحابها فهناك غنيمة وفيء أخذ بقوة الأمة ومددها للجيش جعل في مصارف عامة للأمة وللجيش وهنا أموال خاصة لم تمس ولم تلمس إلا برضى نفس وطيب خاطر ولذا كانوا يجودون ولا يبخلون ويعطون ولا يشحون ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وكان مجتمعا متكافلا مؤتلفا متعاطفا وسيأتي زيادة إيضاح لهذا المجتمع عند الكلام على مجتمع المدينة على قوله تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ [8/59] وما بعدها من الآيات إن شاء الله تعالى.

وللشيخ رحمه الله تعالى كلام مقنع على هذه المسألة في سورة "الزخرف" على قوله تعالى ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية [32/43] نسوق نصه لأهميته

قال رحمه الله مسألة دلت هذه الآية الكريمة المذكورة هنا كقوله تعالى ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ [71/16]، ونحو ذلك من الآيات على أن تفاوت الناس في الأرزاق والحظوظ سنة من سنن الله السماوية الكونية القدرية لا يستطيع أحد من أهل الأرض

ألبتة تبديلها ولا تحويلها بوجه من الوجوه﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [43/35]، وبذلك تحقق أن ما يتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجود الله والجميع

(35/8)

النبوات والرسائل السماوية إلى ابتزاز ثروات الناس ونزع ملكهم الخاص عن أملاكهم بدعوى المساواة بين الناس في معايشهم أمر باطل لا يمكن بحال من الأحوال مع أنهم لا يقصدون ذلك الذي يزعمون وإنما يقصدون استئثارهم بأملاك جميع الناس لينعموا بها ويتصرفوا فيها كيف شاءوا تحت ستار كثيف من أنواع الكذب والغرور والخداع كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم وأحوالهم مع المجتمع في بلادهم

فالطغمة القليلة الحاكمة ومن ينضم إليها هم المتمتعون بجميع خيرات البلاد وغيرهم من عامة الشعب محرومون من كل خير مظلومون في كل شيء حتى ما كسبوه بأيديهم يعلفون ببطاقة كما تعلف البغال والحمير

وقد علم الله جل وعلا في سابق علمه أنه يأتي ناس يغتصبون أموال الناس بدعوى أن هذا فقير وهذا غني وقد نهى جل وعلا عن اتباع الهوى بتلك الدعوى وأوعد من لم ينته عن ذلك بقوله تعالى﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [135/4] وفي قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ وعيد شديد لمن فعل ذلك انتهى حرفيا.

والحق أن الأرزاق قسمة الخلاق فهو أرأف بالعباد من أنفسهم وليس في خزائنه من نقص ولكنها الحكمة لمصلحة عباده وفي الحديث القدسي "إن من عبادي لمن يصلح له الفقر ولو أغنيته لفسد حاله وإن من عبادي لمن يصلح له الغنى ولو أفقرته لفسد حاله" فهو سبحانه يعطي بقدر ولا يمسك عن قتر

ويكفي في هذا المقام سياق الآية الكريمة التي تكلم الشيخ رحمة الله تعالى عليه في أسلوبها في قوله تعالى﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾ [32/43] وهذا الضمير معلوم أنه للتعظيم والتفخيم مثله الضمير في ﴿ قَسَمْنَا ﴾ فلا مجال لتدخل المخلوق ولا مكان لغير الله تعالى في ذلك والقسمة إذا كانت من الله تعالى فلا تقوى قوة في الأرض على

إبطالها ثم إن واقع الحياة يؤيد ذلك بل ويتوقف عليه كما قال تعالى﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [32/43]

وهؤلاء المعتدون على أموال الناس يعترفون بذلك ويقرون نظام الطبقات عمال وغير عمال إلخ فلا دليل في آية سورة الحشر هنا ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ

(36/8)

مِنكُمْ ﴾ , ولا حق لهم فيما فعلوا في أموال الناس بهذا المبدأ الباطل والله تعالى أعلم قوله تعالى﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

قال الشيخ رحمه الله تعالى في المقدمة إن السنة كلها مندرجة تحت هذه الآية الكريمة أي أنها ملزمة للمسلمين العمل بالسنة النبوية فيكون الأخذ بالسنة أخذا بكتاب الله ومصداق ذلك قوله تعالى﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [53/ 3–4]

وقد قال السيوطي الوحي وحيان

وحي أمرنا بكتابته وتعبدنا بتلاوته وهو القرآن الكريم

ووحي لم نؤمر بكتابته ولم نتعبد بتلاوته وهو السنة

وقد عمل بذلك سلف الأمة وخلفها كما جاء عن سعيد بن المسيب أنه قال في مجلسه بالمسجد النبوي لعن الله في كتابه الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة فقالت امرأة قائمة عنده وفي كتاب الله قال نعم قالت لقد قرأته من دفته إلى دفته فلم أجد هذا الذي قلت فقال لها لوكنت قرأتيه لوجدتيه أو لم تقرئي قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة ومن لعنها رسول الله فقد لعنها فقالت له لعل بعض أهلك يفعله فقال لها ادخلي وانظري فدخلت بيته ثم خرجت ولم تقل شيئا فقال لها ما رأيت قالت خيرا

وانصرفت

وجاء الشافعي وقام في أهل مكة فقال سلوني يا أهل مكة عما شئتم أجبكم عنه من كتاب الله فسأله رجل عن المحرم يقتل الزنبور ماذا عليه في كتاب الله فقال يقول الله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين" الحديث وحدثني فلان عن فلان وساق بسنده إلى عمر بن الخطاب سئل المحرم يقتل الزنبور ماذا عليه فقال لا شيء عليه

فقد اعتبر سعيد بن المسيب السنة من كتاب الله والشافعي إعتبر سنة الخلفاء الراشدين من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن واعتبر كل منهما جوابه من كتاب الله بناء على هذه الآية الكريمة.

(37/8)

وهذا ما عليه الأصوليون يخصصون بها عموم الكتاب ويقيدون مطلقه

فمن الأول قوله صلى الله عليه وسلم "أحلت لنا ميتتان ودمان أما الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالكبد والطحال" فخص بهذا الحديث عموم قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ [5/3]، وكذلك في النكاح "لا تنكح المرأة على عمتها ولا المرأة على خالتها" وخص بها عموم ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ [4/24]، ونحوه كثير.

ومن الثاني قطعه صلى الله عليه وسلم يد السارق من الكوع تقييدا لمطلق ﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [5/38]، وكذلك مسح الكفين في التيمم تقييدا أو بيانا لقوله تعالى ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ [5/6]، ونحو ذلك كثير وكذلك بيان المجمل كبيان مجمل قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [2/43]، فلم يبين عدد الركعات لكل وقت ولا كيفية الأداء فصلى صلى الله عليه وسلم على المنبر وهم ينظرون ثم قال لهم "صلوا كما رأيتموني أصلي" وحج وقال لهم "خذوا عني مناسككم"

وقد أجمعوا على أن السنة أقوال وأفعال وتقرير وقد ألزم العمل بالأفعال قوله تعالى﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [21/33] والتأسي يشمل القول والفعل ولكنه في الفعل أقوى والتقرير مندرج في الفعل لأنه ترك الإنكار على أمر ما والترك فعل عند الأصوليين كما قال صاحب مراقي السعود

والترك فعل في صحيح المذهب

تنبيه

تنقسم أفعاله صلى الله عليه وسلم إلى عدة أقسام

أولا: ما كان يفعله بمقتضى الجبلة وهو متطلبات الحياة من أكل وشرب ولبس ونوم فهذا كله يفعله استجابة لمتطلبات الحياة وكان يفعله قبل البعثة ويفعله كل إنسان فهو على الإباحة الأصلية وليس فيه تشريع جديد ولكن صورة الفعل وكيفيته ككون الأكل والشراب باليمين إلخ وكونه من أمام الآكل فهذا هو موضع التأسي به صلى الله عليه وسلم وكذلك نوع المأكول أو تركه ما لم يكن لمانع كعدم أكله صلى الله عليه وسلم للضب والبقول المطبوخة وقد بين السبب في ذلك فالأول لأنه ليس في أرض قومه فكان يعافه والثاني لأنه يناجي من لا نناجي وقد قال صاحب المراقي للضب والبقول المطبوخة وقد بين السبب في ذلك فالأول لأنه ليس في أرض قومه فكان يعافه والثاني لأنه يناجي من لا نناجي وقد قال صاحب المراقي:

وفعله المركوز في الجبله . . . كالأكل والشرب فليس مله

(38/8)

من غير لمح الوصف. . . . .

ثانيا: ما كان مترددا بين الجبلة والتشريع كوقوفه صلى الله عليه وسلم بعرفة راكبا على ناقته ونزوله بالمحصب منصرفه من منى فالوقوف الذي هو ركن الحج يتم بالتواجد في الموقف بعرفة على أية حالة فهل كان وقوفه صلى الله عليه وسلم راكبا من تمام نسكه أم أنه صلى الله عليه وسلم فعله دون قصد إلى النسك خلاف بين

الأصوليين ولا يبعد من يقول قد يكون فعله صلى الله عليه وسلم هذا ليكون أبرز لشخصه في مثل هذا الجمع تسهيلا على من أراده لسؤال أو رؤية أو حاجة فيكون تشريعا لمن يكون في منزلته في المسؤولية

ثالثا: ما ثبتت خصوصيته به مثل جواز جمعه بين أكثر من أربع نسوة بالنكاح لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [50/33]، وكن أكثر من أربع ونكاح الواهبة نفسها لقوله تعالى ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [50/33]، فهذا لا شركة لأحد معه فيه

رابعا: ما كان بيانا لنص قرآني كقطعه صلى الله عليه وسلم يد السارق من الكوع بيانا لقوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [38/5]، وكأعمال الحج والصلاة فهما بيان لقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [43/2]، وقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [97/3]، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "صلوا كما رأيتموني أصلي" وقال "خذوا عني مناسككم" فهذا القسم حكمه للأمة حكم المبين بالفتح ففي الوجوب واجب وفي غيره بحسبه

خامسا: ما فعله صلى الله عليه وسلم لا لجبلة ولا لبيان ولم تثبت خصوصيته له فهذا على قسمين أحدهما أن يعلم حكمه بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من وجوب أو ندب أو إباحة فيكون حكمه للأمة كذلك كصلاته صلى الله عليه وسلم في الكعبة وقد علمنا أنها في حقه صلى الله عليه وسلم جائزة فهي للأمة على الجواز ثانيهما ألا يعلم حكمه بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم وفي هذا القسم أربعة أقوال

أولها: الوجوب عملا بالأحوط وهو قول أبي حنيفة وبعض الشافعية ورواية عن

أحمد

ثانيها: الندب لرجحان الفعل على الترك وهو قول بعض الشافعية ورواية عن

أحمد أيضا .

ثالثها: الإباحة لأنها المتيقن ولكن هذا فيما لا قربة فيه إذ القرب لا توصف بالإباحة

رابعها: التوقف لعدم معرفة المراد وهو قول المعتزلة وهذا أضعف الأقوال لأن التوقف ليس فيه تأس

فتحصل لنا من هذه الأقوال الأربعة أن الصحيح الفعل تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم وجوبا أو ندبا

ومثلوا لهذا الفعل بخلعه صلى الله عليه وسلم نعله في الصلاة فخلع الصحابة كلهم نعالهم فلما انتهى صلى الله عليه وسلم سألهم عن خلعهم نعالهم قالوا رأيناك فعلت ففعلنا فقال لهم "أتاني جبريل وأخبرني أن في نعلي أذى فخلعتها" فإنه أقرهم على خلعهم تأسيا به ولم يعب عليهم مع أنهم لم يعلموا الحكم قبل إخباره إياهم وقد جاء هنا ﴿ وَمَا آتَاكُمُ ﴾ بصيغة العموم

وقال الشيخ رحمه الله في دفع الإيهام في سورة "الأنفال" عند قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [24/8]، ما نصه وهذه الآية تدل بظاهرها على أن الاستجابة للرسول التي هي طاعته لا تجب إلا إذا دعانا لما يحيينا ونظيرها قوله تعالى ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾

وقد جاء في آيات أخر ما يدل على وجوب اتباعه مطلقا من غير قيد كقوله ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [7/59]، وقوله ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية [31/3] ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [80/4]

والظاهر أن وجه الجمع والله تعالى أعلم أن آيات الإطلاق مبينة أنه صلى الله عليه وسلم لا يدعونا إلا لما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة فالشرط المذكور في قوله ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ متوفر في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لمكان عصمته كما دل عليه قوله تعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [53/3–4]

والحاصل أن آية ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ مبينة أنه لا طاعة إلا لمن يدعو إلى ما يرضي الله وأن الآيات الأخر بينت أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعو أبدا إلا إلى ذلك صلوات

الله وسلامه عليه انتهى

وقد بينت السنة كذلك حقيقة ومنتهى ما جاء به صلى الله عليه وسلم في قوله"ما تركت خيرا يقربكم إلى الله إلا بينته لكم وأمرتكم به وما تركت شرا يباعدكم عن الله إلا بينته لكم وأمرتكم به وما تركت شرا يباعدكم عن الله إلا بينته لكم وحذرتكم منه ونهيتكم عنه"

تنبيه

الواقع أن العمل بهذه الآية الكريمة هو من لوازم نطق المسلم بالشهادتين لأن قوله أشهد أن لا إله إلا الله اعتراف لله تعالى بالألوهية وبمستلزماتها ومنها إرسال الرسل إلى خلقه وإنزال كتبه وقوله أشهد أن محمدا رسول الله اعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من الله لخلقه وهذا يستلزم الأخذ بكل ما جاء به هذا الرسول الكريم من الله سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يعبد الله إلا بما جاءه به رسول الله ولا يحق له أن يعصي الله بما نهاه عنه رسول الله فهي بحق مستلزمة للنطق بالشهادتين

ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [59/4]، فربط مرد الخلاف إلى الله والرسول بالإيمان بالله واليوم الاخر

وقال الشيخ رحمه الله عند هذه الآية في سورة النساء أمر الله في هذه الآية الكريمة بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لأنه تعالى قال ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [80/4]، انتهى

فاتضح بهذا كله أن ما أتانا به صلى الله عليه وسلم فهو من عند الله وأنه بمنزلة القرآن في التشريع وأن السنة تستقل بالتشريع كما جاءت بتحريم لحوم الحمر الأهلية وكل ذي مخلب من الطير وناب من السباع وبتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو هي مع ابنة أخيها أو ابنة أختها ونحو ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم"لا ألفين أحدكم على أريكته أهله يقول ما وجدنا في كتاب الله أخذناه وما لم نجده في كتاب الله تركناه ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه"

والنص هنا عام في الأخذ بكل ما أتانا به وترك ما نهانا عنه وقد جاء تخصيص هذا

العموم في قوله تعالى ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [286/2] وقوله ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [61/24] وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [286/2].

وجاء الحديث ففرق بين عموم النهي في قوله صلى الله عليه وسلم"ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فانتهوا" وقد جاء هذا التذييل على هذه الآية بقوله تعالى﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [2/5]، إيذانا بأن هذا التكليف لاهوادة فيه وأنه ملزم للأمة سرا وعلنا وأن من خالف شيئ منه يتوجه إليه هذا الإنذار الشديد لأن معصيته معصية لله وطاعته من طاعة الله﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

في هذه الآية الكريمة وصف شامل للمهاجرين في دوافع الهجرة أنهم﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ ، وغايتها وهي ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ والحكم لهم بأنهم ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

ومنطوق هذه الأوصاف يدل بمفهومه أنه خاص بالمهاجرين مع أنه جاءت نصوص أخرى تدل على مشاركة الأنصار لهم فيه منها قوله تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [72/8]، وقوله تعالى بعدها ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ [74/8].

فذكر المهاجرين بالجهاد بالمال والنفس وذكر معهم الأنصار بالإيواء والنصر ووصف الفريقين معا بولاية بعضهم لبعض وأثبت لهم معا حقيقة الإيمان﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ أي الصادقون في إيمانهم فاستوى الأنصار مع المهاجرين في عامل النصرة وفي صدق الإيمان

وفي قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(42/8)

[9/59]،

وصف شامل للأنصار ﴿ تَبَوَّأُوا الدَّارَ﴾ أي المدينة ﴿ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي بيعة العقبة الأولى والثانية من قبل مجيء المهاجرين بل ومن قبل إيمان بعض المهاجرين﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ويستقبلونه بصدور رحبة ﴿ وَيُؤْثِرُونَ﴾ غيرهم ﴿ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ لأنهم هاجروا إليهم

وظاهر النصوص تدل بمفهومها أن غيرهم لم يشاركهم في هذه الصفات ولكن في الآية الأولى ما يدل لمشاركة المهاجرين الأنصار في هذا الوصف الكريم وهو الإيثار على النفس لأن حقيقة الإيثار على النفس هو بذل المال للغير عند حاجته مقدما غيره على نفسه وهذا المعنى بالذات سبق أن كان من المهاجرين أنفسهم المنصوص عليه في قوله تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [8/59]، فكانت لهم ديار وكانت عندهم أموال وأخرجوا منها كلها فلئن كان الأنصار واسوا إخوانهم المهاجرين ببعض أموالهم وقاسموهم ممتلكاتهم فإن المهاجرين لم ينزلوا عن بعض أموالهم فحسب بل تركوها كلها أموالهم وديارهم وأولادهم وأهلهم فصاروا فقراء بعد إخراجهم من ديارهم وأموالهم ومن يخرج من كل ماله ودياره ويترك أهله وأولاده لا يكون أقل تضحية ممن آثر غيره ببعض ماله وهو مستقر في أهله ودياره فكأن الله عوضهم بهذا الفيء عما فات عنهم.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم قال للأنصار ما يشعر بهذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم "إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم" فقالوا يا رسول الله أموالنا بيننا قطائع الحديث أي أن الأنصار عرفوا ذلك للمهاجرين وعليه أيضا فقد استوى المهاجرون مع الأنصار في هذا الوصف المثالي

الكريم وكان خلقا لكثيرين منهم بعد الهجرة كما فعل الصديق رضي اللهعنه حين تصدق بكل ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم"ما أبقيت لأهلك" ؟ فقال رضي الله عنه أبقيت لهم الله ورسوله وكذلك عائشة الصديقة رضي الله عنها حينما كانت صائمة وليس عندها سوى قرص من الشعير وجاء سائل فقالت لبريرة ادفعي إليه ما عندك فقالت لها ليس إلا ما ستفطرين عليه فقالت لها ادفعيه إليه ولعلها أحوج إليه الآن أو كما قالت

ولما جاء المغرب أهدى إليهم رجل شاة بقرامها وقرامها هو ما كانت العرب تفعله

(43/8)

إذا أرادوا شواء شاة طلوها من الخارج بالعجين حفظا لها من رماد الجمر فقالت لبريرة كلي هذا خير من قرصك

وكما فعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تصدق بالعير وما تحمله من تجارة حين قدمت والرسول صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فخرج الناس إليها

فعلى هذا كان مجتمع المدينة في عهده صلى الله عليه وسلم مجتمعا متكافلا بعضهم أولياء بعض وقد نوه صلى الله عليه وسلم في قصة غنائم حنين بفضل كلا الفريقين في قوله صلى الله عليه وسلم"لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار" .

ومن بعده عمر رضي الله عنه قال وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوأوا الدار والإيمان مرقبل أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ثم كان هذا خلق المهاجرين والأنصار جميعا كما وقع في وقعة اليرموك قال حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من الماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته فإذا أنا به فقلت له أسقيك فأشار برأسه أن نعم فإذا أنا برجل يقول آه آه فأشار إلي ابن عمي أن أنطلق إليه فإذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك

فأشار أن نعم فسمع آخر يقول آه آه فأشار هشام أن أنطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات

وكان منهج الخواص من بعدهم كما قال القرطبي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجا فقال لي ما حد الزهد عندكم فقلت إن وجدنا أكلنا وإن فقدنا صبرنا فقال هكذا كلاب بلخ عندنا فقلت وما حد الزهد عندكم قال إن فقدنا شكرنا وإن وجدنا آثرنا

وفي قوله ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، الإيثار على النفس تقديم الغير عليها مع الحاجة والخصاصة التي تختل بها الحال وأصلها من الاختصاص وهو الانفراد في الأمر فالخصاصة الأنفراد بالحاجة أي ولو كان بهم فاقة وحاجة ومنه قول الشاعر:

أما الربيع إذا تكون خصاصة . . . عاش السقيم به وأثرى المقتر

(44/8)

وهل يصح الإيثار من كل إنسان ولو كان ذا عيال أو تلزمه نفقة غيره أم لا وما علاقته مع قوله﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [219/2] ؟

والجواب على هذا كله في كلام الشيخ رحمه الله على قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في أول سورة البقرة

قال رحمه الله قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ عبر في هذه الآية الكريمة بمن التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ما له كله ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه والذي ينبغي إمساكه لكنه بين في مواضع أخرى أن القدر الذي ينبغي إنفاقه هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لا بد منها وذلك كقوله﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ والمراد بالعفو الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات وهو مذهب الجمهور ومنه قوله تعالى ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ [95/7]، أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم

وقال بعض العلماء العفو نقيض الجهد وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع

ومنه قول الشاعر ومنه قول الشاعر:

خذي العفو مني تستديمي مودتي... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

وهذا القول راجع إلى ما ذكرنا وبقية الأقوال ضعيفة وقوله تعالى﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [29/17]، فنهاه عن البخل بقوله﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ ونهاه عن الإسراف بقوله﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فيتعين الوسط بين الأمرين كما بينه بقوله﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [67/25]

فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير وبين البخل والإقتار فالجود غير التبذير والاقتصاد غير البخل فالمنع في محل الإعطاء مذموم وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ والإعطاء في محل المنع مذموم أيضا وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾

(45/8)

وقد قال الشاعر:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت... يداه كالمزن حتى تخجل الديما

فإنها خطرات من وساوسه... يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

وقد بين تعالى في مواضع أخرى أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك إلا إذا كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله كقوله تعالى﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الآية[215/2]وصرح في أن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرة على صاحبه في قوله﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [36/8].

وقد قال الشاعر:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت. . . يداه كالمزن حتى تخجل الديما

فإنها خطرات من وساوسه. . . يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فإن قيل هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد عن الحاجة الضرورية مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا وذلك في قوله﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [9/59]

فالظاهر في الجواب والله تعالى أعلم هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالا ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعا وذلك كما إذا كانت على المنفق واجبكنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق في غير واجب وترك الفرض لقوله صلى الله عليه وسلم"وابدأ بمن تعول" وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم فلا يجوز له ذلك والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة وكان واثقا من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال

وأما على القول بأن قوله تعالى﴿ وَمِما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني به الزكاة فالأمر واضح والعلم عند الله تعالى انتهى منه

والواقع أن للإنفاق في القرآن مراتب ثلاثة

الأولى: الإنفاق من بعض المال بصفة عامة كما في قوله تعالى﴿ وَمِما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ .

الثانية: الإنفاق مما يحبه الإنسان ويحرص عليه كما في قوله تعالى﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [177/2]، وهذا أخص من الأول وقوله﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ الآية[8/76]،

الثالثة: الإنفاق مع الإيثار على النفس كهذه الآية﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فهي أخص من الخاص الأول

وتعتبر المرتبة الأولى هي الحد الأدنى في الواجب حتى قيل إن المراد بها الزكاة وهي تشمل النافلة وتصدق على أدنى شيء ولو شق تمر وتدخل في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [7/99]، وتعتبر المرتبة الثالثة هي الحد الأقصى لأنها إيثار للغير على خاصة النفس والمرتبة الثانية هي الوسطى بينهما وهي الحد الوسط بين الاكتفاء بأقل الواجب وبين الإيثار على النفس وهي ميزان التوسط لعامة الناس كما بينه تعالى بقوله ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [29/17]، وكما امتدح الله تعالى قوما بالاعتدال في قوله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [67/25]

وهذا هو عين تطبيق قاعدة الفلسفة الأخلاقية القائلة الفضيلة وسط بين طرفين" أي طرفي الإفراط والتفريط فالشجاعة مثلا وسط بين التهور والجبن والكرم وسط بين التبذير والتقتير

والإنفاق جوانب متعددة وأحكام متفاوتة قد بين الشيخ رحمه الله جانبا من الأحكام وقد بين القرآن الجوانب الأخرى وتنحصر في الآتي نوع ما يقع منه الإنفاق الجهة المنفق عليها موقف المنفق وصورة الإنفاق

أما ما يقع منه الإنفاق قد بينه تعالى أولا من كسب حلال لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [267/2] وقوله تعالى ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [92/3]، أما الجهة المنفق عليها فكما في قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ

(47/8)

مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [215/2]، فبدأ بالوالدين برا لهما وثنى بالأقربين

وقال صلى الله عليه وسلم "الصدقة على القريب صدقة وصلة وعلى البعيد صدقة" ثم اليتامى وهذا واجب إنساني وتكافل اجتماعي لأن يتيم اليوم منفق الغد وولد الأبوين اليوم قد يكون يتيما غدا أي لمن

أحسن إلى اليتيم اليوم قد يترك أيتاما فيحسن عليهم ذلك اليتيم الذي أحسنت إليه بالأمس والمساكين وابن السبيل أمور عامة

وجاء بالقاعدة العامة التي يحاسب الله تعالى عليها ويجازي صاحبها﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ أي مطلقا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [215/2]، وكفى في ذلك علمه تعالى

أما موقف المنفق وصورة الإنفاق فإن هذا هو سر النفقة في الإسلام وفلسفة الإنفاق كلها تظهر في هذا الجانب مما تميز به الإسلام دون غيره من جميع الأديان أو النظم

لأنه يركز على الحفاظ على شعور وإحساس المسكين بحيث لا يشعره بجرح المسكنةولا ذلة الفاقة كما في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [262/2] .

ثم فاضل بين الكلمة الطيبة والصدقة المؤذية في قوله تعالى ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [263/2]، يعطي ولا يمن بالعطاء

وأفهم المنفقين أن المن والأذى يبطل الصدقة﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [264/2]، لما فيه من جرح شعور المسكين

وقد حث على إخفائها إمعانا في الحفاظ على شعوره وإحساسه ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي مع الآداب السابقة ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [271/2]، أي لكم أنتم في حفظ ثوابها

وقد جعل صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله"رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه" ، وكما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ

يُنفِقُونَ أَمْوالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[274/2] .

ومن خصائص الإسلام في هذا الباب أنه كما أدب الأغنياء في طريقة الإنفاق فقد أدب الفقراء في طريقة الأخذ وذلك في قوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [273/2] .

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة حث على تقوى الله في الجملة واقترنت بالحث على النظر والتأمل فيما قدمت كل نفس لغد وتكرر الأمر فيها بتقوى الله مما يدل على شدة الاهتمام والعناية بتقوى الله على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله سواء كان التكرار للتأكيد أم كان للتأسيس وسيأتي بيانه إن شاء الله أما الاهتمام بالحث على التقوى فقد دلت له عدة آيات من كتاب الله تعالى ولو قيل إن الغاية من رسالة الإسلام كلها بل ومن جميع الأديان هو تحصيل التقوى لما كان بعيدا وذلك للآتي

أولا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [21/2]، ومعلوم أنه تعالى ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته فتكون التقوى بمضمون هاتين الآيتين هي الغاية في خلق الثقلين الإنس والجن وقد جاء النص مفصلا في حق كل أمة على حدة منها في قوم نوح عليه السلام قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [26/105 – 108] وفي قوم عاد قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [26/123 – 126] وفي قوم لوط ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [26/160–163] . وفي قوم شعيب قوله تعالى ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا

تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [176/26–179] .

فكل نبي يدعو قومه إلى التقوى كما قدمنا ثم جاء القرآن كله دعوة إلى التقوى وهداية للمتقين كما في مطلع القرآن الكريم ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [2/ 1–2]، وبين نوع هذه الهداية المتضمنة لمعنى التقوى بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [3/2–5]

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى عليه معنى التقوى عند قوله تعالى﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [189/2] .

قال لم يبين هنا من المتقي وقد بينه تعالى في قوله﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [177/2] .

وقد بينت آيات عديدة آثار التقوى في العاجل والآجل

منها في العاجل قوله تعالى﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [4/65]، وقوله ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [2/65–3] وقوله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [282/2]

وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [128/16]

أما في الآجل وفي الآخرة فإنها تصحب صاحبها ابتداء إلى أبواب الجنة كما في قوله تعالى﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [73/39]، فإذا ما دخلوها آخت بينهم وجددت روابطهم فيما بينهم وآنستهم من كل خوف كما في قوله تعالى ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ

آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ إلى قوله ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [43/67 – 73]، إلى أن تنتهي بهم إلى أعلى عليين وتحلهم مقعد صدق كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [54/54 – 55].

فتبين بهذا كله منزلة التقوى من التشريع الإسلامي وفي كل شريعة سماوية وأنها هنا في معرض الحث عليها وتكرارها وقد جعلها الشاعر السعادة كل السعادة كما في قوله وهو لجرير

ولست أرى السعادة جمع مال. . . ولكن التقي هو السعيد

فتقوى الله خير الزاد ذخرا. . . وعند الله للأتقى مزيد

والتقوى دائما هي الدافع على كل خير الرادع عن كل شر روى ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد في مجيء قوم من مضر مجتابي النمار والعباءة حفاة عراة متقلدي السيوف فيتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل ثم خرج فأمر بلالا ينادي للصلاة فصلى ثم خطب الناس وقرأ قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [4/1] إلى آخر الآية وقرأ الآية التي في سورة "الحشر" ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الآية [59/18]، "تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره حتى قال ولو بشق تمرة" قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس إلى قوله حتى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه كأنه مذهبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء" الحديث

فكانت التقوى دافعا على سن سنة حسنة تهلل لها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أنها تحول دون الشر من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [2/282] وقوله ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [2/282]، فإن التقوى مانعة من بخس الحق ومن ضياع الأمانة وكقوله عن مريم في طهرها وعفتها لما أتاها جبريل وتمثل لها بشرا سويا ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [19/18].

وكما في حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار ومنهم الرجل مع ابنة عمه لما قالت له اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقام عنها وترك لها المال.

وهكذا في تصرفات العبد كما في قوله تعالى﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [32/22].

والخطاب في قوله تعالى﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ﴾ [18/59]، لكل نفس كما في قوله تعالى﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ [281/2] وقوله ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ [25/3]

فالنداء أولا بالتقوى لخصوص المؤمنين والأمر بالنظر لعموم كل نفس لأن المنتفع بالتقوى خصوص للمؤمنين كما أوضحه الشيخ رحمة الله عليه في أول سورة البقرة والنظر مطلوب من كل نفس فالخصوص للإشفاق والعموم للتحذير

ويدل للأول قوله تعالى﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ [43/33].

ويدل للثاني قوله﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [30/3]، وما في قوله تعالى﴿ مَا قَدَّمَتْ ﴾ [18/59]، عامة في الخير والشر وفي القليل والكثير

ويدل للأول قوله تعالى﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾

ويدل للثاني قوله تعالى﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [99/7 – 8]

والحديث "اتقوا النار ولو بشق تمرة"

وغدا تطلق على المستقبل المقابل للماضي كما قال الشاعر وغدا تطلق على المستقبل المقابل للماضي كما قال الشاعر:

واعلم علم اليوم والأمس قبله. . . ولكنني عن علم ما في غد عم

وعليه أكثر استعمالاتها في القرآن كقوله تعالى عن إخوة يوسف ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [12/12]، وقوله: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [18/23–24].

(52/8)

وتطلق على يوم القيامة كما هنا في هذه الآية لدلالة القرآن على ذلك من ذلك قوله تعالى في نفس المعنى ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ﴾ [78/40]

والقرائن في الآية منها اكتنافها بالحث على تقوى الله قبله وبعده

ومنها التذييل بالتحذير في قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [59/18]، أي بالمقاصد في الأعمال وبالظواهر والبواطن ولأن يوم القيامة هو موضع النسيان فاحتاج التنبيه عليه

ويكون التعبير عن يوم القيامة بغد لقرب مجيئه وتحقق وقوعه كقوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [54/1] وقوله ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [16/77]

ومن ناحية أخرى فإن الغد لكل إنسان بمعنى يوم القيامة يتحقق بيوم موته لأنه يعاين ما قد قدم يوم موته وقد نكر لفظ نفس وغد هنا فقيل في الأول لقلة من الناظرين وفي الثاني لعظم أمره وشدة هوله

وهنا قد تكرر الأمر بتقوى الله كما أسلفنا مرتين فقيل للتأكيد قاله ابن كثير وقيل للتأسيس قاله الزمخشري وغيره

فعلى أنه للتأكيد ظاهر وعلى التأسيس يكون الأول لفعل المامور والثاني لترك المحظور مستدلين بمجيء موجب الفعل أولا ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ ﴾ ومجيء موجب التحذير ثانيا ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

وهذا وإن كان له وجه ويشهد للتأكيد قوله تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [3/102] وإن كانت نسخت بقوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [64/16]، فيدل لمفهومه قوله ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً

صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ [102/9] أي بترك بعض المامور وفعل بعض المحظور

وعليه فلا تتحقق التقوى إلا بمراعاة الجانبين ولكن مادة التقوى وهي اتخاذ الوقاية مما يوجب عذاب الله تشمل شرعا الأمرين معا لقوله تعالى في عموم اتخاذ الوقاية﴿ قُوا

(53/8)

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهُ﴾ [6/66]

فكان أحد الأمرين بالتقوى يكفي لذلك ويشمله ويكون الأمر بالتقوى الثاني لمعنى جديد وفي الآية ما يرشد إليه وهو قوله تعالى ﴿ ما قَدَّمَتْ ﴾ لأن ﴿ ما ﴾ عامة كما قدمنا وصيغة ﴿ قَدَّمَتْ ﴾ على الماضي يكون الأمر بتقوى الله أولا بالنسبة لما مضى وسبق من عمل تقدم بالفعل ويكون النظر بمعنى المحاسبة والتأمل على معنى الحديث "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا" فقد ذكره ابن كثير

فإذا ما نظر في الماضي وحاسب نفسه وعلم ما كان من تقصير أو وقوع في محظور جاءه الأمر الثاني بتقوى الله لما يستقبل من عمل جديد ومراقبة الله تعالى عليه﴿ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [234/2] فلا يكون هناك تكرار ولا يكون توزيع بل بحسب مدلول عموم﴿ ما ﴾ وصيغة الماضي ﴿ قَدَّمَتْ ﴾ والنظر للمحاسبة

تنبيه

مجيء ﴿ قَدَّمَتْ ﴾ بصيغة الماضي حث على الإسراع في العمل وعدم التأخير لأنه لم يملك إلا ما قدم في الماضي والمستقبل ليس بيده ولا يدري ما يكون فيه﴿ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ [34/31]، وكما في وقوله "حجوا قبل ألا تحجوا" وقوله تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [133/3]، وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [19/59] .

بعد الحث على تقوى الله وعلى الاجتهاد في تقديم العمل الصالح ليوم غد جاء التحذير في هذه الآية من النسيان والترك وألا يكون كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ولم يبين هنا من هم الذين حذر من أن يكونوا مثلهم في هذه

النسيان وما هو النسيان والإنساء المذكوران هنا

وقد نص القرآن على أن الذين نسوا الله هم المنافقون في قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [67/9]، وهذا عين الوصف الذي وصفوا به في سورة الحشر وقوله تعالى ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ، أي أنساهم أنفسهم لأن الله تعالى لا ينسى ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ [52/2] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

(54/8)

نَسِيّاً ﴾ [64/19]

وقد جاء أيضا وصف كل من اليهود والنصارى والمشركين بالنسيان في الجملة ففي اليهود يقول تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [13/5].

وفي النصارى يقول تعالى ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [14/5]

وفي المشركين يقول تعالى ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [51/7]، فيكون التحذير منصبا أصالة على المنافقين وشاملا معهم كل تلك الطوائف لاشتراكهم جميعا في أصل النسيان

أما النسيان هنا فهو بمعنى الترك وقد نص عليه الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند الكلام على قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ [115/20].

فذكر وجهين وقال العرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمدا ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [126/20]

فالمراد من هذه الآية الترك قصدا

وكقوله ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [51/7]

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [14/32] . وقوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [19/59]، انتهى

أما النسيان الذي هو ضد الذكر وهو الترك عن غير قصد فليس داخلا هنا لأن هذه الأمة قد أعفيت من المؤاخذة عليه كما في قوله تعالى﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [286/2]

وفي الحديث أن الله تعالى قال"قد فعلت قد فعلت" أي عند ما تلاها صلى الله عليه وسلم

(55/8)

وجاء في السنة"إن الله قد تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى عليه هذا النوع في دفع إيهام الاضطراب على الجواب عن الإشكال الموجود في نسيان آدم هل كان عن قصد أو عن غير قصد وإذا كان عن غير قصد فكيف يؤاخذ وبين خطظ هذه الأمة في هذا الباب رحمة الله تعالى عليه فليرجع إليه

وإذا تبين المراد بالتحذير من مشابهتهم في النسيان وتبين معنى النسيان فكيف أنساهم الله أنفسهم وهذه مقتطفات من أقوال المفسرين في هذا المقام لزيادة البيان

قال ابن كثير رحمه الله لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل الصالح فإن الجزاء من جنس العمل

وقال القرطبي ﴿ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي تركوا أمره ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيرا

وقال أبو حيان الذين نسوا الله هم الكفار تركوا عبادة الله وامتثال ما أمر واجتناب ما نهى فأنساهم أنفسهم حيث لم يسعوا إليها في الخلاص من العذاب وهذا من المجازات على الذنب بالذنب إلخ

وقال ابن جرير تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم وهذا من باب الجزاء من جنس العمل

أما الزمخشري والفخر الرازي فقد أدخلا في هذا المعنى مبحثا كلاميا حيث قالا في معنى﴿ نَسُوا اللَّهَ﴾ كما

قال الجمهور أما في معنى ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ فذكروا وجهين الأول كالجمهور والثاني بمعنى أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم كقوله تعالى ﴿ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [43/14] وقوله ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [2/22]، اهـ

وهذا الوجه الثاني لا يسلم لهما لأن ما ذهبا إليه عام في جميع الخلائق يوم القيامة وليس خاصا بمن نسي الله كما قال تعالى في نفس الآية التي استدلا بها ﴿ وَتَرَى النَّاسَ

(56/8)

سُكَارَى ﴾ فهو عام في جميع الناس .

وقوله ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [2/22] والذهول أخو النسيان وهو هنا عام في كل مرضعة ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [2/22]، وهو أيضا عام وذلك من شدة الهول يوم القيامة ولعل الحامل لهما على إيراد هذا الوجه مع بيان ضعفه هو فرارهم من نسبة الإنساء إلى الله وفيه شبهة اعتزال كما لا يخفي

ولوجود إسناد الإنساء إلى الشيطان في بعض المواضع كما في قصة صاحب موسى ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [18/63]، وكما في قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [68/6]، وقوله عن صاحب يوسف ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [42/12]

ولكن الصحيح عند علماء السلف أن حقيقة النسيان والإنساء والتذكير والتذكر كحقيقة أي معنى من المعاني وأنها كلها من الله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [78/4]، ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [51/9]، فما نسب إلى الشيطان فهو بتسليط من الله كما في قوله تعالى ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [102/2]، ثم قال ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [102/2]، فيكون إسناد الإنساء إلى الشيطان من باب قول الخليل عليه السلام ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [80/26]،

تأدبا في الخطاب مع الله تعالى ولكن هذا المقام مقام إخبار من الله عما أوقعه بهؤلاء الذين نسوا ما أمرهم به فأنساهم فأوقع عليهم النسيان لأنفسهم مجازاة لهم على أعمالهم فكان نسبته إلى الله وإخبار من الله عين الحق وهو أقوى من أسلوب المقابلة ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [67/9]،

تنبيهان

الأول: جاء في مثل هذا السياق سواء بسواء قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [34/45]

وقوله ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ [14/32]

وقوله ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [67/9]، وفي هذا نسبة النسيان إلى الله تعالى فوقع

(57/8)

الإشكال مع قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [64/19]، وقوله ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [52/20]

وقد أجاب الشيخ رحمة الله عليه عن ذلك في دفع إيهام الاضطراب بأن النسيان المثبت بمعنى الترك كما تقدم والمنفي عنه تعالى هو الذي بمعنى السهو لأنه محال على الله تعالى

التنبيه الثاني: مما نص عليه الشيخ رحمة الله تعالى عليه في مقدمة الأضواء أن من أنواع البيان أن يوجد في الآية اختلاف للعلماء وتوجد فيها قرينة دالة على المعنى المراد وهو موجود هنا في هذه المسألة وهو قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [34/45]، وهذا القول يكون يوم القيامة وقد عبر عن النسيان بصيغة المضارع وهي للحال أو الاستقبال ولا يكون النسيان المخبر عنه في الحال إلا عن قصد وإرادة وكذلك لا يخبر عن نسيان سيكون في المستقبل إلا عن قصد وإرادة وهذا في النسيان بمعنى الترك عن قصد أما الذي بمعنى السهو فيكون بدون قصد ولا إرادة فلا يصح التعبير عنه بصيغة المضارع ولا الإخبار بإيقاعه

عليهم في المستقبل فصح أن كل نسيان نسب إلى الله فهو بمعنى الترك وكان قوله تعالى﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [19/59] مفسرا ومبينا لمعنى ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ [34/45]،ولقوله ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [14/32]، والعلم عند الله تعالى

﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: 20] دلت هذه الآية الكريمة على عدم استواء الفريقين أصحاب النار وأصحاب الجنة وهذا أمر معلوم بداهة ولكن جاء التنبية عليه لشدة غفلة الناس عنه ولظهور أعمال منهم تغاير هذه القضية البديهية كمن يسيء إلى أبيه فتقول له إنه أبوك قاله بعض المفسرين

وهذا في أسلوب البيان يراد به لازم الخبر أي يلزم من ذلك التنبيه أيعملوا ما يبعدهم عن النار ويجعلهم من أصحاب الجنة لينالوا الفوز

وهذا البيان قد جاءت نظائره عديدة في القرآن كقوله تعالى﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [28/38],

(58/8)

وكقوله ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾ [18/32]، أي في الحكم عند الله ولا في الواقع في الحياة أو في الآخرة كما قال تعالى﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [21/45]، وهنا كذلك ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [21/59]، في المرتبة والمنزلة والمصير

قال أبو حيان هذا بيان مقابلة الفريقين أصحاب النار في الجحيم وأصحاب الجنة في النعيم والآية عند جمهور المفسرين في بيان المقارنة بين الفريقين وهو ظاهر السياق بدليل ما فيها من قوله﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [20/59]، فهذا حكم على أحد الفريقين بالفوز ومفهومه الحكم على الفريق الثاني بالهلاك

والخسران ويشهد له أيضاما قبلها ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ [19/59]، أي من هذا الفريق فأنساهم أنفسهم فصاروا أصحاب النار على ما سيأتي بيانه إن شاء الله

وهنا احتمال آخر وهو لا يستوي أصحاب النار في النار ولا أصحاب الجنة في الجنة فيما هم فيه من منازل متفاوتة كما أشار إليه أبو حيان عند قوله تعالى ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ [34/41]، ولكن عدم وجود اللام هنا يجعله أضعف احتمالا وإلا لقال لا يستوي أصحاب النار ولا أصحاب الجنة وهذا المعنى وإن كان واقعا لتفاوت درجات أهل الجنة في الجنة ومنازل أهل النار في النار إلا أن احتماله هنا غير وارد لأن آخر الآية حكم على مجموع أحد الفريقين وهم أصحاب الجنة أي في مجموعهم كأنه في مثابة القول النار والجنة لا يستويان فأصحابهما كذلك

وقد نبه أبو السعود على تقديم أصحاب النار في الذكر على أصحاب الجنة بأنه ليبين لأول وهلة أن القصور جاء من جهتهم كما في قوله ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [16/13] اهـ.

وبيان ذلك أن الفرق بين المتفاوتين في الزيادة والنقص يمكن اعتبار التفاوت بالنسبة إلى النقص في الناقص ويمكن اعتباره بالنسبة إلى الزيادة في الزائد

فقدم الجانب الناقص ليبين أن التفاوت الذي حصل بينهما إنما هو بسبب النقص الذي جاء منهما لا بسبب الزيادة في الفريق الثاني والنتيجة في ذلك عدم إمكان جانب

النقص الاحتجاج على جانب الزيادة وفيه زيادة تأنيب لجانب النقص وفي الآية إجمال أصحاب النار وأصحاب الجنة

ومعلوم أن كلمة أصحاب تدل على الاختصاص فكأنه قال أهل النار وأهل الجنة المختصون بهما

وقد دل القرآن أن أصحاب النار هم الكفار كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [10/64].

والخلود لا خروج معه كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ – إلى قوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [165/2–167]، وكقوله في سورة الهمزة ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ [3/104–8]، أي مغلقة عليهم

أما أصحاب الجنة فهم المؤمنون كقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [13/46–14] وقد جمع القسمين في قوله تعالى ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [81/2].

كما جاء مثل هذا السياق كاملا متطابقا فيفسر بعضه بعضا كما قدمنا وذلك في سورة التوبة قال تعالى ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [67/9–68]

فهذه أقسام الكفر والنفاق وأخص أصحاب النار والاختصاص من الخلود فيها ولعنهم وهي حسبهم وهم الذين نسوا الله فنسيهم وهم عين من ذكر في هذه السورة سورة الحشر ثم جاء مقابلة تماما في نفس السياق في قوله تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ

(60/8)

مكتبة أحمد بن علي عليه السلام

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [9/71–72].

وهذه أيضا أخص صفات أهل الجنة من الرحمة والرضوان والخلود والإقامة الدائمة في جنات عدن إذ العدن الإقامة الدائمة ومنها المعدن لدوام إقامته في مكانه ورضوان من الله أكبر

ثم يأتي الختام في المقامين متحدا وهو الحكم بالفوز لأصحاب الجنة ففي آية التوبة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72] وفي آية "الحشر" ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [59/20]، وبهذا علم من هم أصحاب النار ومن هم أصحاب الجنة.

وتبين ارتباط هذه المقابلة بين هذين الفريقين وبين ما قبلهم ممن نسوا فأنساهم أنفسهم ومن اتقوا الله وقدموا لغدهم وبهذا يعلم أن عصاة المسلمين غير داخلين هنا في أصحاب النار لما قدمنا من أن أصحاب النار هم المختصون بها ممن كفروا بالله وكذبوا بآياته وكما يشهد لهذا قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [19/71–72]، والظالمون هنا هم المشركون في ظلمهم أنفسهم

وبهذا يرد على المعتزلة أخذهم من هذه الآية عدم دخول أصحاب الكبيرة الجنة على أنهم في زعمهم لو دخلوها لاستووا مع أصحاب الجنة

وهذا باطل كما قدمنا ومن ناحية أخرى يرد بها عليهم هي أن يقال إذا خلد العصاة في النار على زعمكم مع ما كان منهم من إيمان بالله وعمل صالح فماذا يكون الفرق بينهم وبين الكفار والمشركين وتقدم قوله تعالى ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [38/28].

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى عليه مسألة بقاء العصاة وخروجهم من النار وخلود الكفار فيها بحثا واسعا في دفع إيهام الاضطراب في سورة "الأنعام" فليرجع إليه

وقد استدل الشافعي رحمه الله بهذه الآية أن المسلم لا يقتل بالذمي ولا بكافر

لأنهما لا يستويان وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر ذكره الزمخشري

وهذا وإن كان حقا إلا أن أخذه من هذه الآية فيه نظر لأنها في معرض المقارنة للنهاية يوم القيامة

قوله تعالى ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: 21]، وقوله تعالى ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا ﴾ يدل على أنه لم ينزله وأنه ذكر على سبيل المثال ليتفكر الناس في أمره كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ [31/13]

قال الشيخ رحمة الله تعالى عليه عندها جواب ﴿ لو ﴾ محذوف

قال بعض العلماء تقديره لكان هذا القرآن إلخ اهـ

وقال ابن كثير يقول تعالى معظما لأمر القرآن ومبينا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ الآية [21/59] .

فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وقد تدبرتم كتابه ولهذا قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [21/59] .

وقد وجد لبعض الناس شيئًا من ذلك عن سماع آيات من القرآن من ذلك ما رواه ابن كثير في سورة الطور عن عمر رضي الله عنه قال خرج عمر رضي الله عنه يعس بالمدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائما يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ والطور حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ [52/7–8]، قال قسم ورب الكعبة حق فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث مليا ثم رجع إلى منزله فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه

وذكر القرطبي قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿ والطور ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب

وذكر في خبر مالك بن دينار أنه سمعها فجعل يضطرب حتى غشي عليه

وقد نقل السيوطي في الإتقان خبر مالك بن دينار بتمامه في فصل إعجاز القرآن

وقال قد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف وقد ينشأ هنا سؤال كيف يكون هذا تأثير القرآن لو أنزل على الجبال ولم تتأثر به القلوب وقد أجاب القرآن عن ذلك في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [74/2]، وكذلك أصموا آذانهم عن سماعه وغلفوا قلوبهم بالكفر عن فهمه وأوصدوها بأقفالها فقالوا ﴿ قلوبنا غلف ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [57/18]، أي بسبب الإعراض وعدم التدبر والنسيان ولذا قال تعالى عنهم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [24/47]، فهذه أسباب عدم تأثر الكفار بالقرآن كما قال الشاعر

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة . . . فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

ويفهم منه بمفهوم المخالفة أن المؤمنين تخشع قلوبهم وتلين جلودهم كما نص تعالى عليه بقوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [23/39]، وقوله تعالى ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا ﴾ يدل على أنه لم ينزله على جبل ولم يتصدع منه

وقد جاء في القرآن ما يدل عليه لو أنزله من ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنهَا﴾ [72/33] .

وهذا نص صريح لأن الجبال أشفقت من حمل الأمانة وهي أمانة التكليف بمقتضى

(63/8)

خطاب الله تعالى إياها

فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليهافكيف بها لو أنزل عليها وكلفت به

ومنها أن الله تعالى لما تجلى للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا

والقرآن كلام الله وصفة من صفاته فهو شاهد وإن لم يكن نصا

ومنها النص على أن بعض الجبال التي هي الحجارة ليهبط من خشية الله لقوله تعالى﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ﴾ [74/2] .

وقد جاء في السنة إثبات ما يشبه ذلك في جبل أحد حينما صعد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهما فارتجف بهم فقال صلى الله عليه وسلم "أثبت أحد فإن عليك نبي وصديق شهيدان"

وسواء كان ارتجافه إشفاقا أو إجلالا فدل هذا كله على أنه تعالى وإن لم ينزل القرآن على جبل أنه لو أنزله عليه لرأيته كما قال تعالى ﴿ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

وبهذا أيضا يتضح أن جواب لو في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [31/13] لكان هذا القرآن أرجح من تقديرهم لكفرتم بالرحمان لأن موضوع تسيير الجبال وخشوعها وتصديعها واحد وهو الذي قدمه الشيخ رحمة الله تعالى عليه هناك والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] .

"الأمثال" جمع مثل وهو ماخوذ من المثل وأصل المثل الانتصاب والممثل بوزن اسم المفعول المصور على مثال

غيره

قال الراغب الأصفهاني يقال مثل الشيء إذا انتصب وتصور ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "من أحب أن يمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار" والتمثال الشيء المصور وتمثل كذا تصور قال تعالى ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [17/19].

(64/8)

والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم الصيف ضيعت اللبن فإن هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الإمكان أمرك وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [21/59].

وفي آية أخرى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [43/29].

والمثال يقال على وجهين

أحدهما بمعنى المثل نحو مشبه ومشبه به قال بعضهم وقد يعبر بهما عن وصف الشيء نحو قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [35/13].

والثاني عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة

وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط

والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط

والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط

والشكل يقال فيما يشارك في القدر والمساحة فقط والمثل عام في جميع ذلك

ولهذا لما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

[11/42]...... إلخ اهـ.

فقوله في تعريف المثل إنه عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره

فإنهم اتفقوا على أن القول لا يتغير بل يحكي على ما قيل أولا كقولهم الصيف ضيعت اللبن بكسر التاء خطابا للمؤنثة

فلو قيل لرجل أهمل وقت الإمكان ثم راح يطلبه بعد فواته لقلت له الصيف ضيعت اللبن بكسر التاء على الحكاية.

(65/8)

وهذا مما يسمى الاستعارة التمثيلية من أبلغ الأساليب وأكثر ما في القرآن من أمثلة إنما هو من قبيل التشبيه التمثيلي وهو تشبيه صورة بصورة وهو من أوضح أساليب البيان

وقد ساق الشيخ رحمة الله تعالى عليه عددا منها في الجزء الرابع عند قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [54/18]، ومن أهم أغراض هذا النوع من التشبيه هو بيان صورة بصورة وجعل الخفي جليا والمعنوي محسوسا كقوله تعالى﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [14/13].

فلو نظرت إلى مثل هذا الشخص على هذه الحالة وفي تلك الصورة بكل أجزائها وهو باسط يده مفرجة الأصابع إلى ماء بعيد عنه وهو فاغر فاه ليشرب لقلت وأي جدوى تعود عليه ومتى يذوق الماء وهو على تلك الحالة يموت عطشا ولا يذوق منه قطرة

وكذلك حال من يدعو غير الله مع ما يدعوهم من دونه لا يحصل على طائل كقوله تعالى﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [41/29]، فأي غناء لإنسان في بيت العنكبوت

وكذلك أي غناء في ولاية غير الله فكذلك الحال هنا أريد بالأمثال صور يصور لانتزاع الحكم من السامع بعد أن تصبح الصورة محسوسة ملموسة وانظر قوله تعالى﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ [187/2]، وكيف غطى وأخفي في هذا الأسلوب ما يستحي منه وأبرزه بلباسه في التشبيه بما يتقي به ومدى مطابقة معنى اللباس لحاجة كل من الزوجين للآخر وتلك في قوله تعالى﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ [21/59]، عائدة إلى الأمثلة المتقدمة قريبا في عمل المنافقين مع اليهود ونتائج أعمالهم وهكذا كل موالاة بين غير المسلمين وكل معاداة وانصراف عما جاء به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم

وكذلك في بيان مدى فعالية القرآن وتأثيره لو أنزل على الجبال لخشعت وتصدعت مما يستوجب التفكير فيه والاتعاظ به ثم مثال الفريقين في قوله تعالى﴿ وَلَا

(66/8)

تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [19/59]، ونتيجة ذلك في الآخرة من عدم استواء الفريقين فأصحاب نار وأصحاب جنة

ولكأن الأمثال هنا والتنبيه عليها إشارة إلى أن أولئك بنسيانهم لله وإنسائه إياهم أنفسهم صاروا بهذا النسيان أشد قساوة من الجبال بل إن الجبال أسرع تأثرا بالقرآن منهم لو كانوا يتفكرون

وقد قال أبو السعود إنه أراد توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه اهـ

وهكذا بهذه الأمثلة ينتزع الحكم من السامع على أولئك المعرضين الغافلين بأن قلوبهم قاسية كالجبال أو أشد قسوة كما قدمنا بخلاف المؤمنين تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق كما قال تعالى﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [23/39].

قوله تعالى ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24].

جاءت في هذه الآيات الثلاث ذكر كلمة التوحيد مرتين كما ذكر فيها أيضا تسبيح الله مرتين وذكر معهما العديد من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا فكانت بذلك مشتملة على ثلاث قضايا أهم قضايا الأديان كلها مع جميع الأمم ورسلهم لأن دعوة الرسل كلها في توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وتنزيهه والرد على مفتريات الأمم على الله تعالى

فاليهود قالوا ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [30/9].

والنصارى قالوا ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [30/9].

والمشركون قالوا ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [26/21]، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [19/43]، وقالوا ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

(67/8)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

عُجَابٌ﴾ [5/38].

فكلهم ادعى الشريك مع الله وقالوا ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [73/5] وغير ذلك

وكذلك في قضية التنزيه فاليهود قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [181/3]، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [64/5].

والمشركون قالوا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ ، ونسبوا الله ما لا يرضاه أحدهم لنفسه وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا في الوقت الذي ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [58/16].

وهذا كما تراه أعظم افتراء على الله تعالى وقد سجله عليهم القرآن في قوله تعالى ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ

اللَّهُ وَلَداً ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ [4/18]، وكما قال تعالى ﴿ أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [151/37–152]، وقال مبينا جرم مقالتهم ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [88/19–92].

فكانت تلك الآيات الثلاث علاجا في الجملة لتلك القضايا الثلاث توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وتنزيه الله سبحانه وتعالى مع إقامة الأدلة عليها

وقد اجتمعت معا لأنه لا يتم أحدها إلا بالآخرين ليتم الكمال لله تعالى

قال أبو السعود إن الكمالات كلها مع كثرتها وتشعبها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم اهـ

وهذا كله متوفر في هذا السياق وقد بدأ بكلمة التوحيد لأنها الأصل لأن من آمن بالله وحده آمن بكل ما جاء عن الله وآمن بالله على ما هو له أهل ونزهه عما ليس له بأهل قال تعالى ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ثم أعقبه بالدليل على إفراده تعالى بالألوهية بما لا يشاركه غيره فيه بقوله تعالى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

وهذا الدليل نص عليه على أنه دليل لوحدانية الله تعالى في مواضع أخرى منها قوله

تعالى: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [98/20]، ووسع كل شيء هنا تساوى عالم الغيب والشهادة ومنها قوله تعالى ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [25/27]، وقوله تعالى ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ إلى قوله ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [255/2].

وهذا قطعا لا يشاركه فيه غيره كما قال تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [59/6]، فكان من

حقه على خلقه أن يعبدوه وحده لا إله إلا هو وجاء بدليل ثان وهو قوله تعالى﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [22/59]، وقد نص عليه صراحة أيضا كدليل على الوحدانية في قوله تعالى﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [163/2]، فهو رحمان الدنيا ورحيم الآخرة

ومن رحمته التي اختص بها في الدنيا قوله﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [28/42]، وقوله ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [50/30]، أي بإنزاله الغيث وإنبات النبات مما لا يقدر عليه إلا هو فكان حقه على خلقه أن يعبدوه وحده لا إله إلا هو.

وقد جمع الدليلين العلم والرحمة معا في قوله تعالى﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [7/40].

ثم جاءت كلمة التوحيد مرة أخرى﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وجاء بعدها من الصفات الجامعة قوله ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ وهذا الدليل على وحدانيته تعالى نص عليه في موضع آخر صريحا في قوله تعالى﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [158/7]، فالذي له ملك السماوات والأرض هو الملك الحق الكامل الملك وهو الذي يملك التصرف في ملكه كما يشاء بالإحياء والإماتة وحده كما قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [67/1–2]، وهو القدوس السلام المؤمن المهيمن على ملكه كما في قوله أيضا﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [255/2]، فالقيوم هو المهيمن والقائم بكل

نفس العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ثم جاء بالدليل الأعظم في قوله تعالى﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ فهو وحده المتفرد بالخلق والإيجاد والإبداع والتصوير وقد نص على هذا الدليل في أكثر من موضع كما في قوله تعالى﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ

بكل شيء عليم﴾ [101/6]، ثم قال ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾ [102/6] .

وذكر أيضا الخلق مفصلا والملك مجملا في قوله تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ [6/39]، ثم قال ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾ [6/39]، وقال ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ﴾ [62/40]، ثم قال ﴿ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ [62/35]، وجمع الملك والخلق معا في قوله ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ [/2/25]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى

ومن تأمل براهين القرآن على وحدانية الله تعالى وعلى قدرته على البعث وهما أهم القضايا العقائدية يجد أهمها وأوضحها وأكثرها هو هذا الدليل أعني دليل الخلق والتصوير

وقد جاء هذا الدليل في القرآن جملة وتفصيلا فمن الإجمال ما جاء في أصل المخلوقات جميعا﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [16/13]، وقوله تعالى ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ [1/67]، وقال ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ [82/36]، ثم قال ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ [83/36]، وقال ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة﴾ [1/67–2]، أي خالق الإيجاد والعدم وخلق العدم يساوي في الدلالة على القدرة خلق الإيجاد لأنه إذا لم يقدر على إعدام ما أوجد يكون الموجود مستعصيا عليه فيكون عجزا في الموجد له كمن يوجد اليوم سلاحا ولا يقدر على إعدامه وإبطال مفعوله فقد يكون سببا في إهلاكه ولا تكتمل القدرة حقا إلا بالخلق والإعدام معا وقال في خلق

السماوات والأرض ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [1/6]

وقال في خلق الأفلاك وتنظيمها ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [33/21]، ثم في أصول الموجودات في الأرض بقوله ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [29/2].

وفي أصول الأجناس الماء والنار والنبات والإنسان قال ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [56/58–59].

وذكر معه القدرة على الإعدام ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [56/60].

وفي أصول النبات ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [56/63–64].

وفي أصول الماء ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [56/68–69]

وفي أصول تطوير الحياة ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [56/71–72].

وفي جانب الحيوان ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [88/17].

ولهذا فقد تمدح تعالى بهذه الصفة صفة الخلق وصفة آلهة المشركين بالعجز كما قال تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [31/10]، ثم قال ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [31/11] ومعلوم أنها لم تخلق شيئاً كما قال تعالى موبخا لهم ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [7/191]، وبين أنهما لا يستويان في قوله ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [16/17]، ثم بين نهاية ضعفها وعجزها في قوله تعالى ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ

دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ﴾ [25/3]، وهذا غاية العجز كما ضرب لذلك المثل بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [22/73]، فهم حقا لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولو بقدر الذبابة وهكذا ترى صفة الخلق المتصف بها سبحانه وتعالى أعظم دليل على وحدانية الله تعالى وهي متضمنة صفة التصوير والعلم لأن لكل مخلوق صورة تخصه ولا يكون ذلك إلا عن علم بالغيب والشهادة كما تقدم

وهكذا أيضا لكن هذا الدليل أقوى الأدلة على البعث كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [36/77–83]، إلى آخر السورة

وكذلك في قوله تعالى صريحا في ذلك ونصا عليه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [22/5]، ثم قال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [22/6–7] .

ثم بين تعالى أن جاحد هذا الدليل إنما هو مكابر جاهل ضال مضل وذلك في قوله بعده مباشر ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [22/8–10] .

ومن هنا كان أول نداء في المصحف يوجه إلى الناس جميعا بعبادة الله كان لاستحقاقه عبادته وحده لأنه متصف بصفة الخلق كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً

والسماء بِناءً وَأَنزَلَ مِنَ السماء ماءً فَأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فلا تجعَلوا لِلَّهِ أَندَاً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [2/21-21]، أي لأنهم ليسوا له بأنداد فيما اتصف به سبحانه فلا تشركوهم مع الله في عبادته

فكانت هذه الصفات لله تعالى في آخر هذه السورة حقا أدلة على إثبات وحدانية الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأنه المستحق لأن يعبد وحده لا إله إلا هو

والواجب على الخلق تنزيهه عما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنها من مخلوقاته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، وقوله تعالى ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنَى﴾ [20/8]،لم يبين هنا المراد من أنه سبحانه له الأسماء الحسنى وقد بين في سورة الأعراف المراد بذلك في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِها﴾ [7/180] .

قال القرطبي سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده وإفضاله ومجيء قوله تعالى﴿ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنَى﴾ بعد تعداد أربعة عشر اسما من أسمائه سبحانه يدل على أن له أكثر من ذلك ولم يأت حصرها ولا عدها في آية من كتاب الله

وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال"إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر"

وسرد ابن كثير عدد المائة مع اختلاف في الروايات

وذكر عن آية الأعراف أنها ليست محصورة في هذا العدد لحديث ابن مسعود في مسند أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال" ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه" الحديث اهـ.

ومحل الشاهد منه ظاهر في أن لله أسماء أنزلها في كتبه وأسماء خص بها بعض خلقه كما خص الخضر بعلم من لدنه وأسماء استأثر بها في علم الغيب عنده كما يدل

(73/8)

حديث الشفاعة "فيلهمني ربي بمحامد لم أكن أعرفها من قبل" والواقع أنه لا تعارض بين الحديثين

لأن الأول يتعلق بعدد معين وبما يترتب عليها من الجزاء

والحديث الثاني يتعلق ببيان أقسام أسمائه تعالى من حيث العلم بها وتعليمها وما أنزل منها

وقد ذكر هذا الجمع ابن حجر في الفتح في كتاب الدعوات عند باب لله مائة اسم غير واحد

وقد حاول بعض العلماء استخراج المائة اسم من القرآن فزادوا ونقصوا لاعتبارات مختلفة وقد أطال في الفتح بحث هذا الموضوع في أربع عشرة صحيفة مما لا غنى عنه ولا يمكن نقله ولا يصلح تلخيصه

وقد ذكر من أفردها بالتأليف

كما أن القرطبي ذكر أنه ألف فيها وأساس البحث يدور على نقطتين

الأولى تعيين المائة اسم المرادة

والثانية معنى أحصاها وفي رواية حفظها

وقد حضرت مجلسا للشيخ رحمة الله تعالى عليه في بيته مع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وسأله عن الصحيح في ذلك فكان حاصل ما ذكر في ذلك المجلس أن التعيين لم يأت فيه نص صحيح وأن الإحصاء أو الحفظ لا ينبغي حمله على مجرد الحفظ للألفاظ غيبا ولكن يحمل على أحصى معانيها وحفظها من التحريف فيها والتبديل والتعطيل وحاول التخلق بحسن صفاتها كالحلم والعفو والرأفة والرحمة والكرم ونحو ذلك والحذر من مثل الجبار والقهار ومراقبة مثل الحسيب الرقيب وكذلك التعرض لمثل التواب والغفور بالتوبة وطلب المغفرة والهادي والرزاق بطلب الهداية والرزق ونحو ذلك

ونقل القرطبي عن ابن العربي عند قوله تعالى ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [180/7]، أي اطلبوا منه بأسمائه فيطلب بكل اسم ما يليق به تقول يا رحمان ارحمني يا رزاق

(74/8)

ارزقني يا هادي اهدني يا تواب تب علي وهكذا رتب دعاءك تكن من المخلصين ا هـ

مسألة:

يؤخذ من كلام ابن العربي هذا ما يقوله الفقهاء في ذكر اسم الله عند الذبح أن يقتصر على قوله بسم الله ولا يقول الرحمان الرحيم لأن اسم الرحمان الرحيم يقتضي الرحمة وهي لا يتناسب معها الذبح ورسول الروح

ويؤيد هذا ما ذكره ابن قدامة أنه ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذبح قال"بسم الله والله أكبر" أي أكبر وأقدرك عليها وهو أكبر منك عليك منها

فإذا فقه الإنسان أسماء الله الحسنى على هذا النحو كان حقا قد أحصاها وحفظها في استعمالها في معانيها فكان حقا من أهل الجنة والعلم عند الله تعالى

ولقد استوقفني طويلا مجيء هذه الآيات في نهاية هذه السورة تذييلا لها وختاما بأسلوب الإجمال والتفصيل لقضايا التوحيد وإقامة الدليل وإلزام أهل الإلحاد والتعطيل فمكثت طويلا أتطلب ربطها بما قبلها فلم أجد في كل ما عثرت عليه من التفسير أكثر من شرح المفردات وإيراد بعض التنبيهات مما لا ينفذ إلى أعماق الموضوع ولا يشفي عليلا في مجتمعاتنا الحديثة أو يذهب شبه المدنية المادية فرجعت إلى السورة بكاملها أتأمل موضوعها فإذا بها تبدأ أولا بتسبيح العوالم كلها لله العزيز الحكيم وهذا أمر فوق مستوى الإدراك الإنساني ثم تسوق أعظم حدث تشهده المدينة بعد الهجرة من إخراج اليهود ولم يكن مظنونا إخراجهم فأتاهم الله حيث لم يحتسبوا فكانوا موضع العبرة والموعظة

ثم تأتي لموقف فريقين متقابلين فريق المؤمنين والكافرين

يتمثل الفريق الأول في المهاجرين والأنصار وما كانوا عليه من أخوة ومودة ورحمة وعطاء وإيثار على النفس ويتمثل الفريق الآخر في المنافقين واليهود وما كان بينهم من مواعدة وإغراء وتحريض ثم تخل عنهم وخذلان لهم.

(75/8)

فكان في ذلك تصوير لحزبين متقابلين متناقضين حزب الرحمان وحزب الشيطان وهي صورة المجتمع في المدينة آنذاك

ثم تأتي إلى مقارنة أخرى بين نتائج هذين الحزبين ومنتهاهما وعدم استوائهما وفي ذلك تقريرا لمصير﴿ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [20/59] .

وهذه أخطر قضية في كل أمة أي تقرير مصيرها ثم بيان حقيقة تأثير القرآن وفعاليته في المخلوقات ولو كانت جبلا أشم أو حجرا أصم لو أنزل عليه لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فإذا بها قد اشتملت على موضوع الخلق والخالق والأمة والرسالة والبدء والنهاية وصراع الحق مع الباطل والكفر والإيمان والنفوس في الشح والإحسان وكلها مواقف عملية ومناهج واقعية وأمثلة بيانية

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

فإذا ما توجه الفكر في هذا العرض وتنقل من موقف إلى موقف وتأمل صنع الله وقدرته وآياته نطق بتسبيحه وعلم أنه سبحانه هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة علم ما سيكون عليه العالم قبل وجوده فأوجده على مقتضى علمه به وسيره على النحو الذي أوجده عليه علم خذلان المنافقين لليهود قبل أن يحرضوهم فكان كما علم سبحانه وحذر من مشابهتهم وعلم أنه لو أنزل القرآن على جبل ماذا يكون حاله فحث العباد بالأخذ به ولعلمه هذا بالغيب والشهادة كان حقا هو الله وحده

ثم مرة أخرى ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ ،

برهان آخر في صور متعددة وبراهين متنوعة على وحدانيته سبحانه الملك القدوس الملك المهيمن على ملكه القدوس المسلم من كل نقص المسيطر على ما في ملكه كله لا يعزب عنه مثقال ذرة كما قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1/67] .

وهنا وقفة لتأمل اجتماع تلك الصفات معا عالم الغيب والشهادة والملك القدوس والسلام المهيمن فنجدها مترابطة متلازمة لأن العالم إذا لم يملك التصرف ولم يهن على شيء فلا فعالية لعلمه .

(76/8)

والملك الذي لا يعلم ولم يتقدس عن النقص لا هيمنة له على ملكه

فإذا اجتمع كل ذلك وتلك الصفات العلم والملك والتقديس والهيمنة حصل الكمال والجلال ولا يكون ذلك إلا لله وحده العزيز الجبار المتكبر ولا يشركه أحد في شيء من ذلك سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وهنا في نهاية هذا السياق يقف المؤمن وقفة إجلال وتعظيم لله فالخالق هو المقدر قبل الإيجاد

و ﴿ الْبَارِئُ ﴾ الموجد من العدم على مقتضى الخلق والتقدير وليس كل مقدر شيئا أوجده إلا الله

و ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ المشكل لكل موجود على الصورة التي أوجده عليها ولم يفرد كل فرد من موجوداته على صورة تختص به إلا الله سبحانه وتعالى كما هو موجود في خلق الله للإنسان والحيوان والنبات كل في صورة تخصه

وبالرجوع مرة أخرى إلى أول السياق فإن الخلق والتقدير لا بد أن يكون بموجب العلم سواء كان في الحاضر المشاهد أو للمستقبل الغائب وهذا لا يكون إلا لله وحده عالم الغيب والشهادة فكان تقديره بموجب علمه والملك القدوس القادر على التصرف في ملكه يوجد ما يقدره

و ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ : يسير ما يوجده على مقتضى ما يقدره

والذي قدر فهدى العزيز الذي لا يقهر الجبار الذي يقهر كل شيء لإرادته وتقديره ويخضعه لهيمنته ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي لا يتطاول لكبريائه مخلوق وأكبر من أن يشاركه غيره في صفاته تكبر عن أن يماثله غيره أو يشاركه أحد فيما اختص به سبحان الله عما يشركون

وفي نهاية السياق إقامة البرهان الملزم وانتزاع الاعتراف والتسليم ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ ، وهو أعظم دليل كما تقدم وهو كما قال دليل الإلزام لأن الخلق لا بد لهم من خالق وهذه قضية منطقية مسلمة وهي أن كل موجود لا بد له من موجد وقد ألزمهم في قوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [35/52] ، وهذا بالسير والتقسيم أن يقال إما خلقوا من غير شيء خلقهم أي من العدم ومعلوم أن

(77/8)

العدم لا يخلق شيئًا لأن فاقد الشيء لا يعطيه والعدم ليس أمرا وجوديا حتى يمكن له أن يوجد موجودا أم هم الخالقون ؟

وهم أيضا يعلمون من أنفسهم أنهم لم يخلقوا أنفسهم فيبقى المخلوق لا بد له من خالق وهو الله تعالى الخالق البارىء

ولو قيل من جانب المنكر إن ما نشاهده من وجود الموجود كالإنسان والحيوان والنبات يتوقف وجوده على أسباب نشاهدها كالأبوين للحيوان وللحرث والسقي للنبات إلخ قوله تعالى ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ فهل الأبوان يملكان تصوير الجنين من جنس الذكورة أو الأنوثة أو من جنس اللون والطول والقصر والشبه

الجواب لا وكلا بل ذلك لله وحده هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء كما قال تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [42/49–50] .

وكذلك في النبات توضع الحبة وتسقى بالماء فالتربة واحدة والماء واحد فمن الذي يصور شكل النبات هذا

نجم على وجه الأرض وذاك نبت على ساق وهذا كرم على عرش وذاك نخل باسقات فإذا طلعت الثمرة في أول طورها فمن الذي يصورها في شكلها من استدارتها أو استطالتها أو غير ذلك وإذا تطورت إلى النضج فمن الذي صورها في لونها الأحمر أو الأصفر أو الأسود أو الأخضر أو الأبيض هل هي التربة أو الماء أو هما معا لا وكلا إنه هو الله الخالق البارىء المصور سبحانه له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض طوعا وكرها

وهنا عود على بدء يختم السورة بما بدأت به مع بيان موجباته واستحقاقه وآيات وحدانيته سبحانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

(78/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾

نهى تعالى المؤمنين عن اتخاذ العدو المشترك أولياء ولفظ العدو مفرد ويطلق على الفرد والجماعة

ومن إطلاقه على الفرد قوله تعالى﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [117/20]، يعني بالعدو إبليس

ومن إطلاقه على الجمع قوله تعالى﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [50/18]، والمراد هنا الجمع لما في السياق من القرائن منها قوله﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ بالجمع ومنها ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ ، وهو ضمير جمع ومنها ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا ﴾ بواو الجمع ومنها ﴿يُخْرِجُونَ﴾ أيضا بالجمع وقوله بعدها ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا﴾ [2/60]، وكلها بضمائر الجمع

أما العدو المراد هنا فقد عم وخص في وصفه فوصفه أولا بقوله﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ ، وخص بوصفه ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ والوصف بالكفر يشمل الجميع فيكون ذكرهما معا للتأكيد والاهتمام بالخاص كقوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ [98/2]، نفي ذكر الخاص هنا وهو وصف العدو بإخراج الرسول والمؤمنين للتهييج على من أخرجوهم من ديارهم كقوله﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [191/2] .

وقد بين تعالى المراد بالذين أخرجوا الرسول والمؤمنين في عدة مواضع منها قوله تعالى﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [13/47]، أي مكة ومنها قوله ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾

(79/8)

[40/9] .

فعليه يكون المراد ب﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ هنا خصوص المشركين بمكة

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وقصة الرسالة مع الظعينة لأهل مكة قبل الفتح بإخبارهم بتجهز المسلمين إليهم مما يؤيد المراد بالعدو هنا ولكن وإن كانت بصورة السبب قطعية الدخول إلا أن عموم اللفظ لا يهمل فقوله﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ وقوله ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يشمل كل من كفر بما جاءنا من الحق كاليهود والنصارى والمنافقين ومن تجدد من الطوائف الحديثة

وقد جاء النص على كل طائفة مستقلة ففي سورة"المجادلة" عن المنافقين قوله تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ﴾ [14/58] . وتكلم عليها الشيخ رحمة الله تعالى عليه وعن اليهود في سورة"الحشر" كما تقدم وعن اليهود والنصارى معا قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾ [51/5] .

ومن الطوائف المحدثة كل من كفر بما جاءنا من الحق من شيوعية وغيرهم وكالهندوكية والبوذية وغيرهم ومما يتبع هذا العموم ما جاء في قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ [5/57–58] .

فكل من هزىء بشيء من الدين أو اتخذه لعبا ولهوا فإنه يخشى عليه من تناول هذه الآية إياه

تنبيه

ذكر المقابلة هنا بين ﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فيه إبراز صورة الحال وتقبيح الفعل لأن العداوة تتنافى مع الموالاة والمسارة للعدو بالمودة وقد ناقش بعض المفسرين قضية التقديم والتأخير في تقديم عدوي أولا وعطف عدوكم عليه فقال الفخر الرازي التقديم لأن عداوة العبد لله بدون علة وعداوة العبد للعبد لعلة وما كان بدون علة فهو مقدم على

(80/8)

ما كان بعلة اهـ.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن التقديم لغرض شرعي وبلاغي وهو أن عداوة العبد لله هي الأصل وهي أشد قبحا فلذا قدمت وقبحها في أنهم عبدوا غير خالقهم وشكروا غير رازقهم وكذبوا رسل ربهم وآذوهم وقد جاء في الأحاديث القدسية ما يستأنس به في ذلك فيما رواه البيهقي والحاكم عن معاذ والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء ما نصه"إني والجن والإنس في نبإ عظيم أخلق ويعبد غيري أرزق ويشكر غيري" وفيه "خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد أتحبب إليهم بالنعم ويتبغضون إلي بالمعاصي"كما أن تقديمه يؤكد بأنه هو السبب في العداوة بين المؤمنين والكافرين وما كان سببا فحقه التقديم

ويدل على ما ذكرنا من أنه الأصل أن الكفار لو آمنوا بالله وانتفت عداوتهم لله لأصبحوا إخوانا للمؤمنين

وانتفت العداوة بينهما وكذا كونه مغيا بغاية في قوله تعالى﴿ فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [89/4]، ومثله قوله تعالى في قوم إبراهيم﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [4/60]، فإذا هاجر المشركون وآمن الكافرون انتفت العداوة وجاءت الموالاة

ومما قدمنا من أن سبب النهي عن موالاة الأعداء هو الكفر يعلم أنه إذا وجدت عداوة لا لسبب الكفر فلا ينهى عن تلك الموالاة لتخلف العلة الأساسية كما جاء في قوله تعالى﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [14/64]، ثم قال تعالى ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [14/64].

فلما تخلف السبب الأساسي في النهي عن موالاة العدو الذي هو الكفر جاء الحث على العفو والصفح والغفران لأن هذه العداوة لسبب آخر هو ما بينه قوله تعالى﴿ إِنَّما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [15/64] ،فكان مقتضاها فقط الحذر من أن يفتنوه وكان مقتضى الزوجية حسن العشرة كما هو معلوم وسيأتي زيادة إيضاح لهذه المسألة عند هذه الآية إن شاء الله تعالى

وقد نص صراحة على عدم النهي المذكور في خصوص من لم يعادوهم في الدين في قوله تعالى﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ

(81/8)

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [8/60].

وللموالاة أحكام عامة وخاصة وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى عليه في عدة مواضع من الأضواء منها في الجزء الثاني عند قوله تعالى﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [51/5]، وقد أطال البحث فيها ومنها في الجزء الثالث عرضا ضمن قوله تعالى﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [9/17] وبين روابط العالم الإسلامي بتوسع.

ومنها في الجزء الرابع عند قوله تعالى﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ ﴾ [50/18]،الآية.

ومنها في مخطوط السابع عند قولهتعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [13/47]، وأحال فيها على آية الممتحنة هذه

ومنها أيضا عند قوله تعالى﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ [26/47]، وأحال عندها على مواضع متقدمة من سورة"الشورى" و"بني إسرائيل".

ومنها في سورة المجادلة على قوله تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [14/58].

وفيما كتبه رحمة الله تعالى عليه بيان لكل جوانب أحكام هذه الآية غير أني لم أجده رحمة الله تعالى عليه تعرض لما في هذه السورة من خصوص التخصيص للآية بقوله تعالى﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ [8/60].

ولم أسمع منه رحمة الله تعالى عليه فيها شيئًا مع أنها نص في تخصيص العموم من هذه الآية وسيأتي لها بيان لذلك عندها إن شاء الله

تنبيه

رد أهل السنة بهذه الآية وأمثالها على المعتزلة قولهم إن المعصية تنافي الإيمان؛

(82/8)

لأن الله ناداهم بوصف الإيمان مع قوله﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ، فلم يخرجهم بضلالهم عن عموم إيمانهم ويشهد لهذا أن الضلال هنا عن سواء السبيل لا مطلق السبيل قوله تعالى﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: 2]

﴿ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أي يدركوكم وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله والرمح المثقف المقوم

قال الراغب ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة قال تعالى﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾

[191/2]،وقال ﴿ فَإِما تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [57/8]، اهـ.

فهذه نصوص القرآن في أن الثقافة بمعنى الإدراك وقوله تعالى﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ الآية، نص على أن العداوة وبسط اليد واللسان بالسوء يكون بعد أن يثقفوهم مع أن العداء سابق بإخراجهم إياهم من ديارهم فيكون هذا من باب التهييج وشدة التحذير وأن الذي يكون بعد الشرط هو بسط الأيدي بالسوء لأنهم الآن لا يقدرون عليهم بسبب الهجرة ومن أدلة القرآن على وجود العداوة بالفعل لدى عموم من دون المؤمنين في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [118/3]، فقوله ﴿ مِنْ دُونِكُمْ﴾ يشمل المشركين والمنافقين وأهل الكتاب وقوله ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي في الحاضر وقوله ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ لم يتوقف على الشرط المذكور في﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ فهم أعداء وقد بدت منهم البغضاء قولا وفعلا.

وعلى هذا تكون الآية إعلان المقاطعة بين المؤمنين ومن دونهم وقوله﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ قد بين تعالى سبب ذلك بأنه الحسد كما في قوله تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [109/2]

وقال تعالى ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ إلى –قوله–

(83/8)

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [88/4–89]

قوله تعالى ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ الأرحام تستعمل في القرآن لعموم القرابة كقوله تعالى﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [75/8]، وقوله تعالى ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي بتقطع الأنساب بينهم كما بينه تعالى بقوله﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾

[101/23].

وقد بين تعالى نتيجة هذا الفصل بينهم يوم القيامة في قوله تعالى﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [80/34–37] وقوله في موضع آخر ﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [70/12–13] فعمت جميع الأقارب وبينت سبب الفصل بينهم وما يترتب عليه

وهذه الآية خطاب للمؤمنين في ذوي أرحامهم من المشركين كما في قصة سبب النزول في أمر حاطب بن أبي بلتعة في إرساله الخطاب لأهل مكة قبيل الفتح بأمر التجهز لهم

ومفهوم الوصف في أول السياق﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يدل بمفهوم المخالفة أن أولى الأرحام من المؤمنين قد لا يفصل بينهم يوم القيامة

ويدل لهذا المفهوم قوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [52/21]، وقوله تعالى في دعاء الملائكة من حملة العرش للمؤمنين﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [40/8].

وهذه الآية بيان واضح في أن روابط الدين أقوى وألزم من روابط النسب

وهذا المعنى بالذات تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه الكلام عليه عند قوله تعالى﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [17/9]، والآية الآتية يلي واضح لحقيقة هذا المعنى وشموله في جميع الأمم.

(84/8)

قوله تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: 4]

الأسوة كالقدوة وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنة أو قبيحة ولذا قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [21/33] . وهنا أيضا ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [4/60] .

وقد بين تعالى هذا التأسي المطلوب وذلك بقوله ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية

فالتأسي هنا في ثلاثة أمور:

أولا: التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله

ثانيا: الكفر بهم.

ثالثا: إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبدا إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم وزيادة عليها إبداء العداوة والبغضاء أبدا والسبب في ذلك هو الكفر فإذا آمنوا بالله وحده انتفي كل ذلك بينهم

وهنا سؤال هو موضع الأسوة ﴿إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ بدليل العطف بينهما.

وقوله تعالى ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ فقائل القول لقومهم إبراهيم والذين مع إبراهيم وهذا محل التأسي بهم فيما قالوه لقومهم

وقوله تعالى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فهذا القول من إبراهيم ليس موضع التأسي وموضع التأسي المطلوب في إبراهيم عليه السلام هو ما قاله مع قومه المتقدم جملة وما فصله تعالى في موضع آخر في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [26/43–27]، وهذا التبرؤ جعله باقيا في عقبه كما قال تعالى ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [28/43] .

وقوله تعالى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ الآية، لم يبين هنا سبب هذا

(85/8)

الاستثناء وهل هو خاص بإبراهيم لأبيه أم لماذا ؟

وقد بينه تعالى في موضع آخر في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [114/9]، تلك الموعدة التي كانت له عليه في بادىء دعوته حينما قال له أبوه ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [46/19–47]، فكان قد وعده ووفى بعهده فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فكان محل التأسي في إبراهيم في هذا التبرؤ من أبيه لما تبين له أنه عدو لله

وقد جاء ما يدل على أنها قضية عامة وليست خاصة في إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [113/9]، وفي هذه الآية وما قبلها أقوى دليل على أن دين الإسلام ليست فيه تبعية أحد لأحد بل كل نفس بما كسبت رهينة ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ .

ومن عجب أن يأتي نظير موقف إبراهيم من أبيه مواقف مماثلة في أمم متعددة منها موقف نوح عليه السلام من ابنه لما قال ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [45/11] فلما تبين له أمره أيضا من قوله تعالى ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [46/11] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ الآية [47/11]، فكان موقف نوح من ولده كموقف إبراهيم من أبيه

ومنها موقف نوح ولوط من أزواجهما في قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ الآية [10/66] .

ومنها موقف زوجة فرعون من فرعون في قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [11/66]، فتبرأت الزوجة من زوجها وهذا التأسي قد بين تمام البيان معنى قوله تعالى ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ [3/60]، أي ولا آباؤكم ولا أحد من أقربائكم يوم القيامة يفصل بينكم وقول إبراهيم لأبيه ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ

مِنْ شَيْءٍ ﴾

بينه ما قدمنا من أن الإسلام ليس فيه تبعية وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وكل نفس بما كسبت رهينة

وقوله ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾

[158/6]، وقوله ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [19/82] .

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى عليه محاضرة في "كنو بنيجيريا" في مجتمع فيه من يتعلق ببعض الأشخاص في اعتقاداتهم فعرض هذا الموضوع وبين عدم استطاعة أحد نفع أحد فكان لها وقع عظيم الأثر في النفوس ولعل الله ييسر طبعها مع طبع جميع محاضراته في تلك الرحلة الميمونة

مسألة

جعل بعض المفسرين هذه الآية دليلا على أن شرع من قبلنا شرع لنا بدليل التأسي بإبراهيم عليه السلام والذين معه وتحقيق هذه المسألة في كتب الأصول وهذه الآية وإن كانت دالة في الجملة على أن شرع من قبلنا شرع لنا إلا أنها ليست نصا في محل النزاع.

وقد قسم الشيخ رحمة الله تعالى عليه حكم المسألة إلى ثلاثة أقسام

قسم هو شرع لنا قطعا وهو ما جاء في شرعنا أنه شرع لنا كآية الرجم وكهذه الآية في العداوة والموالاة

وإما ليس بشرع لنا قطعا كتحريم العمل يوم السبت وتحريم بعض الشحوم إلخ.

وقسم ثالث: وهو محل النزاع وهو ما ذكر لنا في القرآن ولم نؤمر به ولم ننه عنه

فالجمهور على أنه شرع لنا لذكره لنا لأنه لو لم يكن شرعا لنا لما كان لذكره لنا فائدة واستدلوا بقوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [13/42]، وبهذه الآية أيضا والشافعي يعارض في هذا القسم ويقول الآية في العقائد لا في الفروع ويستدل بقوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [48/5]، هذا التقسيم

المذكور فالآية ليست نصا في محل النزاع لأننا أمرنا بالتأسي به في معين جاء في شرعنا الأمر به في أول السورة

تنبيه

يظهر لي في هذه المسألة والله تعالى أعلم أن الخلاف بين الشافعي والجمهور يكاد يكون شكليا كل محجوج بما حج به الآخر وذلك كالآتي:

أولا: قوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ يدل على وجود شرعة وعلى وجود منهاج فإذا جئنا لاستدلال الجمهور ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ لم نجد فيه ذكر المنهاج ونجد واقع التشريع أن منهاج ما شرع لنا يغاير منهاج ما شرع لمن قبلنا كما في مشروعية الصيام قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [183/2]، وهذا يتفق في أصل الشرعة ولكن جاء ما يبين الاختلاف في المنهاج في قوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [187/2]، ومعنى ذلك أنه كان محرما وهو ضمن منهاج من قبلنا وشرعتهم فاتفقنا معهم في الشرعة واختلف منهجنا عن منهجهم بإحلال ما كان منه حراما وهذا ملزم للجمهور وهكذا بقية أركان الإسلام في الصلاة فهي مشروعة للجميع كما في قوله تعالى ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [125/2]، وقوله ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [37/14]، وقوله عن عيسى ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ [31/19] وغير ذلك

وفي الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [97/3]، وقوله ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ الآية[27/22]، فجميع الأركان وهي فروع لا عقائد مشروعة في جميع الأديان على جميع الأمم فاشتركنا معهم في المشروعية ولكن هل كانت كلها كمنهجها عندنا في أوقاتها وأعدادها وكيفياتها لقد وجدنا المغايرة في الصوم واضحة وهكذا في غيرها فالشرعة عامة للجميع والمنهاج خاص كما يقول الشافعي والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: 6]

(88/8)

إعادة هذه الآية تأكيد على معنى الآية الأولى

وقوله ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ يفسره ما تقدم من قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ [1/60]، لأنها تساويها في الماصدق وهنا جاء بهذا اللفظ ليدل على العموم وتكون قضية عامة فيما بعد لكل من يرجو الله واليوم الآخر أن يتأسى بإبراهيم عليه السلام والذين معه في موقفهم المتقدم

وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ التولي هنا الإعراض عن أوامر الله عموما.

وهنا يحتمل تولي الكفار وموالاتهم فإن الله غني عنه حميد

قال ابن عباس كمل في غناه ومثله قوله تعالى ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ [6/64].

وقد جاء بيان استغناء الله عن طاعة الطائعين عموما وخصوصا فجاء في خصوص الحج ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [97/3].

وجاء في العموم قوله تعالى ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [8/14]، لأن أعمال العباد لأنفسهم كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [6/29].

وكما في الحديث القدسي "لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا"

وقد بين تعالى غناه المطلق بقوله ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [26/31].

قوله تعالى ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7] . لم يبين هنا هل جعل المودة بالفعل بينهم وبين من عادوهم وأمروا بمقاطعتهم وعدم موالاتهم من ذوي أرحامهم أم لا ولكن عسى من الله للتأكيد والتذييل بقوله تعالى:

(89/8)

﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ يشعر بأنه فاعل ذلك لهم وقد جاء ما يدل على أنه فعله فعلا في سورة النصر حين دخل الناس في دين الله أفواجا وقد فتح الله عليهم مكة وكانوا طلقاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك موقف أبي سفيان وغيره وعام الوفود إلى المدينة بعد الفتح وفي التذييل بأن الله قدير يشعر بأن تأليف القلوب ومودتها إنما هو من قدرة الله تعالى وحده كما بينه قوله تعالى﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [63/8] .

لأن المودة المتوقعة بسبب هداية الكفار والهداية منحة من الله﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8] ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 9]

اعتبر بعض المفسرين الآية الأولى رخصة من الآية في أول السورة ولكن في هاتين الآيتين صنفان من الأعداء وقسمان من المعاملة

الصنف الأول عدو لم يقاتلوا المسلمين في دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم فهؤلاء تعالى في حقهم﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾

والصنف الثاني قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم وهؤلاء يقول تعالى فيهم ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾

.

إذا فهما قسمان مختلفان وحكمان متغايران وإن كان القسمان لم يخرجا عن عموم﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ المتقدم في أول السورة وقد اعتبر بعض المفسرين الآية الأولى رخصة بعد النهي المتقدم ثم إنها نسخت بآية السيف أو غيرها على ما سيأتي.

واعتبر الآية الثانية تأكيدا للنهي الأول وناقش بعض المفسرين دعوى النسخ في الأولى واختلفوا فيمن نزلت ومن المقصود منها والواقع أن الآيتين تقسيم لعموم العدو المتقدم في قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [60/1]، مع بيان كل قسم وحكمه كما تدل له قرائن في الآية الأولى وقرائن في هاتين الآيتين على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

أما التقسيم فقسمان قسم مسالم لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم،

فلم ينه الله المسلمين عن برهم والإقساط إليهم وقسم غير مسالم يقاتل المسلمين ويخرجهم من ديارهم ويظاهر على إخراجهم فنهى الله المسلمين عن موالاتهم وفرق بين الإذن بالبر والقسط وبين النهي عن الموالاة والمودة ويشهد لهذا التقسيم ما في الآية الأولى من قرائن وهي عموم الوصف بالكفر وخصوص الوصف بإخراج الرسول وإياكم.

ومعلوم أن إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين من ديارهم كان نتيجة لقتالهم وإيذائهم فهذا القسم هو المعني بالنهي عن موالاته لموقفه المعادي لأن المعاداة تنافي الموالاة

ولذا عقب عليه بقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ، فأي ظلم بعد موالاة الفرد لأعداء أمته وأعداء الله ورسوله.

أما القسم العام وهم الذين كفروا بما جاءهم من الحق لكنهم لم يعادوا المسلمين في دينهم لا بقتال ولا بإخراج ولا

بمعاونة غيرهم عليهم ولا ظاهروا على إخراجهم فهؤلاء من جانب ليسوا محلا للموالاة لكفرهم وليس منهم ما يمنع برهم والإقساط إليهم.

وعلى هذا فإن الآية الثانية ليس فيها جديد بحث بعد البحث المتقدم في أول السورة وبقي البحث في الآية الأولى ومن جانبين الأول بيان من المعنى بها والثاني بيان حكمها هل هي محكمة أم نسخت.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في الأمرين ولأهمية هذا المبحث وحاجة الأمة إليه في كل وقت وأشد ما تكون في هذا العصر لقوة تشابك مصالح العالم وعمق تداخلها وترابط بعضه ببعض في جميع المجالات وعدم انفكاك دولة عن أخرى مما يزيد من وجوب الاهتمام بهذا الموضوع.

وإني مستعين الله في إيراد ما قيل فيها ثم مقدم ما يمكن أخذه من مجموع أقوال المفسرين وكلام الشيخ رحمة الله عليه.

القول الأول إنها منسوخة قال القرطبي عن أبي زيد أنها كانت في أول الإسلام زمن الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخت قيل بآية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [5/9]، قاله قتادة.

(91/8)

وقيل كانت في أهل الصلح فلما زال زال حكمها وانتهى العمل بها بعد فتح مكة

وقيل هي من أصحاب العهد حتى ينتهي عهدهم أو ينبذ إليهم أي أنها كانت مؤقتة بوقت ومرتبطة بقوم

وقيل إنها كانت في العاجزين عن القتال من النساء والصبيان من المشركين

وقيل إنها في ضعفة المؤمنين عن الهجرة حينما كانت الهجرة واجبة فلم يستطيعوا وعلى كل هذه الأقوال تكون قد نسخت بفوات وقتها وذهاب من عني بها.

والقول الثاني: إنها محكمة قاله أيضا القرطبي ونقله عن أكثر أهل التأويل ونقل مرأدلتهم أنها نزلت في أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما جاءت إليها وهي لم تسلم بعد وكان بعد الهجرة وجاءت لابنتها بهدايا فأبت

أن تقبلها منها وأن تستقبلها حتى تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها وأمرها بصلتها وعزاه للبخاري ومسلم.

وقال غيره ذكره البخاري في تاريخه وذكر عن الماوردي أن قدومها كان في وقت الهدنة ومعلوم أن وقت الهدنة من القسم الأول الذي قيل إنه منسوخ أي بانتهائها وعليه فالآية دائرة عند المفسرين بين الإحكام والنسخ وإذا رجعنا إلى سبب نزول السورة وتقيدنا بصورة السبب نجد أولها نزل بعد انتهاء العهد بنقض المشركين إياه وعند تهيىء المسلمين لفتح مكة ومجيء أم أسماء وإن كان بعد الهدنة فهل كان النساء داخلات في العهد أم لا لعدم التصريح بذكرهن.

وعليه فلا دلالة في قصة أم أسماء على عدم النسخ ولا على إثباته

وإذا رجعنا إلى عموم اللفظ نجد الآية صريحة شاملة لكل من لم يناصب المسلمين العداء ولم يظهر سوءا إليهم وهي في الكفار أقرب منها في المسلمين لأن الإحسان إلى ضعفه المسلمين معلوم بالضرورة الشرعية وعليه فإن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل قوي يقاوم صراحة هذا النص الشامل وتوفر شروط النسخ المعلومة في أصول التفسير.

ويؤيد عدم النسخ ما نقله القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة وكذلك كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [3/28]، بأن ذلك رخصة في حالة الخوف والضعف مع اشتراط سلامة الداخل في القلب فإن مفهومه

(92/8)

أنها محكمة وباق العمل بها عند اللزوم ومفهومه أن المؤمنين إذا كانوا في حالة قوة وعدم خوف وفي مأمن منهم وليس منهم قتال وهم في غاية من المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم وهذا مما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن إليهم

وعدم معاداة من لم يعادهم ومما يدل لذلك من القرائن التي نوهنا عنها سابقا ما جاء في التذييل لهذه الآية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ، فهذا ترشيح لما قدمنا كما قابل هذا بالتذييل على الآية الأخرى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، ففيه مقابلة بين العدل والظلم فالعدل في الإحسان والقسط لمن يسالمك والظلم ممن يوالي من يعادي قومه

ومما ينفي النسخ عدم التعارض بين هذا المعنى وبين آية السيف لأن شرط النسخ التعارض وعدم إمكان الجمع ومعرفةالتاريخ والجمع هنا ممكن والتعارض منفي وذلك لأن الأمر بالقتال لا يمنع الإحسان قبله كما أن المسلمين ما كانوا ليفاجئوا قوما بقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام وهذا من الإحسان قطعا ولأنهم قبلوا من أهل الكتاب الجزية وعاملوا أهل الذمة بكل إحسان وعدالة

وقصة الظعينة في صحيح البخاري صاحبة المزادتين لم يقاتلوها أو يأسروها أو يستبيحوا ماءها بل استاقوها بمائها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ من مزادتيها قليلا ودعا فيه ورده ثم استقوا وقال لها اعلمي أن الله هو الذي سقانا ولم تنقص من مزادتيك شيئًا وأكرموها وأحسنوا إليها وجمعوا لها طعاما وأرسلوها في سبيلها فكانت تذكر ذلك وتدعو قومها للإسلام

وقصة ثمامة لما جيء به أسيرا وربط في سارية المسجد وبعد أن أصبح عاجزا عن القتال لم يمنعهم من الإحسان إليه فكان يراح عليه كل يوم بحليب سبع نياق حتى فك أسره فأسلم طواعية وهكذا نص قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الانسان: 8] ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ الآية [76/8-9] .

ومعلوم أنه لم يكن ثم أسير بيد المسلمين إلا من الكفار

وفي سنة تسع وهي سنة الوفود فكان يقدم إلى المدينة المسلمون وغير المسلمين فيتلقون الجميع بالبر والإحسان كوفد نجران وغيرهم وها هوذا وفد تميم جاء يفاخر

ويفاوض في أسارى له فيأذن لهم صلى الله عليه وسلم ويستمع مفاخرتهم ويأمر من يرد عليهم من المسلمين وفي النهاية يسلمون ويجيزهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجوائز وفا أقوى دليل على عدم النسخ لأن وفدا يأتي متحديا مفاخرا لكنه لم يقاتل ولم يظاهر على إخراجهم من ديارهم وجاء في أمر جار في عرف العرب فجاراهم فيه صلى الله عليه وسلم بعد أن أعلن لهم أنه ما بالمفاخرة بعث ولكن ترفقا بهم وإحسانا إليهم وتأليفا لقلوبهم وقد كان فأسلموا وهذا ما تعطيه جميع الأقوال التي قدمناها.

وقد بحث إمام المفسرين الطبري هذه المسألة من نواحي النقل وأخيرا ختم بحثه بقوله ما نصه وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال عنى بذلك قوله تعالى﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم إن الله عز وجل عم بقوله﴿ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ ، جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضا دون بعض ولا معنى لقول من قال ذلك منسوخ لأن بر المؤمنين من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح.

وقد بينا صحة ما قلنا في ذلك الخبر الذي ذكرناه عن الزبير في قصة أسماء وأمها .

وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ يقول إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم فيبرون من برهم ويحسنون إلى من أحسن إليهم انتهى منه

وفي تفسير آيات الأحكام للشافعي رحمه الله مبحث هام نسوقه أيضا بنصه لأهميته

قال الله عز وجل ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ قال يقال والله أعلم إن بعض المسلمين تأثر من صلة المشركين أحسب ذلك لما نزل فرض جهادهم وقطع الولاية بينهم وبينهم ونزل ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [22/58]، فلما خافوا أن تكون المودة الصلة بالمال أنزل ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ

وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقال الشافعي رحمه الله وكانت الصلة بالمال والبر والإقساط ولين الكلام والمراسلة بحكم الله غير ما نهوا عنه من الولاية لمن نهوا عن ولايته مع المظاهرة على المسلمين وذلك لأنه أباح بر من لم يظاهر عليهم من المشركين والإقساط إليهم ولم يحرم ذلك إلى من لم يظاهر عليهم بل ذكر الذين ظاهروا عليهم فناهم عن ولايتهم إذ كان الولاية غير البر والإقساط وكان النبي صلى الله عليه وسلم فادى بعض أسارى بدر وقد كان أبو عزة الجمحي ممن من عليه وقد كان معروفا بعداوته والتأليب عليه بنفسه ولسانه ومن بعد بدر على ثمامة بن أثال وكان موفا بعداوته وأمر بقتله ثم من عليه بعد أسره وأسلم ثمامة وحبس الميرة عن أهل مكة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن له أن يميرهم فأذن له فمارهم

وقال الله عز وجل ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [8/76]، والأسرى يكونون ممن حاد الله ورسوله اهـ منه.

وهذا الذي صوبه ابن جرير وصححه الشافعي رحمه الله الذي تقتضيه روح التشريع الإسلامي أما وجهة النظر التي وعدنا بتقديمها فهي أن المسلمين اليوم مشتركة مصالحهم بعضهم ببعض ومرتبطة بمجموع دول العالم من مشركين وأهل كتاب ولا يمكن لأمة اليوم أن تعيش منعزلة عن المجموعة الدولية لتداخل المصالح وتشابكها ولاسيما في المجال الاقتصادي عصب الحياة اليوم من إنتاج أو تصنيع أو تسويق فعلى هذا تكون الآية مساعدة على جواز التعامل مع أولئك المسالمين ومبادلتهم مصلحة بمصلحة على أساس ما قاله ابن جرير وبه الشافعي وذكره الشيخ رحمة الله عليه في حقيقة موقف المسلمين اليوم من الحضارة الغربية في عدة مناسبات من محاضراته ومن الأضواء نفسه وبشرط ما قاله الشيخ رحمة الله تعالى عليه من سلامة الداخل أي عدم الميل بالقلب ولو قيل بشرط آخر وهو مع عدم وجود تلك المصلحة عند المسلمين أنفسهم أي أن العالم الإسلامي يتعاون أولا مع بعضه فإذا أعوزه أو بعض دوله حاجة عند غير المسلمين ممن لم يقاتلوهم ولم يظاهروا عدوا على

قتالهم فلا مانع من التعاون مع تلك الدولة في ذلك ومما يؤيد كل ما تقدم عمليا معاملة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده لليهود في خيبر.

فمما لا شك فيه أنهم داخلون أولا في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا

(95/8)

عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [1/60]، ومنصوص على عدم موالاتهم في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [51/5].

ومع ذلك لما أخرجهم صلى الله عليه وسلم من المدينة وحاصرهم بعدها في خيبر وفتحها الله عليه وأصبحوا في قبضة يده فلم يكونوا بعد ذلك في موقف المقاتلين ولا مظاهرين على إخراج المسلمين من ديارهم عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقسط فعاملهم على أرض خيبر ونخيلها وأبقاهم فيها على جزء من الثمرة كأجراء يعملون لحسابه وحساب المسلمين فلم يتخذهم عبيد يسخرهم فيها وبقيت معاملتهم بالقسط كما جاء في قصة ابن رواحة رضي الله عنه لما ذهب يخرص عليهم وعرضوا عليه ما عرضوا من الرشوة ليخفف عنهم فقال لهم كلمته المشهورة

والله لأنتم أبغض الخلق إلي وجئتكم من عند أحب الخلق إلي ولن يحملني بغضي لكم ولا حبي له أن أحيف عليكم فإما أن تأخذوا بنصف ما قدرت وإما أن تكفوا أيديكم ولكم نصف ما قدرت فقالوا له بهذا قامت السماوات والأرض أي بالعدالة والقسط وقد بقوا على ذلك نهاية زمنه صلى الله عليه وسلم وخلافة الصديق وصدرا من خلافة عمر حتى أجلاهم عنها.

ومثل ذلك المؤلفة قلوبهم أعطاهم صلى الله عليه وسلم بعد الفتح وأعطاهم الصديق حتى منعهم عمر رضي الله عنه.

وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة لأهميتها ومسيس الحاجة إليها اليوم

وفي الختام إن أشد ما يظهر وضوحا في هذا المقام ولم يدع أحد فيه نسخا قوله تعالى ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ [15/31] .

فهذه حسن معاملة وبر وإحسان لمن جاهد المسلم على أن يشرك بالله ولم يقاتل المسلمين فكان حق الأبوة مقدما ولو مع الكفر والمجاهدة على الشرك

وكذلك أيضا في نهاية هذه السورة نفسها قوله تعالى ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [10/60] .

(96/8)

ثم قال تعالى ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ [10/60] ، أي آتوا المشركين أزواج المؤمنات المهاجرات ما أنفقوا على أزواجهم بعد هجرتهن فبعد أن أسلمت الزوجة وهاجرت وانحلت العصمة بينها وبين زوجها الكافر وبعدت عنه بالهجرة وفاتت عليه ولم يقدر عليها يأمر الله المسلمين أن يؤتوا أزواجهن وهم مشركون ما أنفقوا من صداق عند الزواج ونحوه مع بقاء الأزواج على الكفر وعجزهم عن استرجاع الزوجات وعدم جواز موالاتهم قطعا لكفرهم وهذا من المعاملة بالقسط والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: 10]

في قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ نص على امتحان المؤمنات المهاجرات وكان صلى الله عليه وسلم يمتحنهن ما خرجت كرها لزوج أو فرارا لسبب ونحو ذلك ذكره ابن

كثير وغيره.

وقيل كان امتحانهن بالبيعة الآتية ﴿ أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ ﴾ [12/60] الآية ومفهومه أن الرجال المهاجرون لا يمتحنون.

وفعلا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمتحن من هاجر إليه والسبب في امتحانهن دون الرجال هو ما أشارت إليه هذه الآية في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ ، كأن الهجرة وحدها لا تكفي في حقهن بخلاف الرجال فقد شهد الله لهم بصدق إيمانهم بالهجرة في قوله ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [8/59]، وذلك أن الرجل إذا خرج مهاجرا يعلم أن عليه تبعة الجهاد والنصرة فلا يهاجر إلا وهو صادق الإيمان فلا يحتاج إلى امتحان ولا يرد عليه مهاجر أم قيس لأنه أمر جانبي ولا يمنع من المهمة الأساسية للهجرة المنوه عنه في أول هذه السورة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي ﴾ [1/60] بخلاف النساء فليس عليهن جهاد ولا يلزمهن بالهجرة أية تبعية فأي سبب يواجههن في حياتهن سواء كان بسبب الزوج أو غيره فإنهن يخرجن باسم الهجرة فكان ذلك موجبا

(97/8)

للتوثق من هجرتهن بامتحانهن ليعلم إيمانهن ويرشح لهذا المعنى قوله تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ ، وفي حق الرجال ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [8/59], وكذلك من جانب آخر وهو أن هجرة المؤمنات يتعلق عليها حق مع طرف آخر وهو الزوج فيفسخ نكاحها منه ويعوض هو عما أنفق عليها وإسقاط حقه في النكاح وإيجاب حقه في العوض قضايا حقوقية تتطلب إثباتا بخلاف هجرة الرجال والله تعالى أعلم

وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ معلوم أن المؤمنات المهاجرات بعد الامتحان والعلم بأنهن مؤمنات لا ينبغي إرجاعهن إلى الكفار لأنهم يؤذونهن إن رجعن إليهم فلأي شيء يأتي

النص عليه ؟

قال كثير من المفسرين إن هذه الآية مخصصة لما جاء في معاهدة صلح الحديبية والتي كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين ردوه على المشركين ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين لا يردونه على المسلمين فأخرجت النساء من المعاهدة وأبقت الرجال من باب تخصيص العموم وتخصيص السنة بالقرآن وتخصيص القرآن بالسنة معلوم وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى عليه في مذكرة الأصول وذكر القاعدة من مراقي السعود بقوله قال كثير من المفسرين إن هذه الآية مخصصة لما جاء في معاهدة صلح الحديبية والتي كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين ردوه على المشركين ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين لا يردونه على المسلمين فأخرجت النساء من المعاهدة وأبقت الرجال من باب تخصيص العموم وتخصيص السنة بالقرآن وتخصيص القرآن بالسنة معلوم وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى عليه في مذكرة الأصول وذكر القاعدة من مراقي السعود بقوله

وخصص الكتاب والحديث به . . . أو بالحديث مطلقا فلتنتبه

ومما ذكره لأمثلة تخصيص السنة بالكتاب قوله صلى الله عليه وسلم"ما أبين من حي فهو ميت" أي محرم جاء تخصيص هذا العموم بقوله تعالى﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا ﴾ [80/16]، أي ليس محرما .

ومن أمثلة تخصيص الكتاب بالسنة قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [3/5]، جاء تخصيص هذا العموم بقوله صلى الله عليه وسلم"أحلت لنا ميتتان ودمان أما الميتتان فالجراد والحوت" الحديث قال القرطبي جاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعد فأقبل زوجها وكان كافرا فقال يا محمد اردد علي امرأتي فإنك شرطت ذلك وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله هذه الآية وقال بعض المفسرين إنها ليست مخصصة للمعاهدة لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء وإنما كانت في حق الرجال فقط.

(98/8)

وذكر القرطبي وابن كثير أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت فارة من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ردها علينا للشرط فقال صلى الله عليه وسلم "كان الشرط في الرجال لا في النساء" فأنزل الله تعالى هذه الآية والذي يظهر والله تعالى أعلم أنها مخصصة لمعاهدة الهدنة وهي من أحسن الأمثلة لتخصيص السنة بالقرآن كما قاله ابن كثير.

وقد روي أنها مخصصة عن عروة والضحاك وعبد الرحمان بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي

ويدل على أنها مخصصة أمران مذكوران في الآية

الأول منهما أنها أحدثت حكما جديدا في حقهن وهو عدم الحلية بينهن وبين أزواجهن فلا محل لإرجاعهن ولا يمكن تنفيذ معاهدة الهدنة مع هذا الحكم فخرجن منها وبقي الرجال

والثاني منهما أنها جعلت للأزواج حق المعاوضة على ما أنفقوا عليهن ولو لم يكن داخلات أولا كان طلب المعاوضة ملزما ولكنه صار ملزما وموجب إلزامه أنهم كانوا يملكون منعهن من الخروج بمقتضى المعاهدة المذكورة فإذا خرجن بغير إذن الأزواج كن كمن نقض العهد فلزمهن العوض المذكور والله تعالى أعلم

وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فيها تحريم المؤمنات على الكافرين والظاهر أن التحريم بالهجرة لا بالإسلام قبلها واتفق الجمهور على أنه إذا أسلم وهاجر أحد الزوجين بقيت العصمة إلى نهاية العدة فإن هاجر الطرف الآخر فيها فهما على نكاحهما الأول.

وهنا مبحث زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها أبي العاص بن الربيع

وقد كثر الخلاف في أمر ردها إليه هل كان بالعقد الأول أو جدد لها صلى الله عليه وسلم عقدا جديدا ومن أسباب كثرة الخلاف الربط بين تاريخ إسلامها وتاريخ إسلامه وبينهما ست سنوات وهذا خطأ لأن قبل نزول الآية لم يقع تحريم بين مسلمة وكافر ونزولها بعد الحديبية وإسلامها كان سنة ثمان فيحمل على عدم انقضاء عدتها وهذا يوافق على ما عليه الجمهور ونقل ابن كثير قولا وهو أن المسلمة كانت بالخيار إن شاءت فسخت نكاحها

وتزوجت بعد انقضاء عدتها وإن شاءت انتظرت ا هـ

وهذا القول له وجه لأنه بإسلامها لم يكن كفأ لها وإذا انتفت الكفاءة أعطيت الزوجة الخيار كقصة بريرة لما عتقت وكان زوجها مملوكا ولا يرده قوله تعالى ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ لأن ذلك في حالة كفر الزوج لقوله تعالى ﴿ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ والله تعالى أعلم

وقوله تعالى ﴿ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا ﴾ ، يدل على أن الفرقة إذا جاءت بسبب من جهة الزوجة أن عليها رد ما أنفق الزوج عليها وكونه الصداق أو أكثر قد بحثه الشيخ رحمة الله تعالى علي في مبحث الخلع في سورة "البقرة" وقوله تعالى ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ ، أمر المؤمنين بفك عصمة زوجاتهم الكوافر فطلق عمر بن الخطاب يومئذ زوجتين وطلق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة وعصم الكوافر عام في كل كافرة فيشمل الكتابيات لكفرهن باعتقاد الولد لله كما حققه الشيخ رحمة الله تعالى عليه ولكن هذا العموم قد خصص بإباحة الكتابيات في قوله تعالى ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [5/5]، أي الحرائر وبقيت الحرمة بين المسلم والمشركة بالعقد على التأبيد

ومفهوم العصمة لا يمنع الإمساك بملك اليمين فيحل للمسلم الاستمتاع بالمشركة بملك اليمين وعليه تكون حرمة المسلمة على الكافر مطلقا مشركا كان أو كتابيا على التأبيد لقوله تعالى ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ أي في الحاضر ﴿ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ، أي في المستقبل وقد فصل الشيخ رحمة الله تعالى عليه مسألة المحرمات من النكاح فيما تقدم عند قوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ [25/4] .

تنبيه:

هنا سؤال وهو إذا كان الكفر هو سبب فك عصمة الكافرة من المسلم وتحريم المسلمة على الكافر فلماذا حلت الكافرة من أهل الكتاب للمسلم ولم تحل المسلمة للكافر من أهل الكتاب والجواب من جانبين

الأول: أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه والقوامة في الزواج للزوج قطعا لجانب الرجولة وإن تعادلا في الحلية بالعقد لأن التعادل لا يلغي الفوارق كما في ملك اليمين

(100/8)

فإذا امتلك رجل امرأة حل له أن يستمتع منها بملك اليمين والمرأة إذا امتلكت عبدا لا يحل لها أن تستمتع منه بملك اليمين ولقوامة الرجل على المرأة وعلى أولادها وهو كافر لا يسلم لها دينها ولا لأولادها

والجانب الثاني: شمول الإسلام وقصور غيره وينبني عليه أمر اجتماعي له مساس بكيان الأسرة وحسن العشرة وذلك أن المسلم إذا تزوج كتابية فهو يؤمن بكتابها وبرسولها فسيكون معها على مبدأ من يحترم دينها لإيمانه به في الجملة فسيكون هناك مجال للتفاهم وقد يحصل التوصل إلى إسلامها بموجب كتابها أما الكتابي إذا تزوج مسلمة فهو لا يؤمن بدينها فلا تجد منه احترام لمبدئها ودينها ولا مجال للمفاهمة معه في أمر لا يؤمن به كلية وبالتالي فلا مجال للتفاهم ولا للوئام وإذا فلا جدوى من هذا الزواج بالكلية فمنع منه ابتداء

وقوله تعالى ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، يعني صداقهن.

ويدل بمفهومه أن النكاح بدون الأجور فيه جناح وقد جاء النص بهذا المفهوم في قوله تعالى﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [50/33]، فهبة المرأة نفسها بدون صداق خاص به صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يحله لغيره صلى الله عليه وسلم وقوله﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ، ظاهر في أن النكاح لا يصح إلا بإتيان الأجور وقد جاء ما يدل على صحة العقد بدون إتيان الصداق كما في قوله تعالى﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ الآية[236/2] .

وقد ذكر الفقهاء حكم المفوضة أنه إن دخل بها فله صداق المثل ويدل لإطلاق الأجور على الصداق قوله تعالى في نكاح الإماء لمن لم يستطع طولا للحرائر﴿ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله

﴿ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [25/4] . وفي نكاح أهل الكتاب ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ الآية[5/5]، وقوله تعالى

(101/8)

للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ [50/33]، وبهذا كله يرد على من استدل بلفظ الأجور على نكاح المتعة في قوله تعالى ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [24/4] . وتقدم مبحث المتعة موجزا للشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ .

القيد بالمعروف هنا للبيان ولا مفهوم له لأن كل ما يأمر به صلى الله عليه وسلم معروف وفيه حياتهن وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [24/8]، في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب وتقدم الكلام عليه عند قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [7/59]، ولكن فيه تنبيه على أن من كان في موضع الأمر من بعده لا طاعة له إلا في المعروف والعلم عند الله تعالى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [13/60] .

يرى المفسرون أن هذه الآية في ختام هذه السورة كالآية الأولى في أولها وهذا ما يسمى عودا على بدء

قال أبو حيان لما افتتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك تأكيدا لترك موالاتهم وتنفيرا للمسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم

وقال ابن كثير ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها والذي يظهر لي والله تعالى أعلم أنها لم تكن لمجرد التأكيد للنهي المتقدم ولكنها تتضمن معنى جديدا وذلك للآتي

أولا أنها نص في قوم غضب الله عليهم وعلى أنها للتأكيد حملها البعض العموم لأن كل كافر مغضوب عليه وحملها البعض على خصوص اليهود لأنه وصف صار عرفا لهم هو قول الحسن وابن زيد قاله أبو حيان ومما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه في مقدمة الأضواء أنه إذا اختلف في تفسير آية وكان أكثر استعمال القرآن لأحد المعنيين كان مرجحا على الآخر وهو محقق هنا كما قال الحسن أصبح عرفا عليهم وقد خصهم تعالى في قوله ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ

اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [60/5]، وقوله فيهم ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [90/2]، وقد فرق الله بينهم وبين النصارى في قوله تعالى﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [7/1]، ولو قيل إنها في اليهود والمنافقين لما كان بعيدا لأنه تعالى نص على غضبه على المنافقين في هذا الخصوص في سورة "المجادلة" في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [14/58]، وعلى هذا فتكون خاصة في اليهود والمنافقين والغرض من تخصيصها بهما وعودة ذكرهما بعد العموم المتقدم في﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ كما أسلفنا هو والله تعالى أعلم لما نهى أولا عن موالاة الأعداء وأمر بتقطيع الأواصر بين ذوي الأرحام جاء بعدها ما يشيع الأمل ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ [7/60]، و ﴿ عَادَيْتُمْ﴾ عامة باقية على عمومها ولكن اليهود والمنافقين لم يدخلوا في مدلول﴿ عَسَى ﴾ تلك فنبه تعالى عليهم بخصوصهم لئلا يطمع المؤمنون أو ينتظروا شيئًا من ذلك فأيأسهم من موالاتهم ومودتهم كيأس اليهود والمنافقين في الآخرة أي بعدم الإيمان الذي هو رابطة الرجاء المتقدم في﴿ عَسَى ﴾ وفعلا كان كما أخبر الله فقد جعل المودة من بعض المشركين ولم يجعلها من بعض المنافقين ولا اليهود فهي إذا مؤسسة لمعنى جديد وليست مؤكدة المتقدم والعلم عند الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصف

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

في الآية الأولى إنكار على الذين يقولون ما لا يفعلون وفي الآية الثانية بيان شدة غضب الله ومقته على من يكون كذلك ولكن لم يبين هنا القول المغاير للفعل المنهى عنه والمعاتبون عليه والمستوجب لشقة الغضب إلا أن مجيء الآية الثالثة بعدهما يشعر بموضوع القول والفعل وهو الجهاد في سبيل الله

وقد اتفقت كلمة علماء التفسير على أن سبب النزول مع تعدده عندهم أنه حول الجهاد في سبيل الله من رغبة في الإذن لهم في الجهاد ومعرفة أحب الأعمال إلى الله ونحو ذلك

وقد بين القرآن في عدة مواضع أن موضوع الآيتين الأولى والثانية فيما يتعلق بالجهاد وتمنيهم إياه من ذلك قوله تعالى عنهم ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [20/47].

ومنها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [77/4].

ومنها قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ

مَسْؤُولاً﴾ [15/33].

ففي الآية الأولى تمنوا نزول سورة يؤذن فيها بالقتال فلما نزلت صار مرضى القلوب كالمغشي عليه من الموت وفي الثانية قيل لهم كفوا أيديكم عن القتال فتمنوا الإذن لهم فيه فلما كتب عليهم رجعوا وتعللوا أخرجوا إلى أجل قريب.

وفي الثالثة أعطوا العهود على الثبات وعدم التولي وكان عهد الله مسؤولا فلما كان في أحد وقع ما وقع وكذلك في حنين ويشهد لهذا أيضا قوله تعالى﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ [33/13–15]،

ففي هذا السياق بيان لعتابهم على نقض العهد وهو معنى لم تقولون ما لا تفعلون سواء بسواء ويقابل هذا أن الله تعالى امتدح طائفة أخرى منهم حين أوفوا بالعهد وصدقوا ما عاهدوا الله عليه في قوله تعالى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [23/33].

ثم بين الفرق بين الفريقين بقوله بعدها﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾ الآية[33/24 –25]، وذلك في غزوة الأحزاب.

فتبين بهذا أن الفعل المغاير للقول هنا هو عدم الوفاء بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم من قبل فاستوجبوا العتاب عليه كما تبين أن الذين وفوا بالعهد استوجبوا الثناء على الوفاء وقد استدل بالآية من عموم لفظها على الإنكار على كل من خالف قوله فعله سواء في عهد أو وعد أو أمر أو نهي

ففي الأمر والنهي كقوله تعالى﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [2/44].

وكقوله عن نبي الله شعيب لقومه﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [11/88].

وفي العهد قوله ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [34/17] .

ومن هذا الوجه فقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى عليه في عدة مواضع منها في سورة هود عند قول شعيب المذكور

ومنها عند قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ [54/19]، في سورة "مريم" .

وبحث فيها الوفاء بالوعد والفرق بين الوعد والوعيد والوفاء بالوعد والخلف في الوعيد وعقد لها مسألة وساق آيتي "الصف" هناك .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [4/61] .

اختلف علماء التفسير في المراد بالبنيان المرصوص فنقل بعضهم عن الفراء أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته والجمهور أنه المتلاصق المتراص المتساوي

والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء لا في تلاحمه بالرصاص وعدم انفكاكه ولا تساويه وتراصه لأن ذلك يتنافي وطبيعة الكر والفر في أرض المعركة ولكل وقعة نظامها حسب موقعها .

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن وجه الشبه المراد هنا هو عموم القوة والوحدة

قال الزمخشري يجوز أن يريد استواء بنائهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص اهـ

ويدل لهذا الآتي:

أولا قوله تعالى ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [121/3] .

فالمقاعد هنا هي المواقع للجماعات من الجيش وهي التعبئة حسب ظروف الموقعة كما فعل صلى الله عليه وسلم في وضع الرماة في غزوة أحد حماية لظهورهم من التفاف العدو بهم

لطبيعة المكان وكما فعل في غزوة بدر ورصهم وسواهم بقضيب في يده أيضا لطبيعة المكان

وهكذا فلا بد من كل وقعة من مراعاة موقعها بل وظروف السلاح والمقاتلة

وقد ذكر صاحب الجمان في تشبيهات القرآن أجزاء الجيش وتقسيماته بصفة عامة من قلب وميمنة وميسرة وأجنحة ونحو ذلك فيكون وجه الشبه هو الارتباط المعنوي والشعور بالمسؤولية والإحساس بالواجب كما فعل الحباب بن المنذر في غزوة بدر حين نظر إلى منزل المسلمين من الموقع فلم يرقه وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجابه فأبدى خطة جديدة فأخذ بها صلى الله عليه وسلم وغير الموقع من مكان المعركة

وثانيا قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [8/45-46] .

فذكر تعالى من عوامل النصر الثبات عند اللقاء وذكر الله والطاعة والامتثال والحفاظ عليها بعدم التنازع والصبر عند الحملة والمجالدة فتكون حملة رجل واحد وكلها داخلة تحت معنى البنيان المرصوص في قوته وحمايته وثباته وقد عاب تعالى على اليهود تشتت قلوبهم عند القتال في قوله تعالى ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [59/14]، وامتدح المؤمنين في قتالهم بوحدتهم ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ .

وقد جاءت السنة بهذا التشبيه للتعاون في قوله صلى الله عليه وسلم "المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا"

فهو يبين المراد من وجه الشبه في البنيان المرصوص هنا وقد أثر عن أبي موسى رضي الله عنه قوله لأصحابه الزموا الطاعة فإنها حصن المحارب.

وعن أكثم بن صيفي أقلوا الخلاف على أمرائكم وإن المسلمين اليوم لأحوج ما يكونون إلى الالتزام بهذا التوجيه القرآني الكريم إزاء قضيتهم العامة مع عدوهم المشترك ولا سيما وقد مر العالم الإسلامي بعدة تجارب في تاريخهم الطويل وكان لهم منها أوضح العبر ولهم في هذا المنهج القرآني أكبر موجب لاسترجاع حقوقهم والحفاظ على كيانهم فضلا عن أنه العمل الذي يحبه الله من عباده وبالله تعالى التوفيق.

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5] . قول موسى عليه السلام ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ ؟ لم يبين نوع هذا الإيذاء وقد جاء مثل هذا الإجمال في قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [69/33] .

وأحال عليه ابن كثير في فسيره وساق حديث البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال "إن موسى عليه السلام كان حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وأن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل وبرأه مما يقولون" إلى آخر القصة.

ونقله غيره من المفسرين عندها وعلى هذا يكون إيذاؤهم إياه إيذاء شخصيا بادعاء العيب فيه خلقة وهذا وإن صح في آية الأحزاب لقوله تعالى﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [69/33] فإنه لا يصح في آية الصف هذه لأن قول لهم ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [5/61]، مما يثير إلى أن الإيذاء في جانب الرسالة لا في جانبه الشخصي ويرشح له قوله تعالى بعده مباشرة﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [5/61] .

أي فلما زاغوا بما آذوا به موسى فيكون إيذاء قومه له هنا إيذاء زيغ وضلال وقد آذوه كثيرا في ذلك كما بينه تعالى في قوله عنهم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [55/2] .

وكذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [93/2] .

فها هم يؤخذ الميثاق عليهم ويرفع فوقهم الطور ويقال لهم﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ

بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ فكله يساوي قوله: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ، لأن ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق ومع ذلك يؤذونه بقولهم ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ، ويؤذونه بأن أشربوا في قلوبهم حب العجل وعبادته بكفرهم ولذا قال لهم ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

وقد جمع إيذاء الكفار لرسول الله مع إيذاء قوم موسى لموسى في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السماء فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ الآية [153/4] .

ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو في خصوص الرسالة ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء في شخصه وفي ما جاء به فبرأه الله مما قالوا في آية الأحزاب وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم والعلم عند الله تعالى

وقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ، تقدم كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه على هذا المعنى في سورة الروم عند الكلام على قوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية [10/30] .

وقال إن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه وساق هذه الآية ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ، وقوله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ [10/2]

وأحال على سورة بني إسرائيل على قوله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ [25/6] .

وعلى سورة الأعراف على قوله ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [101/7] .

ومما يشهد لهذا المعنى العام بقياس العكس قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

[17/47]، وأمثالها.

ومما يلفت النظر هنا إسناد الزيغ للقلوب في قوله تعالى﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ .

(109/8)

وأن والهداية أيضا للقلب كما في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [11/64] .

ولذا حرص المؤمنين على هذا الدعاء﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [8/3]، فتضمن المعنيين والعلم عند الله تعالى قوله تعالى

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

ذكر موسى ولم يذكر معه البشرى بالنبي صلى الله عليه وسلم وذكر عيى فذكرها معه مما يدل بمفهومه أنه لم يبشر به إلا عيسى عليه السلام ولكن لفظ عيسى مفهوم لقب ولا عمل عليه عند الأصوليين وقد بشرت به صلى الله عليه وسلم جميع الأنبياء ومنهم موسى عليه السلام ومما يشير إلى أن موسى مبشرا به قول عيسى عليه السلام في هذه الآية﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ ، والذي بين يديه هي التوراة أنزلت على موسى وقد جاء صريحا التعريف به صلى الله عليه وسلم وبالذين معه في التوراة في قوله تعالى﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ -إلى قوله تعالى: - ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [29/48] .

كما جاء وصفهم في الإنجيل في نفس السياق في قوله تعالى﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [29/48] إلى آخر السورة.

وجاء النص في حق جميع الأنبياء في قوله تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ

فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [81/3] .

قال ابن كثير قال ابن عباس ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث وهو حيي ليتبعنه وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه ا هـ .

وجاء مصداق ذلك في قصة النجاشي لما سمع من جعفر عنه صلى الله عليه وسلم فقال أشهد أن رسول الله وأن الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم وما قاله أيضا

(110/8)

والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه في حديث طويل ساقه ابن كثير وعزاه إلى أحمد رحمه الله

وكذلك دعوة نبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [129/2] .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم "أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي التي رأت"

وقد خص عيسى بالنص على البشرى به صلى الله عليه وسلم لأنه آخر أنبياء بني إسرائيل فهو ناقل تلك البشرى لقومه عما قبله

كما قال ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ ، ومن قبله ناقل عمن قبله وهكذا حتى صرح بها عيسى عليه السلام وأداها إلى قومه

وقوله تعالى ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ، جاء النص أنه صلى الله عليه وسلم له عدة أسماء وفي الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم "أنا لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب"

وبهذه المناسبة فقد ذكر صلى الله عليه وسلم باسمه أحمد هنا وباسمه محمد في سورة "محمد" صلى الله عليه

وسلم

كما ذكر صلى الله عليه وسلم بصفات عديدة أجمعها ما يعد ترجمة ذاتية من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [128/9] .

وسيأتي المزيد من بيان ذلك عند قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [4/68]، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: 8] .

تقدم بيان ذلك الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [16/42] في سورة "الشورى" وقوله ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ [18/21]، في سورة "الأنبياء" .

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: 10] .

(111/8)

فسرت التجارة بقوله تعالى ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [11/61] .

التجارة هي التصرف في رأس المال طلبا للربح كما قال تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ [282/2]، وقال تعالى ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ [24/9] .

والتجارة هنا فسرت بالإيمان بالله ورسوله وبذل المال والنفس في سبيل الله فما هي المعارضة الموجودة في تلك التجارة الهامة بينها تعالى في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [111/9]، فهنا مبايعة وهنا بشرى وهنا فوز عظيم

وكذلك في هذه الآية ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ

عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [61/12–13].

وقد دل القرآن على أنه من فاته هذه الصفقة الرابحة فهو لا محالة خاسر كما في قوله تعالى﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [2/16].

حقيقة هذه التجارة أن رأس مال الإنسان حياته ومنتهاه مماته

وقد قال صلى الله عليه وسلم "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" والعرب تعرف هذا البيع في المبادلة كما قول الشاعر:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم . . . فإن شربت الحلم بعدك بالجهل

وقول الآخر:

بدلت بالجمة رأسا أزعرا . . . وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشبري المسلم إذ تنصرا . . . فأطلق الشراء على الاستبدال

(112/8)

تنبيه

في هذه الآية الكريمة تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في قوله تعالى﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: 11]

وفي آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قدم النفس عن المال فقال﴿ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، وفي ذلك سر لطيف.

أما في آية "الصف" فإن المقام مقام تفسير وبيان لمعنى التجارة الرابحة بالجهاد في سبيل الله

وحقيقة الجهاد بذل الجهد والطاقة والمال هو عصب الحرب وهو مدد الجيش وهو أهم من الجهاد بالسلاح فبالمال يشترى السلاح وقد تستأجر الرجال كما في الجيوش الحديثة من الفرق الأجنبية وبالمال يجهز الجيش

ولذا لما جاء الإذن بالجهاد أعذر الله المرضى والضعفاء وأعذر معهمالفقراء الذين لا يستطيعون تجهيز أنفسهم وأعذر معهم الرسول صلى الله عليه وسلم إذ لم يوجد عنده ما يجهزهم به كما في قوله تعالى﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ إلى قوله ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [9/91–92] .

وكذلك من جانب آخر قد يجاهد بالمال من لا يستطيع بالسلاح كالنساء والضعفاء كما قال صلى الله عليه وسلم "من جهز غازيا فقد غزا"

أما الآية الثانية فهي في معرض الاستبدال والعرض والطلب أو ما يسمى بالمساومة فقدم النفس لأنها أعز ما يملك الحي وجعل في مقابلها الجنة وهي أعز ما يوهب وأحسن ما قيل في ذلك أما الآية الثانية فهي في معرض الاستبدال والعرض والطلب أو ما يسمى بالمساومة فقدم النفس لأنها أعز ماليملك الحي وجعل في مقابلها الجنة وهي أعز ما يوهب وأحسن ما قيل في ذلك:

أثامن بالنفس النفيسة ربها . . . وليس لها في الخلق كلهم ثمن

بها تملك الأخرى فإن أنا بعتها . . . بشيء من الدنيا فذاك هو الغبن

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصيبها . . . لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

فالتجارة هنا معاملة مع الله إيمانا بالله وبرسوله وجهاد بالمال والنفس والعمل في ذلك

أثامن بالنفس النفيسة ربها . . . وليس لها في الخلق كلهم ثمن

الصالح كما قيل أيضا:

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدا . . . فإنما الربح والخسران في العمل

وفي آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى ﴾ تقديم بشرى خفية لطيفة بالنصر لمن جاهد في سبيل الله وهي تقديم قوله

﴿ فَيَقْتُلُونَ ﴾ بالبناء للفاعل أي فيقتلون عدوهم﴿ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [111/9]، بالبناء للمجهول لأن التقديم هنا يشعر بأنهم يقتلون العدو قبل أن يقتلهم ويصيبون منه قبل أن يصيب منهم ومثل هذا يكفي في موقف القوة والنصر والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾ الآية.

في هذه الآية أيضا إشعار المسلمين بالنصر في قوله تعالى ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [14/61]، ولكن لم يبين فيها هل كانوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله أم لا ؟

وقد جاء ما يدل على أنهم بالفعل أنصار الله كما تقدم في سورة "الحشر" في قوله تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [8/59].

وكذلك الأنصار في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ [100/9]، وكقوله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ [29/48]، فأشداء على الكفار هو معنى ينصرون الله ورسوله ثم جاء المثل المضروب لهم بالتآزر والتعاون في قوله تعالى ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [29/48] فسماهم أنصارا وبين نصرتهم سواء من المهاجرين والأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والعلم عند الله تعالى.

(114/8)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ .

الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى الأميين في مذكرة الدراسة بقوله الأميين أي العرب والأمي هو الذي لا

يقرأ ولا يكتب وكذلك كان كثير من العرب اهـ

وسمي أميا نسبة إلى أمه يوم ولدته لم يعرف القراءة ولا الكتابة وبقي على ذلك

ومما يدل على أن المراد بالأميين هم العرب بعثة النبي صلى الله عليه وسلم منهم لقوله تعالى ﴿ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ كما يدل عليه قوله تعالى عن نبي الله إبراهيم ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [37/14]، إلى قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [129/2].

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وهذه الآية نص في أن الله تعالى استجاب دعوة نبيه إبراهيم عليه السلام فيهم اهـ.

وفي الحديث "إنا أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب ولا نحسب" وهذا حكم على المجموع لا على الجميع لأن في العرب من كان يكتب مثل كتبة الوحي عمر وعلي غيرهم

وقوله تعالى ﴿ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى عن أهل الكتاب ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ ﴾ [157/7].

وقد بين تعالى أن المكتوب عندهم هو ما بشر به عيسى عليه السلام في قوله تعالى ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [6/61].

وكونه صلى الله عليه وسلم أميا بمعنى لا يكتب بينه قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ

وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [48/49].

وبين تعالى الحكمة في كونه صلى الله عليه وسلم أميا مع أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم بنفي الريب عنه كما كانوا يزعمون أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴾ [5/25] فقال

﴿ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [48/29] .

قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في المذكرة المشار إليها هذا عطف على قوله في الأميين أي بعث هذا النبي صلى الله عليه وسلم في الأميين وفي﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ وقيل عطف على الضمير في قوله﴿ يُعَلِّمُهُمُ﴾ أي يعلمهم ويعلم آخرين منهم والمراد بقوله وآخرين كل من يأتي بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة بدليل قوله ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [19/6] .

وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن قوله﴿ وَآخَرِينَ﴾ ، نزلت في فارس قوم سلمان وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب اهـ .

وسبق أن قدمنا الكلام على هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [10/59] .

ولكن سبقنا كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه حين عثرنا عليه لزيادة الفائدة والاستئناس

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

اختلف في مرجع اسم الإشارة هنا وفي المراد بالمتفضل به عليهم أهم الأمة الأمية تفضل الله عليها ببعثة نبي منهم فيهم أم هو النبي صلى الله عليه وسلم الأمي تفضل الله تعالى عليه ببعثته معلما هاديا أم هم الآخرون الذين لم يلحقوا زمن البعثة ووصلتهم دعوتها وأدركوا فضلها ؟

وقد اكتفي الشيخ رحمة الله تعالى عليه وعلينا في مذكرة الدراسة بقوله﴿ ذَلِكَ﴾ أي المذكور من بعث هذا النبي الكريم في الأميين﴿ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ، ومن عظم فضله تفضله على هذه الأمة بهذا النبي الكريم اهـ.

(116/8)

وهذا القول منه رحمة الله تعالى علينا وعليه يتضمن القولين الأول والثاني من الأقوال الثلاثة تفضل الله على الأميين ببعثة هذا النبي الكريم فيها وتفضل الله على النبي ببعثته فيهم مما لا يشعر بأنه لا خلاف بين هذه الأقوال الثلاثة وأنها من الاختلاف التنوعي أو هي من المتلازمات فلا مانع من إدارة الجميع لأن فضل الله تعالى قد شمل الجميع.

وقد نص الأول بقوله ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [164/3] وهذا عين ما في سورة الجمعة سواء لأن الامتنان هو التفضل.

ونص على الثاني بقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [113/4].

ونص على الثالث بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [54/5].

فقوله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ﴾ ، ويساوي ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [3/62]، فهو خلاف تنوع وفضل الله شامل للجميع.

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه هذا مثل ضربه الله لليهود وهو أنه شبههم بحمار وشبه التوراة التي كلفوا العمل بما فيها بأسفار أي كتب جامعة للعلوم النافعة وشبه تكليفهم بالتوراة بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي في تلك الكتب المحمولة على ظهره فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرفوا وبدلوا فلم ينفعهم ما في كتابهم من العلوم اهـ

فأشار الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إلى أن وجه الشبه عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أوضح الله تعالى

هذا في موضع آخر في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [146/2] فقد جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم ينفعهم علمهم به.

وهذه الآية أشد ما ينبغي الحذر منها وخاصة لطلاب العلم وحملته كما قال تعالى ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ [5/62]، أي تشبيههم في هذا المثل بهذا الحيوان المعروف

وقد سبق للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه لكلام على هذا المثال في عدة مواضع من الأضواء منها في الجزء الثاني عند قوله تعالى ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ الآية [176/7].

ومنها في الجزء الثالث عند قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ الآية [18/14].

ومنها في الجزء الرابع عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ ﴾ [54/18] في سورة "الكهف" بما فيه الكفاية.

والذي ينبغي التنبيه عليه هو أن أكثر المفسرين يجعله من قبيل التشبيه المفرد وأن وجه الشبه فيه مفرد وهو عدم الانتفاع بالمحمول كالبيت الذي فيه

كالعيس في البيداء يقتلها الظما . . . والماء فوق ظهورها محمول

والذي يظهر والله تعالى أعلم أنه من قبيل التشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتبا نافعة والحامل حمار لا علاقة له بها بخلاف ما في البيت لأن العيش يمكن أن تنتفع بالماء لو حصلت عليه والحمار لا ينتفع بالأسفار ولو نشرت بين عينيه وفيه إشارة إلى أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإياس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل فنقلها الله إلى قوم أحق بها وبالقيام بها

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعة: 6].

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ هم اليهود.

(118/8)

ومعنى ﴿ هَادُوا ﴾ أي رجعوا بالتوبة إلى الله من عبادة العجل

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [156/7]، وكان رجوعهم عن عبادة العجل بالتوبة النصوح حيث سلموا أنفسهم للقتل توبة وإنابة إلى الله كما بينه بقوله﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [54/2].

وقوله ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم أولياء لله وأبناء الله وأحباؤه دون غيركم من الناس فتمنوا الموت لأن ولي الله حقا يتمنى لقاءه والإسراع إلى ما أعد له من النعيم المقيم اهـ

وفي قوله رحمة الله تعالى علينا وعليه إشارة إلى بيان زعمهم المجمل في الآية وهو ما بينه الله بقوله عنهم وعن النصارى معهم ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [18/5].

وقد رد زعمهم عليهم بقوله تعالى﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ [18/5].

ومثل هذه الآية ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ ﴾ قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [94/2].

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وقيل المراد بالتمني المباهلة والمراد من الآية إظهار كذب اليهود في دعواهم أنهم أولياء الله.

وقوله ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ ﴾ مع قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ شرطان يترتب الأخذ منهما على الأول أي فتمنوا الموت إن

زعمتم إن صدقتم في زعمكم ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

إن تستغيثوا إن تذعروا تجدوا . . . منا معاقل عز زانها كرم

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

(119/8)

نص على أنهم لا يتمنون الموت أبدا وأن السبب هو ما قدمت أيديهم ولكن ليبين ما هو ما قدمت أيديهم الذي منعهم من تمني الموت.

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه لا يتمنونه لشدة حرصهم على الحياة كما بينه تعالى قوله ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [96/2]، فشدة حرصهم على الحياة لعلمهم أنهم إذا ماتوا دخلوا النار ولو تمنوا لماتوا من حينهم

وقوله ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ الباء سببية والمسبب انتفاء تمنيهم وما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي ا هـ.

والذي أشار إليه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه من الأسباب من كفرهم ومعاصيهم قد بينه تعالى في موضع آخر صريحا في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [3/181–182] .

فالباء هنا سببية أيضا أي ذوقوا عذاب الحريق بسبب ما قدمت أيديكم من هذه المذكورات ولهذا كله لن يتمنوا الموت ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر فقد أيقنوا الهلاك ويئسوا من الآخرة.

كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [13/60]، ولهذا كله لم يتمنوا الموت كما أخبر الله تعالى عنهم والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾

أي: إن فررتم من الموت بعدم تمنيه فلن يجعلكم تنجون منه وهو ملاقيكم لا محالة وملاقيكم بمعنى مدرككم كما في قوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [78/4].

وقوله ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [185/3].

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ

(120/8)

اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: 10]

هذه الآية الكريمة وهذا السياق يشبه في مدلوله وصورته قوله تعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [27/22–28]، مع قوله ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ [198/2].

ففي كل منهما نداء وأذان الحج وصلاة وسعي وإتيان وذكر الله ثم انتشار وإفاضة مما يربط الجمعة بالحج في الشكل وإن اختلف الحجم وفي الكيف وإن تفاوتت التفاصيل وفي المباحث والأحكام كثرة وتنويعا من متفق عليه ومختلف فيه مما يجعل مباحث الجمعة لا تقل أهمية عن مباحث الحج وتتطلب عناية بها كالعناية به وقد نقل عن الشيخ رحمة الله تعالى عليه أنه كان عازما على بسط الكلام فيها كعادته رحمة الله تعالى عليه ولكن إرادته نافذة وقدرته غالية وإن كل إنسان يستشعر مدى مباحث الشيخ وبسطه وتحقيقه للمسائل ويترك الدخول فيها تقاصرا دونها ولا سيما وأن ربط هذه المباحث بنصوص القرآن ليس بالأمر المبين كما أشار إليه أبو حيان في مضمون قوله في نهاية تفسيره لهذه السورة بعد إيجاز الكلام عن أحكامها قال ما نصه وقد ملأ المفسرون كثيرا من أوراقهم بأحكام وخلاف في مسائل الجمعة مما لا تعلق لها بلفظ القرآن اهـ

فهو يشير بأن لفظ القرآن لا تعلق له بتلك الأحكام التي ناقشها المفسرون في مباحث الجمعة ولكن الدارس لمنهج الشيخ رحمة الله تعالى عليه في الأضواء والمتذوق لأسلوبه لم يقتصر على اللفظ فقط أي دلالة النص التطابقي وتأمل أنواع الدلالات من تضمن والتزام وإيماء وتنبيه فإنه يجد لأكثر أو كل ما قاله المفسرون والمحدثون والفقهاء من المباحث أصولا من أصول تلك الدلالات.

وإني أستلهم الله تعالى الرشد وأستمد العون والتوفيق لبيان كل ما يظهر من ذلك إن شاء الله فإن وفقت فبفضل من الله وخدمة لكتابه وإلا فإنها محاولة تغتفر بجانب القصور العلمي وتحسين القصد والله الهادي إلى سواء السبيل

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا

(121/8)

الْبَيْعَ ﴾

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الدراسة ما نصه إذا نودي للصلاة أي قام المنادي بها وهو المؤذن يقول حي على الصلاة.

وقوله ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ ، أي من صلاة يوم الجمعة أي صلاة الجمعة ا هـ

ومما يدل على أن المراد به صلاة الجمعة نفسها دون بقية صلوات ذلك اليوم مجيء ﴿ من ﴾ التي للتبعيض ثم تبين هذا البعض بالأمر بترك البيع في قوله ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ لأن هذا خاص بالجمعة دون غيرها لوجود الخطبة وقد كانت معينة لهم قبل نزول هذه الآية وصلوها قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كما سيأتي إن شاء الله

والمراد بالنداء هو الأذان كما أشار إليه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وكما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ﴾ [5/58] .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم "إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم"

وقيل النداء لغة هو النداء بصوت مرتفع لحديث "فإنه أندى منك صوتا"

وقد عرف الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الأذان لغة عند قوله تعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [27/22]، فقال الأذان لغة الإعلام.

ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [3/9]، وقول الحارث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء . . . رب ثاو يمل منه الثواء

والأذان من خصائص هذه الأمة شعارا للمسلمين ونداء للصلاة

بدء مشروعيته:

اخ تلف في بدء المشروعية والصحيح أنه بدىء بعد الهجرة وجاءت نصوص لكنها ضعيفة أنه شرع ليلة الإسراء أو بمكة

منها عن علي رضي الله عنه عند البزار أنه شرع مع الصلاة

(122/8)

ومنها عن ابن عباس عند ابن حبان أنه شرع بمكة عن أول الصلاة

وقال ابن حجر لا يصح شيء من ذلك

أما مشروعيته بعد الهجرة وفي المدينة ففيها نصوص عديدة صحيحة نبين بدأه وكيفيته

منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين وغيرهما قال "كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة وليس ينادي بها أحد فتكلموا يوما في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى وقال بعضهم قرنا مثل قرن اليهود فقال عمر أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا بلال قم فناد بالصلاة" وفي الموطأ لمالك رحمة الله أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أراد أن

يتخذ خشبتين يضرب بهما ليجتمع الناس للصلاة فأرى عبد الله بن زيد الأنصاري خشبتين في النوم فقال إن هاتين لنحو مما يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا تؤذنون للصلاة فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استيقظ فذكر له ذلك فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذان

وبعض الروايات الأخرى عن غير ابن عمر وعند غير الشيخين بألفاظ أخرى وصور مختلفة منها قالوا "انصب راية فإذا رآها الناس أذن بعضهم بعضا أي أعلمه عند حضور الصلاة فلم يعجبه ذلك فذكر له القنع وهو الشبور لليهود فلم يعجبه فقال هذا من أمر اليهود

وفي رواية أنس "أن ينوروا نارا فلم يعجبه شيء من ذلك كله" .

وفي حديث عبد الله بن زيد لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلوات طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا في يده فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس قال وما تصنع به قلت ندعو به إلى الصلاة قال أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك فقلت بلى فقال تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ثم استأخر عني غير بعيد ثم قال تقول إذا أقمت للصلاة الله أكبر الله أكبر أشهد

أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله

فلما أصبحت أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت فقال "إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتا منك" فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به فسمع عمر وهو في بيته فخرج يجر رداءه ويقول:

يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت ما رأى فقال صلى الله عليه وسلم "فلله الحمد" رواه أبو داود.

وفي رواية له فقال "إني لبين نائم ويقظان إذ أتاني آت فأراني الأذان"

فتبين من هذا كله أن الصحيح في مشروعية الأذان أنه كان بعد الهجرة وفي المدينة المنورة

وهنا سؤال حول مشروعية الأذان قال بعض الناس كيف يترك أمر الأذان وهو بهذه الأهمية من الصلاة فيكون أمر مشروعيته رؤيا يراها بعض الأصحاب وطعن في سند الحديث واستدل بحديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم "قم يا بلال فناد بالصلاة" . والجواب عن هذا من عدة وجوه منها سند حديث عبد الله صحيح وقد ناقشه الشوكاني رحمه الله وذكر تصحيحه ومن صححه ويشهد لصحته ما قدمناه من رواية الموطإ بإرادة اتخاذ خشبتين فأرى عبد الله بن زيد خشبتين الحديث وكذلك في الصحيحين إثبات التشاور فيما يعلم به حين الصلاة

ومنها أنه لا يتعارض مع حديث ابن عمر لأن حديث ابن عمر لم يذكر ألفاظ النداء فيكون الجمع بينهما إما أن بلالا كان ينادي بغير هذه الصيغة ثم رأى عبد الله الأذان فعلمه بلالا

وقد يشهد لهذا الوجه ما جاء عن أبي ليلى قال أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وحدثنا أصحابنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "لقد أعجبني أن تكون صلاة المسلمين واحدة حتى لقد هممت أن أبث رجالا في الدور ينادون الناس بحين الصلاة وحتى هممت أن آمر

رجالا يقومون على الآطام ينادون المسلمين حتى نقسوا أو كادوا أن ينقسوا" فجاء رجل من الأنصار فقال يا رسول الله إني لما رجعت لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلا كأن عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن ثم قعد قعدة ثم قام فقال مثلها إلا أنه يقول قد قامت الصلاة ولولا أن يقول الناس لقلت إني كنت يقظان غير نائم فقال صلى الله عليه وسلم "لقد أراك الله خيرا فمر بلالا فليؤذن فقال عمر أما إني قد رأيت مثل الذي رأى

ولكني لما سبقت استحييت" لأبي داود أيضا

ففيه أنه صلى الله عليه وسلم كان قد هم أن يبث رجالا في الدور وعلى الأطم ينادون للصلاة فيكون نداء بلال أولا من هذا القبيل دون تعيين ألفاظ أما أن يكون نداء بلال الوارد في الصحيح بألفاظ الأذان الواردة في حديث عبد الله بعد أن رأى ما رآه أمره صلى الله عليه وسلم أن يعلمه بلالا فنادى به ولا تعارض في ذلك كما ترى

ومنها أيضا أن رؤيا عبد الله للأذان لا تجعله مشروعا له من عنده ولا متوقفا عليه لأنه جاء في الرؤيا الصالحة أنها جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة

وهذا النظم لألفاظ الأذان لا يكون إلا من القسم فهي بعيدة عن الوسواس والهواجس لما فيها من إعلان العقيدة وإرغام الشيطان كما في الحديث"إن الشيطان إذا سمع النداء أدبر" إلخ .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لما سمعها أقرها وقال "إنها لرؤيا حق" أو "لقد أراك الله حقا" ، فكانت سنة تقرير كما يقرر بعض الناس على بعض الأفعال

ثم جاء بعد ذلك تعليمه صلى الله عليه وسلم لأبي محذورة فصار سنة ثابتة وكان يتوجه السؤال لو أنه لم يبلغه صلى الله عليه وسلم وعملوا به بمجرد الرؤيا ولكن وقد بلغه وأقره فلا سؤال إذا

ومنها أن في بعض الروايات أن الوحي قد جاءه به ولما أخبره عمر قال له سبقك بذلك الوحي ذكر في مراسيل أبي داود

وذكر عن ابن العربي بسط الكلام إثبات الحكم بالرؤيا ذكرهما المعلق على بذل المجهود

ومنها ما قيل ترك مجيء بيان وتعليم لأذان إلى أن رآه عبد الله ورواه عمر رضي الله عنهما لأمرين ذكرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا مع ذكر الله فيكون مجيئه عن طريقهما أولى

وأكرم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يأتيهم من طريقه هو حتى لا يكون عناية من يدعوهم لإطرائه وهذا وإن كان متوجها إلا أن فيه نظرا لأنه صلى الله عليه وسلم لو جاءهم بأعظم من ذلك لما كان موضع تساؤل.

من مجموع ما تقدم يكون أصل مشروعية الأذان سنة ثابتة إما أنه كان قد هم أن يبعث رجالا في البيوت ينادوه وإما لأنه أقر ما رأى عبد الله فيكون أصل المشروعية منه صلى الله عليه وسلم والتقرير منه على الألفاظ التي رآها عبد الله.

فضل الأذان وآداب المؤذن

لا شك أن الأذان من أفضل الأعمال وأن المؤذن يشهد له ما سمع صوته من حجر ومدر إلخ.

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم "أن المؤذنين أطول الناس أعناقا يوم القيامة" .

وقال عمر رضي الله عنه لولا الخلافة لأذنت

وقال صلى الله عليه وسلم "الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين" رواه أبو داود والترمذي إلى غير ذلك من فضائل الأذان فقيل مؤتمن على الوقت وقيل مؤتمن على عورات البيوت عند الأذان فقد حث صلى الله عليه وسلم المؤذنين على الوضوء له كما في حديث "لا ينادي للصلاة إلا متوضىء" وإن كان الحدث لا يبطله اتفاقا.

ولما كان بهذه المثابة كانت له آداب في حق المؤذنين

منها أن يكونوا من خيار الناس كما عند أبي داود "ليؤذن لكم خياركم وليؤمكم أقرؤكم" وعليه حذر صلى الله عليه وسلم من تولي الفسقة الأذان كما في حديث "الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن" المتقدم فإن فيه زيادة عند البزار قالوا: يا رسول الله لقد تركتنا نتنافس في الأذان بعدك فقال: "إنه يكون بعدي أو بعدكم قوم سفلتهم مؤذنوهم" .

ومنها أنه يكره التغني فيه لأنه ذكر ودعاء إلى أفضل العبادات وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلا قال له إني أحبك في الله قال ابن عمر لكني أبغضك في الله فقال ولم قال لأنك تتغنى في أذانك

وفي المغني لابن قدامة ولا يعتد بأذان صبي ولا فاسق أي ظاهر الفسق وعند المالكية لا يحاكي في أذانه الفسقة

(126/8)

ومنها ألا يلحن فيه لحنا بينا قال في المغني ويكره اللحن في الأذان فإنه ربما غير المعنى فإن من قال أشهد أن محمدا رسول الله ونصب لام رسول أخرجه عن كونه خبرا .

ولا يمد لفظه أكبر لأنه يجعل فيها ألفا فيصير جمع كبر وهو الطبل ولا يسقط الهاء من اسم الله والصلاة ولا الحاء من الفلاح لما روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"لا يؤذن لكم من يدغم الهاء" الحديث أخرجه الدارقطني.

فأما إن كان ألثغ لا تتفاحش جاز أذانه فقد روي أن بلالا كان يقول أسهد بجعل الشين سينا نقله ابن قدامة ولكن لا أصل لهذا الأثر مع شهرته على ألسنة الناس كما في كشف الخلفاء ومزيل الإلباس

ومن هذا ينبغي تعهد المؤذنين في هذين الأمرين اللحن والتلحين وكذلك الفسق وصفة المؤذنين ولا سيما في بلاد الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومصدر التأسي وموفد القادمين من كل مكان ليأخذوا آداب الأذان والمؤذنين عن أهل هذه البلاد المقدسة.

ألفاظ الأذان والإقامة والراجح منها مع بيان التثويب والترجيع

مدار ألفاظ الأذان والإقامة في الأصل على حديثي عبد الله بن زيد بالمدينةوحديث أبي محذورة في مكة بعد الفتح وما عداهما تبع لهما كحديث بلال وغيره رضي الله عنهم

وحديث عبد الله موجود في السنن أي فيما عدا البخاري ومسلم وهو متقدم من حيث الزمن كما تقدم ذلك في مبحث مشروعية الأذان وأنه كان ابتداء في المدينة أول مقدمة صلى الله عليه وسلمبها .

وحديث أبي محذورة موجود في السنن وفي صحيح مسلم ولم يذكر البخاري واحدا منهما وإنما ذكر قصة

سبب المشروعية وحديث "أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة" على ما سيأتي إن شاء الله وعليه سنقدم حديث عبد الله لتقدمه في الزمن وألفاظه كما تقدم في بدء

(127/8)

المشروعية هي الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.

ومجموعه خمسة عشرة كلمة أي جملة ففيه تربيع التكبير في أوله وتثنية باقيه وإفراد آخره وفيه الإقامة بتثنية التكبير في أوله في كلمة وإفراد باقيها إلا لفظ الإقامة ولفظها الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.

قال الشوكاني رواه أحمد وأبو داود وقال عنه الترمذي حسن صحيح وذكر له عدة طرق ومنها عند الحاكم وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والبيهقي وابن ماجه

حديث أبي محذورة وحديث أبي محذورة كان بعد الفتح كما في السنن أنه خرج في نفر فلقي النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه من حنين وأذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم فظل أبو محذورة في نفره يحكونه استهزاء به فسمعهم صلى الله عليه وسلم فأحضرهم فقال "أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع" ؟ فأشاروا إلى أبي محذورة فحبسه وأرسلهم ثم قال لي "قم فأذن بالصلاة" ، فعلمه.

أما ألفاظه فعند مسلم بتثنية التكبير في أوله والباقي كحديث عبد الله بن زيد مع زيادة ذكر الترجيع وقد ساقه مسلم في ثلاثة مواضع وبلفظ التكبير مرتين فقط

الموضع الأول عن أبي محذورة نفسه أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه الأذان الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله

إلا الله أشهد أن لا إلاه إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إلاه إلا الله

والموضع الثاني في قصة الإغارة أنه كان صلى الله عليه وسلم يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان فإذا سمع أذانا أمسك وإلا أغار فسمع رجلا يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفطرة ثم قال أشهد أن لا إلاه إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم"خرجت من النار" الحديث

(128/8)

والموضع الثالث عن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال"إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر ثم قال أشهد أن لا إلاه إلا الله قال أشهد أن لا إله إلا الله"الحديث فهذه كلها ألفاظ مسلم لأذان أبي محذورة ولم يذكر مسلم عن الإقامة إلا حديث أنس أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة وعند غير مسلم جاء حديث أبي محذورة بتربيع التكبير في أوله كحديث عبد الله بن زيد وبالترجيع والتثويب في الفجر وفيها أن الترجيع يكون أولا بصوت منخفض

ثم يرجع ويمد بهما أي بالشهادتين صوته وذلك عند أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي أما الإقامة فجاءت عن أبي محذورة روايتان الأولى قال وعلمني النبي صلى الله عليه وسلم الإقامة مرتين مرتين الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إلاه إلا الله أشهد أن لا إلاه إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر، لا إلاه إلا الله

الثانية مثل الأذان تماما بتربيع التكبير وبدون ترجيع وتثنية الإقامة أي الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إلاه إلا الله أشهد أن لا إلاه إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله

إلا الله.

فالأولى كالأذان في رواية مسلم والثانية كرواية الأذان عند غيره بدون ترجيع ولا تثويب وإضافة لفظ الإقامة مرتين.

هذا مجموع ما جاء في أصول ألفاظ الأذان من حديثي عبد الله بن زيد وأبي محذورة

وبالنظر في حديث عبد الله بن زيد نجده لم تختلف ألفاظه لا في الأذان ولا في الإقامة وهو بتربيع التكبير في الأذان وبدون تثويب ولا ترجيع وبإفراد الإقامة إلا لفظ الإقامة أما حديث أبي محذورة فجاء بعدة صور في الأذان وفي الإقامة.

أما الأذان فعند مسلم بتثنية التكبير في أوله وعند غيره بتربيعه وعند الجميع إثبات

(129/8)

الترجيع في الشهادتين وأن الأولى منخفضة والثانية مرتفعة كبقية ألفاظ الأذان وأما الإقامة فجاءت مرتين مرتين وجاءت مثل الأذان تماما عند غير مسلم سوى الترجيع والتثويب مع تثنية الإقامة فكان الفرق بين الحديثين كالآتي

في ألفاظ الأذان ثلاث نقاط:

أولا: ذكر الترجيع.

ثانيا: التثويب.

ثالثا: عدد التكبير في أوله.

أما الترجيع فيجب أن يؤخذ به لأنه متأخر عن الفتح ولا معارضة فيه لأنه زيادة بيان وبسند صحيح

وأما التثويب فقد ثبت من حديث بلال وكان أيضا متأخرا عن حديث عبد الله قطعا وقد ثبت أن بلالا أذن للصبح فقيل له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نائم فصرخ بلال بأعلى صوته الصلاة خير من النوم" .

قال سعيد بن المسيب فأدخلت هذه الكلمة في التأذين صلاة الفجر أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له "اجعل ذلك في أذانك" فاختصت بالفجر

وذكر ابن قدامة رحمه الله في المغني عن بلال أن النبي صلى الله عليه وسلم نهاه أن يثوب في العشاء، رواه ابن ماجه وقال دخل ابن عمر رضي الله عنهما مسجدا يصلي فيه فسمع رجلا يثوب في أذان الظهر فخرج فقيل له أين فقال أخرجتني البدعة فلزم بهذا كله الأخذ بها في صلاة الفجر خاصة

أما التكبير في أول الأذان ففي رواية مسلم لأبي محذورة مرتين في كلمة فاختلف مع حديث عبد الله بن زيد وعند غير مسلم بتربيع التكبير وبالنظر إلى سند مسلم فهو أصح سندا وبالنظر إلى ما عند غيره تجد فيه زيادة صحيحة وهي تربيع التكبير فوجب العمل بها كما وجب العمل بالتثويب والترجيع لأن الرواية المتفقة مع الحديث الآخر أولى من المختلفة معها.

أما الإقامة ففي حديث عبد الله لم تختلف كما تقدم ولكنها في حديث أبي

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

محذورة قد جاءت متعددة ولم تتفق صورة من صورها مع حديث عبد الله حيث إن فيها مرتين مرتين في جميع الكلمات ومنها كالأذان مع لفظ الإقامة مرتين وسند الجميع سواء

فهل نأخذ في الإقامة بحديث عبد الله أم بحديث أبي محذورة من حيث الصناعة كل معه في السند سواء.

وفي حديث أبي محذورة زيادة وهي تشبيهها بالأذان فلو كان الأمر قاصرا على ذلك لكان العمل بحديث أبي محذورة في الإقامة أولى لأنه متأخر وفيه زيادة صحيحة ولكن وجدنا حديث بلال في الصحيح وعند مسلم أيضا وهو أمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر بالإقامة وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال كان الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين والإقامة مرة مرة غير أنه كان يقول قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، رواه أبو داود والنسائي

وبهذين الحديثين يمكن الترجيح بين حديثي عبد الله وأبي محذورة في كل من الأذان والإقامة.

فمن حديث بلال نشفع الأذان ولكنهم يختلفون في تحقيق المناط في المراد بالشفع من حيث التكبير لأن الشفع يصدق على اثنين وأربع وعند في الأذان إما مرتان وإما أربع وكلاهما يصدق عليه معنى الشفع ولكن إذا اعتبرنا أن كل تكبيرتين جملة واحدة كان تحقق الشفع بجملتين فيأتي أربع تكبيرات وإذا اعتبرنا كل تكبيرة كلمة وجد الشفع في جملة واحدة لاشتمالها على كلمتين، ولهذا وقع الخلاف

ولكن الأذان لم تعد عباراته بالكلمات المفردة بل بالجمل لأننا نعد قولنا حي على الصلاة وهي في الواقع جملة تشتمل على عدة كلمات مفردة وعليه فقول الله أكبر الله أكبر كلمة وعلى هذا يكون الشفع بتكرارها فيأتي أربع تكبيرات وهذا يتفق مع رواية الحديثين وحديث عبد الله تماما

وقال النووي في شرح مسلم قال القاضي عياض إن حديث أبي محذورة جاء في نسخة الفاسي لمسلم بأربع تكبيرات اهـ.

وبهذا تتفق الروايات كلها في تربيع التكبير في الأذان.

(131/8)

أما الإقامة فحديث بلال نص في إيثار الإقامة إلا لفظ الإقامة وهو عين نص الإقامة في حديث عبد الله وعين النص في حديث عبد الله بن عمر والإقامة مرة مرة إلا الإقامة أي فهي مرتين وعلى هذا العرض وبهذه المناقشة يكون الراجح هو العمل بحديث عبد الله بن زيد في الأذان والإقامة مع أخذ الترجيع والتثويب من حديث أبي محذورة للأذان.

ثم نسوق ما أخذ به فقهاء الأمصار من هذا كله مع بيان النتيجة من جواز العمل بالجميع إن شاء الله

قال ابن رشد في البداية ما نصه اختلف العلماء في الأذان على أربع صفات مشهورة. إحداها تثنية التكبير وتربيع الشهادتين وباقيه مثنى وهو مذهب أهل المدينة مالك وغيره واختار المتأخرون من أصحاب مالك

الترجيع في الشهادتين بصوت أخفض من الأذان

والصفة الثانية أذان المكيين وبه قال الشافعي وهو تربيع التكبير الأول والشهادتين وتثنية باقي الأذان.

والصفة الثالثة أذان الكوفيين وهو تربيع التكبير الأول وتثنية باقي الأذان وبه قال أبو حنيفة

والصفة الرابعة أذان البصريين وهو تربيع التكبير الأول وتثليث الشهادتين وحي على الصلاة وحي على الفلاح يبدأ بأشهد أن لا إله إلا الله حتى يصل إلى حي على الفلاح ثم يعيد كذلك مرة ثانية أعني الأربع كلمات تبعا ثم يعيدهن ثالثة وبه قال الحسن البصري وابن سيرين

والسبب في اختلاف كل واحد من هؤلاء الفرق الأربع اختلاف الآثار في ذلك واختلاف اتصال العمل عند كل واحد منهم وذلك أن المدنيين يحتجون لمذهبهم بالعمل المتصل بذلك في المدينة والمكيون كذلك أيضا يحتجون بالعمل المتصل عندهم بذلك وكذلك الكوفيون والبصريون ولكل واحد منهم آثار تشهد لقوله اهـ

(132/8)

ثم ساق نصوص كل فريق من النصوص التي أوردناها سابقا ولم يورد نصا لمذهب البصريين الذي فيه التثليث المذكور وقد وجد في مصنف عبد الرزاق بسند جيد مجلد "1" ص "564"، وجاء مرويا عن بعض الصحابة في المصنف المذكور.

وقال في الإقامة أما صفتها فإنها عند مالك والشافعي بتثنية التكبير في أولها وبإفراد باقيها إلا لفظ الإقامة فعند الشافعي مرتين وعند أبي حنيفة فهي مثنى مثنى وأما أحمد فقد خير بين الأفراد والتثنية فيها اهـ.

تلك هي خلاصة أقوال أئمة الأمصار في ألفاظ الأذان والإقامة وقد أجملها العلامة ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد تحت عنوان فصل مؤذنيه صلى الله عليه وسلم قال ما نصه

وكان أبو محذورة يرجع الأذان ويثني الإقامة وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة فأخذ الشافعي وأهل مكة بأذان أبي محذورة وإقامة بلال ويعني بأذان أبي محذورة على رواية تربيع التكبير وأخذ أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال

وإقامة أبي محذورة وأخذ أحمد وأهل الحديث وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته أي بتربيع التكبير وبدون ترجيع وبإفراد الإقامة إلى لفظ الإقامة قال وخالف مالك في الموضعين إعادة التكبير وتثنية لفظ الإقامة فإنه لا يكررها ا هـ.

ومراده بمخالفة مالك هنا لأهل الأمصار وإلا فهو متفق مع بعض الصور المتقدمة أما في عدم إعادة التكبير فعلى حديث أبي محذورة عند مسلم وعدم تكريره للفظ الإقامة فعلى بعض روايات حديث بلال أن يوتر الإقامة أي على هذا الإطلاق وبهذا مرة أخرى يظهر لك أن تلك الصفات كلها صحيحة وأنها من باب اختلاف التنوع وكل ذهب إلى ما هو صحيح وراجح عنده ولا تعارض مطلقًا إلا قول الحسن البصري وابن سيرين بالتثليث ولم يقل به أحد من الأئمة الأربعة.

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى كلمة فصل في ذلك في المجموع ج 22 ص 66 بعد ذكر هذه المسألة ما نصه فإذا كان كذلك فالصواب مذهب أهل الحديث ومن وافقهم تسويغ كل ما ثبت في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يكرهون شيئًا من ذلك إذ تنوع صفة الأذان الإقامة كتنوع صفة القراءات والتشهدات ونحو ذلك وليس لأحد أن يكره ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته ا هـ.

(133/8)

وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد في موضع آخر مما لا ينبغي الخلاف فيه ما نصه وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه

وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه وكالخلاف في أنواع التشهدات وأنواع الأذان والإقامة وأنواع النسك من الإفراد والتمتع والقران.

تنبيه:

قد جاء في التثويب بعض الآثار عن عمر وبعض الأمراء والصحيح أنه مرفوع كما في قصة بلال المتقدمة ولا يبعد

أن ما جاء عن عمر أو غيره يكون تكرارا لماسبق أن جاء عن بلال مع النبي صلى الله عليه وسلم وقيل فيها هل هو خاص بالفجر أو عام في كل صلاة يكون الإمام نائما فيها والصحيح أنه خاص بالفجر وفي الأذان لا عند باب الأمير أو الإمام وتقدم أثر عبد الله بن عمر فيمن ثوب في أذان الظهر أنه اعتبره بدعة وخرج من المسجد.

كيفية أداء الأذان:

يؤدي الأذان بترسل وتمهل لأنه إعلان للبعيد والإقامة حدرا لأنها للحاضر القريب أما النطق بالأذان فيكون جزما غير معرب.

قال في المغني ذكر أبو عبد الله بن بطة أنه حال ترسله ودرجه أي في الأذان والإقامة لا يصل الكلام بعضه ببعض بل جزما وحكاه عن ابن الأنباري عن أهل اللغة وقال وروي عن إبراهيم النخعي قال شيئان مجزومان كانوا لا يعربونهما الأذان والإقامة قال وهذا إشارة إلى إجماعهم

حكم الأذان والإقامة

قال ابن رشد واختلف العلماء في حكم الأذان هل هو واجب أو سنة مؤكدة وإن كان واجبا فهل هو من فروض الأعيان أو من فروض الكفاية اهـ.

فتراه يدور حكمه بين فرض العين والسنة المؤكدة والسبب في هذا الاختلاف اختلافهم في وجهة النظر في الغرض من الأذان هل هو من حق الوقت للإعلام بدخوله أو من حق الصلاة كذكر من أذكارها أو هو شعار للمسلمين يميزهم عن غيرهم؟

وسنجمل أقوال الأئمة رحمهم الله مع الإشارة إلى ماخذ كل منهم ثم بيان الراجح،

إن شاء الله

أولا: اتفق الشافعي وأبو حنيفة على أنه سنة على ما رجحه النووي عن الشافعي في المجموع أنه سنة في حق

الجميع المنفرد والجماعة في الحضر وفي السفر أي أنه لا تتعلق به صحة الصلاة

وحكي عنه أنه فرض كفاية أي للجماعة أو للجمعة خاصة والدليل لهم في ذلك حديث المسيء صلاته لأن

النبي صلى الله عليه وسلم علمه معها الوضوء واستقبال القبلة ولم يعلمه أمر الأذان ولا الإقامة

ثانيا: مالك جاء عنه أنه فرض على المساجد التي للجماعة وليس على المنفرد فرضا ولاسنة. وعنه أنه سنة

مؤكدة على مساجد الجماعة ففرق مالك بين المنفرد ومساجد الجماعة وفي متن خليل عندهم أنه سنة

لجماعة تطلب غيرها في فرض وقتي ولو جمعة أي وما عدا ذلك فليس بسنة فلم يجعله على المنفرد أصلا

واختلف القول عنه في مساجد الجماعة ما بين الفرض والسنة المؤكدة واستدل بحديث ابن عمر رضي الله

عنه كان لا يزيد على الإقامة في السفر إلا في الصبح وكان يقول إنما الأذان للإمام الذي يجتمع له الناس رواه

مالك.

وكذلك أثر ابن مسعود وعلقمة صلوا بغير أذان ولا إقامة قال سفيان كفتهم إقامة المصر وقال ابن مسعود إقامة

المصر تكفي رواهما الطبراني في الكبير بلين.

ثالثا: وعند الحنابلة قال الخرقي هو سنة أي كالشافعي وأبي حنيفة وغير الخرقي قال كقول مالك

رابعا: عند الظاهرية فرض على الأعيان ويستدلون بحديث مالك بن الحويرث وصاحبه قال لهما صلى الله

عليه وسلم "إذا كنتما في سفر فأذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما"، متفق عليه

فحملوا الأمر على الوجوب.

هذا موجز أقوال الأئمة رحمهم الله مع الإشارة إلى أدلتهم في الجملة وحكمه كما رأيت دائر بين السنة عموما

عند الشافعي وأبي حنيفة والوجوب عند الظاهرية

(135/8)

والسنة المؤكدة أو فرض الكفاية عند مالك وغيره على تفصيل في ذلك.

وقد رأيت النصوص عند الجميع ولكن من أسباب الخلاف في حكم الأذان هو تردد النظر فيه هل هو في حق الوقت للإعلام بدخول الوقت أو هو حق الصلاة نفسها أو هو شعار للمسلمين ؟

فعلى أنه من حق الوقت فأذان واحد فإنه يحصل به الإعلام ويكفي عن غيره ولا يؤذن مفاته أول الوقت ولا من يصلي في مسجد قد صليت فيه الفريضة أولا ولا للفوائت

وإن كان من حق الصلاة فهل هو شرط في صحتها أو سنة مستقلة

وعلى أنه للوقت للإعلام به فإنه يعارضه حديث قصة تعريسهم آخر الليل ولم يوقظهم إلا حر الشمس وأمره صلى الله عليه وسلم بالانتقال عن ذلك الوادي ثم نزولهم والأمر بالأذان والإقامة فلا معنى لكونه للوقت في هذا الحديث وهو من رواية مالك في الموطأ.

وعلى أنه للصلاة فله جهتان:

الأولى: إذا كان المصلي منفردا ولا يطلب من يصلي معه

والثانية: أنه إذا كانوا جماعة.

فإذا كان منفردا لا يطلب من يصلي معه فلا ينبغي أن يختلف في كونه ليس شرطا في صحة الصلاة وليس واجبا عليه لأن الأذان للإعلام وليس هناك من يقصد إعلامه

ولحديث المسيء صلاته المتقدم ذكره وقد يدل لذلك ظاهر نصوص القرآن في بيان شروط الصلاة التي هي الطهارة والوقت وستر العورة واستقبال القبلة

ففي الطهارة قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [6/5] .

وفي الوقت قال تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [114/11]، ونحوها

وفي العورة قال تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [31/7] .

وفي القبلة قال تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [144/2] .

وأما في الأذان فقال تعالى ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾ [58/5] .

وقال في سورة الجمعة في هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [9/62]، وكلاهما حكاية واقع وليس فيهما صيغة أمر كغير الأذان مما تقدم ذكره

أما حديث ابن الحويرث فهو في خصوص جماعة وليس في شخص واحد كما هو نص الحديث

وبقي النظر فيه في حق الجماعة هل هو على الوجوب في حقهم أم على الندب وإذا كان بالنصوص القرآنية المتقدمة أنه ليس شرطا لصحة صلاة الفرد فليس هو إذا بشرط في صحة صلاة الجماعة فيجعل الأمر فيه على الندب .

وعليه حديث ابن أبي صعصعة أن أبا سعيد قال له "أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم" رواه البخاري ومالك في الموطإ والنسائي.

ومحل الشاهد فيه قوله رضي الله عنه فأذنت للصلاة فارفع صوتك فيفهم منه أنه إن لم يؤذن فلا شيء عليه وأنه يراد به الحث على رفع الصوت لمن يؤذن ولو كان في البادية لما يترتب عليه من هذا الأجر

أما كونه شعارا للمسلمين فينبغي أن يكون وجوبه متعلقا بالمساجد في الحضر فيلزم أهلها كما قال مالك والشافعي في حق المساجد.

قال الشافعي يقاتلون عليه إن تركوه ذكره النووي في المجموع لدليل الإغارة في الصبح أو الترك بسبب سماعه وكذلك يتعلق في السفر بالإمام وينبغي أن يحرص عليه

لفعله صلى الله عليه وسلم في كل أسفاره في غزواته وفي حجه كما هو معلوم وما عدا ذلك فهو لا شك سنة لا ينبغي تركها .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تقسيم نحو هذا في المجموع في الجزء الثاني والعشرين وللأذان عدة جوانب تبع لذلك منها في حالة الجمع بين الصلاتين فقد جاءت السنة بالأذان والإقامة للأولى منهما والاكتفاء بالإقامة للثانية كما في الجمع بين الظهر والعصر بعرفة والمغرب والعشاء في المزدلفة على الصحيح وهو من أدلة عدم الوجوب لكل صلاة.

ومنها أن لا أذان على النساء أي لا وجوب وإن أردن الفضيلة أتين به سرا وقد عقد له البيهقي بابا قال فيه ليس على النساء أذان ولا إقامة وساق فيه عن عبد الله بن عمر موقوفا قال ليس على النساء أذان ولا إقامة ثم ساق عن أسماء رضي الله عنها مرفوعا "ليس على النساء أذان ولا إقامة ولا جمعة ولا اغتسال جمعة ولا تقدمهن امرأة ولكن تقوم في وسطهن هكذا" رواه الحكم ابن عبد الله الأيلي وهو ضعيف وقال ورويناه في الأذان والإقامة عن أنس بن مالك موقوفا ومرفوعا ورفعه ضعيف وهو قول الحسن وابن المسيب وابن سيرين والنخعي.

تعدد المؤذنينلصلاة الجمعة ولبقية الصلوات الخمس في المسجد الواحد

أولا ما يتعلق بالجمعة صور التعدد لها فيه صورتان صورة تعدد الأذان أي قبل الوقت وبعد الوقت وصورة تعدد المؤذنين بعد الوقت على ما سيأتي في ذلك إن شاء الله أما تعدد الأذان فقد بوب له البخاري رحمه الله في صحيحه في باب الجمعة قال باب الأذان يوم الجمعة وساق حديث السائب بن يزيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء ففيه الأذان أولا للوقت كبقية الصلوات وفيه أذان قبل الوقت زاده عثمان لما كثر الناس، وهو المعنى الثالث والثان الآخران هما الأذان للوقت والإقامة الموجودان من قبل.

وذكر ابن حجر رحمه الله في الشرح تنبيها قال فيه ورد ما يخالف ذلك الخبر بأن عمر رضي الله عنه هو الذي زاد الأذان.

ففي تفسير جويبر عن الضحاك عن زيادة الراوي عن برد بن سنان عن مكحول عن معاذ أنّ عمر أمر مؤذنيه أن يؤذنا للناس الجمعة خارجا من المسجد حتى يسمع الناس وأمر أن يؤذن بين يديه كما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ثم قال عمر نحن ابتدعناه لكثرة المسلمين ا هـ

ثم ناقش ابن حجر هذا الأثر وقال إنه منقطع ثم ذكر أنه وجد له ما يقويه إلى آخر كلامه.

فهذا دليل على تعدد الأذان للجمعة قبل الوقت وعند دخوله سواء من عمر أو من عثمان أو منهما معا رضوان الله عليهما.

أما مكان هذا الأذان وزمانه فإن المكان قد جاء النص أنه كان على الزوراء

وقد كثر الكلام في تحديد الزوراء مع اتفاقهم أنها مكان بالسوق وهذا يتفق مع الغرض من مشروعيته لتنبيه أهل السوق بوقت الجمعة للسعي إليها.

أما الزوراء بعينها فقال علماء تاريخ المدينة إنه اسم للسوق نفسها وقيل مكان منها مرتفع كان عند أحجار الزيت وعند قبر مالك بن سنان وعند سوق العباءة

والشيء الثابت الذي لم يقبل التغير هو قبر مالك بن سنان لكن يقولون عنده وليس في مكانه وقد بدا لي أن الزوراء هو مكان المسجد الذي يوجد الآن بالسوق في مقابلة الباب المصري المعروف بمسجد فاطمة ويبدو لي أن الزوراء حرفت إلى الزهراء والزهراء عند الناس يساوي فاطمة لكثرة قولهم فاطمة الزهراء ومعلوم قطعا أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن لها مسجد في هذا المكان فلا صحة لنسبة هذا المسجد إليها بل ولا ما نسب لأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم من مساجد في جوانب مسجد المصلى المعروف الآن بمسجد الغمامة وإنما صحة ما نسب إليهم رضوان الله تعالى عليهم هو أن تلك الأماكن كانت مواقفهم في مصلى العيد ولهذا تراها كلها في هذا المكان المتواجدة فيه

فأولهم أبو بكر رضي الله عنه وقد أخر موقفه عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى العيد تأدبا

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء من بعده واختلفت أمكن مصلاهم فأقيمت تلك المساجد في أماكن قيامهم

(139/8)

أما ما ينسب إلى فاطمة الزهراء فلا مناسبة له ولا صحة له وقد قال بعض المتأخرين إنه منسوب إلى إحدى الفضليات من نساء العصور المتأخرة واسمها فاطمة وعليه فلعلها قد جددته ولم تؤسسه لأنه لا موجب أيضا لتبرعها بإنشاء مسجد بهذا القرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبمناسبة العمل بالقضاء فقد عرض علي صك شرط وقف للأشراف الشراقمة بالمدينة المنورة وفي بعض تحديد أعيانه يقول الواقع في طريق الزوراء ويحده جنوبا وقف الحلبي ووقف الحلبي موجود حتى الآن معروف يقع عن المسجد الموجود بالفعل في الجنوب الشرقي وليس بينه وبين المسجد المذكور إلا السور والشارع فقط وتاريخ هذا الصك قبل مائة سنة من تاريخ كتابة هذه الأحرف أي قبل عام ألف ومائتين من الهجرة

وبهذا ترجح عندي أن موضع أذان عثمان رضي الله عنه كان بذلك المكان وأنه المتوسط بسوق المدينة وتقدر مسافته عن المسجد النبوي بحوالي مائتين وخمسين مترا تقريبا

وقد كان الأذان الأول زمن النبي صلى الله عليه وسلم على المنارة وهكذا الأذان للوقت زمن الخلفاء الراشدين ثم من بعدهم أما هذا الأذان فكان ابتداؤه من الزوراء ثم نقل إلى باب المسجد ثم نقل إلى ما بين يدي الإمام وذلك زمن هشام بن عبد الملك ثم نقل إلى المنارة

أما زمانه فلم أقف على تحديد صحيح صريح كم كان بينه وبين الثاني وهل كان بعد دخول الوقت أو قبله؟

وقد ذكر ابن حجر في الفتح رواية عن الطبراني ما نصه فأمر بالنداء الأول على دار له يقال لها الزوراء فكان يؤذن عليها فإذا جلس على المنبر أذن مؤذنه الأول فإذا نزل أقام الصلاة وفي رواية له من هذا الوجه فأذن بالزوراء قبل خروجه ليعلم الناس أن الجمعة قد حضرت إلى أن قال وتبين بما مضى أن عثمان أحدثه لإعلام

الناس بدخول وقت الصلاة قياسا على بقية الصلوات فألحق الجمعة بها وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدي الخطيب فتراه يرجح كونه بعد دخول الوقت وعند خروج عثمان أي من بيته وكان يسكن إلى تلك الجهة ولكن هذا لا يتمشى مع الغرض من إيجاد هذا الأذان لأنه لما كثر

(140/8)

الناس جعله في السوق لإعلامهم فإذا كان بعد الوقت فأي فائدة منه وكيف يعد ثالثا إنه يكون من تعدد المؤذنين لا من تعدد الأذان.

ثم إن مسكن عثمان رضي الله عنه كان بجوار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحله معروف حتى الآن وكان يعرف برباط عثمان فكيف يجعل هذا الأذان عند خروجه مع بعد ما بين الزوراء ومكان سكناه

ثم إن من المتفق عليه أن الأذان بين يدي الإمام هو الأذان الذي بعد دخول الوقت وتصح الصلاة بعده فالأذان الثالث كالأول بالنسبة للصبح وبهذا يترجح أنه كان قبل الوقت لا بعده كالأول للصبح ليتحقق الغرض منه وعليه ينبغي أن يراعى في زمنه ما بينه وبين الثاني وما يتحقق به الغرض من رجوع أهل السوق وتهيئهم للجمعة وهذا يختلف باختلاف الأماكن والبلاد وسواء كان قبل الوقت أو بعده فلا بد من زمن بينهما يتمكن فيه أهل السوق من الحضور إلى المسجد وإدراك الخطبة

ولو أخذنا بعين الاعتبار ما وقع لعثمان نفسه زمن عمر رضي الله عنه لما دخل المسجد وعمر يخطب فعاتبه على التأخير ثم أحدث عثمان هذا الأذان في عهده لوجدنا قرينة تقديمه عن الوقت لئلا يقع غيره فيما يقع هو فيه والله تعالى أعلم.

وسيأتي نص ابن الحاج على أنه قبل الوقت

وهذا آخر ما يتعلق بتعدد الأذان يوم الجمعة وسيأتي التنبيه على ما يوجد من نداء الأخرى يوم الجمعة في بعض الأمصار عند الكلام على ما استحدث في الأذان وابتدع فيه مما ليس منه إن شاء الله

أما تعدد المؤذنين يوم الجمعة

فقد جاء صريحا في صحيح البخاري في باب رجم الحبلى من الزنا في حديث طويل عن ابن عباس زمن عمر رضي الله عنه وفيه ما نصة فجلس عمر على المنبر ولما سكت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله إلى آخر الحديث.

فهذا نص صريح من البخاري أنه كان لعمر مؤذنون وكانوا يؤذنون حين يجلس على المنبر وكان يجلس إلى أن يفرغوا من الأذان ثم يقوم فيخطب أي كان أذانهم كلهم بعد دخول الوقت

(141/8)

قال ابن الحاج في المدخل وكانوا ثلاثة يؤذنون واحدا بعد واحد ثم زاد عثمان أذانا آخر بالزوراء قبل الوقت فتحصل من هذا وجود تعدد المؤذنين لصلاة الجمعة وكانوا زمن عمر ثلاثة وكانوا يؤذنون متفرقين واحدا بعد واحد .

وقد ذكر ابن حجر في الفتح أيضا ضمن كلامه على الحديث المتقدم تحت عنوان "المؤذن الواحد يوم الجمعة" رواية عن ابن حبيب أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رقي المنبر وجلس أذن المؤذنون وكانوا ثلاثة واحدا بعد واحد فإذا فرغ الثالث قام فخطب

ثم قال فإنه دعوى تحتاج إلى دليل ولم يرد ذلك صريحا من طريق متصلة يثبت مثلها

ثم قال ثم وجدته في مختصر البويطي عن الشافعي وفي تعليق لسماحة رئيس الجامعة في الحاشية على ذلك قال في مخطوطة الرياض في مختصر المزني وسواء كان في مختصر البويطي أو المزني فإن عزوه إلى الشافعي صحيح وابن حجر لم يعلق على وجود هذا الأثر بشيء

وقال النووي في المجموع قال الشافعي رحمه الله في البويطي والنداء يوم الجمعة هو الذي يكون والإمام على المنبر يكون المؤذنون يستفتحون الأذان فوق المنارة جملة حين يجلس الإمام على المنبر ليسمع الناس فيأتون إلى

المسجد فإذا فرغوا خطب الإمام بهم فهذا أيضا نص الشافعي ينقله النووي على تعدد المؤذنين يوم الجمعة فوق المنارة جملة والإمام على المنبر وبهذا تظهر مشروعية تعدد الأذان للجمعة قبل وبعد الوقت من عمل الخلفاء الراشدين وفي توفر الصحابة المرضيين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مما يصلح أن يقال فيه إجماع سكوتي في وفرة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم كما ثبتت مشروعية تعدد الأذان بعد الوقت من فعل الخلفاء أيضا وإجماع الصحابة عليه مع أثر فيه نقاش مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم

أما ما يتعلق بالأذان لبقية الصلوات الخمس فكالآتي:

أولا: تعدد الأذان فقد ثبت في حديث بلال وابن أم مكتوم في قوله صلى الله عليه وسلم "إن بلالا ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم" متفق عليه وهذا في صلاة الفجر فقط لما في الحديث من القرائن المتعددة التي منها: "ينادي بلال فكلوا واشربوا حتى ينادي

(142/8)

ابن أم مكتوم" أي إن أذان بلال قبل الفجر يحل الطعام وأذان ابن أم مكتوم بعد دخول الوقت حين يحرم الطعام على الصائم.

وفي رواية "لم يكن ابن أم مكتوم يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت" وكان بينهما من الزمن ففي بعض الروايات أنه "لم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا" رواه مسلم

وفي رواية للجماعة عن ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم "لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره فإنه يؤذن أو قال ينادي بليل ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم"

قال الشوكاني يريد القائم المتهجد إلى راحته ليقوم إلى صلاة الصبح نشيطا أو يتسحر إن كان له حاجة إلى الصيام ويوقظ النائم ليتأهب للصلاة بالغسل والوضوء فالأول يشعر بتواليهما مع فرق يسير والآخر يدل بالفرق بينهما وكلاهما صحيح السند.

وقد فسر هذا النووي في شرح مسلم ونقله عنه الشوكاني في نيل الأوطار بقوله قال العلماء معناه إن بلالاً كان يؤذن قبل الفجر ويتربص بعد أذانه للدعاء ونحوه ثم يرقب الفجر فإذا قارب طلوعه نزل فأخبر ابن أم مكتوم فيتأهب ابن أم مكتوم بالطهارة وغيرها ثم يرقى ويشرع في الأذان مع أول طلوع الفجر وهذا يتفق مع قوله صلى الله عليه وسلم "ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم" إلى آخره ويصدقه ما جاء في الأثر أيضا عن ابن مكتوم وكان رجلاً أعمى فلا يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت وهذا الأذان الأول للفجر هو مذهب الجمهور ما عدا الإمام أبا حنيفة رحمه الله من الأئمة الأربعة وحمل أذان بلال على النداء بغير ألفاظ الأذان

قال الشوكاني وعند الأحناف أن أبا حنيفة رحمه الله لما أذن بلال قبل الوقت أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع فيقول إلا أن العبد قد نام وهذا الأثر رواه الترمذي وقال حديث غير محفوظ

وفي فتح القدير للأحناف ما نصه ولا يؤذن لصلاة قبل دخول وقتها ويعاد في الوقت

وقال أبو يوسف يجوز للفجر في النصف الأخير من الليل قال في الشرح وهو قول الشافعي وقال لتوارث أهل الحرمين فيكون أبو يوسف صاحب أبي حنيفة

رحمهما الله قد وافق الجمهور في مشروعية الأذان قبل الفجر قبل الوقت وإن ما استدل به أن أبو حنيفة ليس بمحفوظ وقد جوزه أبو يوسف في النصف الأخير من الليل

وجاء نص المالكية أنه في السدس الأخير قال في مختصر خليل غير مقدم على الوقت إلا الصبح فبسدس الليل الأخير.

وعند الحنابلة في المعنى ما نصه قال أصحابنا ويجوز الأذان للفجر بعد نصف الليل وهذا مذهب الشافعي إلى قوله:

وقد روى الأثرم عن جابر قال كان مؤذن مسجد دمشق يؤذن لصلاة الصبح في السحر بقدر ما يسير الراكب

ستة أميال فلا ينكر ذلك مكحول ولا يقول فيه شيئًا ا هـ

تنبيه

قال في المغني وقال طائفة من أهل الحديث إذا كان مؤذنان يؤذن أحدهما قبل طلوع الفجر والآخر بعده فلا بأس أي ليعرف الأول منهما من الثاني ويلتزما بذلك ليعلم الناس الفرق بين الأذانين كما كان زمن النبي صلى الله عليه وسلم انتهى ملخصا .

أما تعدد المؤذنين لبقية الأوقات الخمسة فكالآتي:

أولا: فإن الأصل في ذلك عند العلماء هو حديث بلال وابن أم مكتوم المتقدم ذكره في صلاح الفجر ثم قاسوا عليه للحاجة بقية الصلوات كما استأنسوا الزيادة عمر وعثمان في الجمعة للجماعة لزيادة الإعلام كما تقدم

ثانيا: نسوق موجز الأقوال في ذلك عند الشافعية:

قال النووي في شرح مسلم باب استحباب اتخاذ مؤذنين للمسجد الواحد وساق كلامه على حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنان بلال وابن أم مكتوم

ثم قال ما نصه وفي الحديث استحباب مؤذنين للمسجد الواحد يؤذن أحدهما قبل الفجر والآخر عند طلوعه

قال أصحابنا فإذا احتاج إلى أكثر من مؤذنين اتخذ ثلاثة وأربعة فأكثر بحسب الحاجة

(144/8)

وقد اتخذ عثمان رضي الله عنه أربعة للحاجة عند كثرة الناس

قال أصحابنا وإذا ترتب للأذان اثنان فصاعدا فالمستحب ألا يؤذنوا دفعة واحدة بل إن اتسع الوقت ترتبوا فيه فإن تنازعوا في الابتداء أقرع بينهم وإن ضاق الوقت فإن كان المسجد كبيرا أذنوا متفرقين في أقطاره وإن كان ضيقا وقفوا معا وأذنوا وهذا إذا لم يؤد اختلاف الأصوات إلى تشويش فإن أدى إلى ذلك لم يؤذن إلا واحد ا هـ

فهذا نص النووي على قول أصحابه أي الشافعية في المسألة ساقه في شرح مسلم وقال في المجموع شرح المهذب

على نص المتن إذ قال المامن والمستحب أن يكون المؤذن للجماعة اثنين وذكر حديث بلال وابن أم مكتوم فإن احتاج إلى الزيادة جعلهم أربعة لأنه كان لعثمان أربعة والمستحب أن يؤذن واحد بعد واحد لأن ذلك أبلغ في الإعلام.

قال النووي في الشرح قال أبو علي الطبري تجوز الزيادة إلى أربعة ثم ناقش المسألة مع من خالفه في العدد ثم قال العبرة بالمصلحة فكما زاد عثمان إلى أربعة للمصلحة جاز لغيره الزيادة

وذكر عن صاحب الحاوي إلى ثمانية ثم قال فرع وساق فيه ما نصه

فإن كان للمسجد مؤذنان أذن واحد بعد واحد كما كان بلال وابن أم مكتوم فإن تنازعوا في الابتداء أقرع بينهم فإن ضاق الوقت والمسجد كبير أذنوا في أقطاره كل واحد في قطر ليسمع أهل تلك الناحية وإن كان صغيرا أذنوا معا وإذا لم يؤد إلى تهويش.

قال صاحب الحاوي وغيره ويقفون جميعا عليه كلمة كلمة فإن أدى إلى تهويش أذن واحد إلخ

وفي صحيح البخاري باب من قال ليؤذن في السفر مؤذن واحد وساق بسنده عن مالك بن الحويرث أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رحيما ورفيقا فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال: "ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم".

قال في الفتح أثناء الشرح وعلى هذا فلا مفهوم لقوله مؤذن واحد في السفر، لأن

(145/8)

الحضر أيضا لا يؤذن فيه إلا واحد ولو احتيج إلى تعددهم لتباعد أقطار البلد أذن كل واحد في جهة ولا يؤذنون جميعا.

وقد قيل إن أول من أحدث التأذين جميعا بنو أمية

وقال الشافعي في الأم وأحب أن يؤذن مؤذن بعد مؤذن ولا يؤذنون جميعا وإن كان مسجد كبير فلا بأس أن يؤذن في كل جهة منه مؤذن يسمع من يليه في وقت واحد ا هـ

وهذا الذي حكاه الشارح عن الشافعي موجود في الأم لكن بلفظ فلا بأس أن يؤذن في كل منارة له مؤذن فيسمع من يليه في وقت واحد ا هـ

وهذا القدر كاف لبيان قول الشافعي وأصحابه من أن التعدد جائز بحسب المصلحة

وعند مالك جاء في الموطأ حديث بلال وابن أم مكتوم أيضا

وقال الباجي في شرحه ويدل هذا الحديث على جواز اتخاذ مؤذنين في مسجد يؤذنان لصلاة واحدة

وروى علي بن زياد عن مالك لا بأس أن يؤذن للقوم في السفر والحرس والمركب ثلاثة مؤذنين وأربعة ولا بأس أن يتخذ في المسجد أربعة مؤذنين وخمسة

قال ابن حبيب ولا بأس فيما اتسع وقته من الصلوات كالصبح والظهر والعشاء أن يؤذن خمسة إلى عشرة واحد بعد واحد وفي العصر من ثلاثة إلى خمسة ولا يؤذن في المغرب إلا واحد

فهذا نص مالك والمالكية في جواز تعدد الأذان في المسجد الواحد يؤذنون واحدا بعد واحد

وفي متن خليل ما نصه وتعدده وترتيبهم إلا المغرب وجمعهم كل على أذان

وذكر الشارح الخرشي من خمسة إلى عشرة في الصبح والظهر والعشاء وفي العصر من ثلاثة إلى خمسة وفي المغرب واحد أو جماعة إلخ.

وعند الحنابلة قال في المغني "فصل" ولا يستحب الزيادة على مؤذنين لحديث

(146/8)

بلال وابن أم مكتوم أيضا ثم قال إلا أن تدعو الحاجة إلى الزيادة عليهما فيجوز

فقد روي عن عثمان رضي الله عنه أنه كان له أربعة مؤذنين وإن دعت الحاجة إلى أكثر منهم كان مشروعا وإذا

كان أكثر من واحد وكان الواحد يسمع الناس فالمستعجب أن يؤذن واحد بعد واحد لأن مؤذني النبي صلى الله عليه وسلم كان أحدهما يؤذن بعد الآخر وإن كان الإعلام لا يحصل بواحد أذنوا على حسب ما يحتاج إليه إما أن يؤذن كل واحد في منارة أو ناحية أو دفعة واحدة في موضع واحد

قال أحمد إن أذن عدة في منارة فلا بأس وإن خافوا من تأذين واحد بعد واحد فوات أول الوقت أذنوا جميعا دفعة واحدة.

وعند الأحناف جاء في فتح القدير شرح الهداية في سياق إجابة المؤذن وحكاية الأذان ما نصه

إذا كان في المسجد أكثر من مؤذن أذنوا واحدا بعد واحد فالحرمة للأول إلى أن قال فإذا فرض أن سمعوه من غير مسجده تحقق في حقه السبب فيصير كتعددهم في المسجد الواحد فإن سمعهم معا أجاب معتبرا كون جوابه لمؤذن مسجده.

هذه نصوص الأئمة رحمهم الله في جواز تعدد المؤذنين والأذان في المسجد الواحد للصلاة الواحدة متفرقين أو مجتمعين.

وقال ابن حزم ولا يجوز أن يؤذن إثنان فصاعدا معا فإن كان ذلك فالمؤذن هو المبتدىء إلى أن قال وجائز أن يؤذن جماعة واحدا بعد واحد للمغرب وغيرها سواء في كل ذلك فلم يمنع تعدالأذان من عدة مؤذنين في المسجد الواحد أحد من سلف الأمة

الحكمة في الأذان

أما الحكمة في الأذان فإن أعظمها أن من خصائص هذه الأمة كما تقدم في أصل مشروعيته وقد اشتمل على أصول عقائد التوحيد تعلن على الملأ تملأ الأسماع حتى صار شعار المسلمين

ونقل عن القاضي عياض رحمه الله قوله:

اعلم أن الأذان كلام جامع لعقيدة الإيمان مشتمل على نوعه من العقليات والسمعيات فأوله إثبات الذات وما تستحقه من الكمالات والتنزيه عن أضدادها وذلك بقوله" الله أكبر" وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكرناه.

ثم يصرح بإثبات الوحدانية ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المقدمة على كل وظائف الدين ثم يصرح بإثبات النبوة والشهادة بالرسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية وموضعها بعد التوحيد لأنها من باب الأفعال الجائزة الوقوع وتلك المقدمات من باب الواجبات وبعد هذه القواعد كلمات العقائد العقليات فدعا إلى الصلاة وجعلها عقب إثبات النبوة لأن معرفة وجوبها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لا من جهة العقل

ثم دعا إلى الفلاح وهو الفوز والبقاء في النعيم المقيم وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء وهي آخر تراجم عقائد الإسلام إلخ.

ومراده بالعقليات في العقائد أي إثبات وجود الله وأنه واحد لا شريك له وهو المعروف عندهم بقانون الإلزام الذي يقال فيه إن الموجود إما جائز الوجود أو واجبه فجائز الوجود جائز العدم قبل وجوده واستوى الوجود والبقاء في العدم قبل أن يوجد فترجح وجوده على بقائه في العدم وهذا الترجيح لا بد له من مرجح وهو الله تعالى وواجب الوجود لم يحتج إلى موجد ولم يجز في صفة عدم وإلا لاحتاج موجده إلى موجد ومرجح وجوده على موجود

وهكذا فاقتضى الإلزام العقلي وجوب وجود موجد واجب الوجود وهذا من حيث الوجود فقط وقد أدخل العقل في بعض الصفات التي يستلزمها الوجود والحق أن العقل لا دخل له في العقائد من حيث الإثبات أو النفي لأنها سمعية ولا تؤخذ إلا عن الشارع الحكيم لأن العقل يقصر عن ذلك ومرادنا التنبيه على إدخال العقليات هنا فقط.

وقد سقنا كلام القاضي عياض هذا في حكمة الأذان لوجاهته ولتعلم من خصوصية الأذان في هذه الأمة وغيرها به أنه ليس بصلصلة ناقوس أجوف ولا أصوات بوق أهوج ولا دقات طبل أرعن كما هو الحال عند

الآخرين بل هو كلمات ونداء يوقظ القلوب من سباتها وتفيق النفوس من غفلتها وتكف الأذان عن تشاغلها وتهيىء المسلم إلى هذه

(148/8)

الفريضة العظمى ثانية أركان الإسلام وعموده

فإذا ما سمع الله أكبر الله أكبر مرتين عظم الله في نفسه واستحضر جلاله وقدسه واستصغر كل شيء بعد الله فلا يشغله شيء عن ذكر الله لأن الله أكبر من كل شيء فلا يشغل نفسه عنه بأي شيء .

فإذا سمع أشهد أن لا إلاه إلا الله علم أن من حقه عليه طاعة الله وعبادته

وإذا سمع أشهد أن محمدا رسول الله علم أنه يلزمه استجابة داعي الله

وإذا سمع حي على الصلاة حي على الفلاح علم أن فلاحه في صلاته في وقتها لا فيما يشغله عنها

وهكذا فكان ممشاه إليه تخشعا وخطاه إلى المسجد تطوعا مع حضور القلب واستجماع الشعور

ومن هنا أيضا ندرك السر في طلب السامع محاكاة الأذان تبعا للمؤذن ليرتبط معه في إعلانه وعقيدته وشعوره كما جاء في أثر عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قل مثل ما يقولون فإذا انتهيت فاسأل تعطهْ" رواه أبو داود .

وقد قدمنا هذا الموضوع هنا وإن كان ليس من منهج الكتاب ولكن لموجب اقتضاء ولمناسبة مبحث الأذان أما الموجب فهو أني سمعت منذ أيام أثناء الكتابة في مباحث الأذان وسمعت من إذاعة لبلد عربي مسلم أن كاتبا استنكر الأذان في الصبح خاصة وفي بقية الأوقات بواسطة المكبر للصوت وقال إنه يرهق الأعصاب وخاصة عند أداء الناس لأعمالهم أو عند الفراغ منها والعودة لراحتهم ولا سيما في الفجر عند نومهم فكان وقعه أليما أن يصدر ذلك وينشر ولكن أجاب عليه أحد خطباء الجمع في خطبة وافية وأفهمه أن الإرهاق والاضطراب إنما هو من عدم الاستجابة لهذا النداء وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن الشيطان يبول

في أذن النائم وأنه يعقد عليه ثلاث عقد فإذا ما استيقظ وذكر الله انحلت عقدة وإذا توضأ انحلت عقدة أخرى فإذا صلى انحلت العقدة الثالثة وأصبح نشيطا إلى غير ذلك من الرد الكافي

(149/8)

ولا شك أن مثل تلك الكتابة لا تصدر إلا ممن لا يعي معنى الأذان

هذا ما استوجب عرض الحكمة من الأذان وإن كانت مجانبة لمنهج الكتاب ولكن بمناسبة مباحث الأذان يغتفر ذلك وبالله التوفيق.

محاكاة المؤذن

تعتبر محاكاة المؤذن ربطا لسامع الأذان وتنبيها له لموضوعه جاء الحديث"إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول" رواه البخاري.

وفي رواية عنده عن معاوية رضي الله عنه أنه قال أي معاوية وهو على المنبر مثل قول المؤذن إلى قوله أشهد أن محمدا رسول الله ولما قال المؤذن"حي على الصلاة" قال معاوية "لا حول ولا قوة إلا بالله" وكذلك "حي على الفلاح" ثم قال "هكذا سمعنا نبيكم صلى الله عليه وسلم"

وعند النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فقام بلال ينادي فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم "من قال مثل هذا يقينا دخل الجنة"

كيفية المحاكاة في الحديث الأول فقولوا مثلما يقول وهكذا يشعر بتتبعه جملة جملة وفي الحديث الثاني فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم "من قال مثل هذا" وبعد السكوت تنطبق المثلية بمجيء الأذان بعد فراغ المؤذن فوقع الاحتمال.

وقد جاء عند مسلم وأبي داود ما يؤيد الأول فعن عمر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال"إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر ثم قال أشهد ألا إلاه إلا الله قال أشهد ألا إلاه إلا الله ثم

قال أشهد أن محمدا رسول الله قال أشهد أن محمدا رسول الله ثم قال حي على الصلاة قال لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال حي على الفلاح قال لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال الله أكبر الله أكبر قال الله أكبر الله أكبر ثم قال لا إلاه إلا الله قال لا إلاه إلا الله من قلبه دخل الجنة" .

فهذا نص صريح في أن محاكي المؤذن يتابعه جملة جملة إلى آخره ما عدا الحيعلتين فإنه يأتي بدلا منهما بالحوقلة وقالوا: إن الحيعلتين نداء للإقبال على المنادي وهذا يصدق في حق المؤذن أما الذي يحكي الأذان فلم يرفع صوته ولا يصدق

(150/8)

عليه أن ينادي غيره فلا أجر له في نطقه بهما فيأتي بلا حول ولا قوة إلا بالله لأمرين الأول أنه ذكر يثاب عليه سرا وعلانية والثاني استشعار بأنه لا حول له عن معصية ولا قوة له على طاعة إلا بالله العلي العظيم وفيه استعانة بالله وحوله وقوته على إجابة هذا النداء وأداء الصلاة مع الجماعة

وقد أخذ الجمهور بحديث عمر عند مسلم بمحاكاة المؤذن في جميع الأذان على النحو المتقدم وعند مالك يكتفي إلى الحوقلة لحديث معاوية ونص كتب المالكية أنه هو المشهور في المذهب وغير المشهور أي مقابل المشهور طلب حكاية الأذان جميعه ذكره الزمخشري على خليل

بعض الزيادات على ألفاظ الأذان

تقدم ذكر الحوقلة عند الحيعلة في بعض روايات مسلم وغيره عند الشهادتين يقول زيادة "وأنا أشهد ألا إلاه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا غفرت له ذنوبه" .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسؤال الله له الوسيلة

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم

يقول "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه وسلم بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة" وهذا عام للأذان في الصلوات الخمس إلا أنه جاء في المغرب والفجر بعض الزيادات ففي المغرب حكى النووي أنه له أن يقول بعد النداء "اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك اغفر لي" ويدعو بين الأذان والإقامة ذكره صاحب المهذب وعزا الحديث أم سلمة وأقره النووي في المجموع.

أما في سماع أذان الفجر فيقول عند الصلاة خير من النوم صدقت وبررت حكاه النووي في المجموع

وعن الرافعي يقول صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة خير من النوم

وإذا سمع المؤذن وهو في الصلاة نص العلماء على أنه لا يحكيلأنه في الصلاة

(151/8)

لشغلا وإذا سمعه وهو في المسجد جالس نص أحمد أنه لا يقوم حالا للصلاة حتى يفرغ المؤذن أو يقرب وإذا دخل المسجد وهو يؤذن استحب له انتظاره ليفرغ ويقول مثل ما يقول جمعا بين الفضيلتين وإن لم يقل كقوله وافتتح الصلاة فلا بأس ذكره صاحب المغني عن أحمد رحمه الله.

إجابة أكثر من مؤذن:

وللعلماء مبحث فيما لو سمع أكثر من مؤذن قال النووي لم أر فيه شيئًا لأصحابنا وفيه خلاف للسلف وقال حكاه القاضي عياض في شرح مسلم والمسألة محتملة ثم قال والمختار أن يقال المتابعة سنة متأكدة بكرة تركها لتصريح الأحاديث الصحيحة بالأمر وهذا يختص بالأول لأن الأمر لا يقتضي التكرار.

وذكره صاحب الفتح وقال وقال ابن عبد السلام يجيب كل واحد بإجابة لتعدد السبب اهـ

وعند الأحناف الحق للأول.

وأصل هذه المسألة في مبحث الأصول هل الأمر المطلق يقتضي تكرار المامور به أم لا ؟

وقد بحث هذا الموضوع فضيلة شيخنا رحمة الله تعالى عليه في مذكرة الأصول وحاصله إن الأمر إما مقيد بما يقتضي التكرار أو مطلق عنه ثم قال والحق أن الأمر المطلق لا يقتضي التكرار بل يخرج من عهدته بمرة ثم فصل رحمة الله تعالى عليه القول فيما اتفق عليه وما اختلف فيه ومنه تعدد حكاية المؤذن وبحثها بأوسع في الأضواء عن تعدد الفدية في الحج والواقع أن سبب الخلاف فيما اختلف فيه إنما هو من باب تحقيق المناط هل السبب المذكور مما يقتضي التعدد أم لا ؟

والأسباب في هذا الباب ثلاثة أقسام قسم يقتضي التكرار قطعا وقسم لا يقتضيه قطعا وقسم هو محل الخلاف.

فمن الأسباب المقتضية التكرار قطعا ما لو ولد له توأمان فإن عليه عقيقتين،

(152/8)

ومنها لو ضرب حاملا فأجهضت جنينين لوجبت عليه غرتان

ومن الأسباب التي لا تقتضي التكرار ما لو أحدث عدة أحداث من نواقض الوضوء فأراد أن يتوضأ فإنه لا يكرر الوضوء بعدد الأحداث ويكفيه وضوء واحد وكذلك موجبات الغسيل لو تعدت قبل أن يغتسل فإنه يكفيه غسل واحد عن الجميع.

ومما اختلف فيه ما كان دائرا بين هذا وذاك كما لو ظاهر من عدة زوجات هل عليه كفارة واحدة نظرا لما أوقع من ظهار أم عليه عدة كفارات نظرا لعدد ظاهر منهن وكذلك إذا ولغ عدة كلاب في إناء هل يعفر الإناء مرة واحدة أم يتعدد التعفير لتعدد الولوغ من عدة كلاب ؟

ومن ذلك ما قالوه في إجابة المؤذن إذا تعدد المؤذنون تعددت الأسباب فهل تتعدد الإجابة أم يكتفي بإجابة واحدة تقدم قول النووي أنه لم يجد شيئا لأصحابه وكلام العز بن عبد السلام بتعدد الإجابة والنظر الأصولي

نجد تعدد المؤذنين ليس كتعدد نواقض الوضوء لأن المتوضىء إذا أحدث ارتفع وضوءه وليس عليه أن يتوضأ لهذا الحدث فإذا أحدث مرة أخرى لم يقع هذا الحدث الثاني على طهر ولم يجد حدثا آخر ؟

وهكذا مهما تعددت الأحداث فإذا أراد الصلاة كان عليه أن يرفع حدثه فيكفي فيه وضوء واحد ولكن مستمع المؤذن حينما سمع المؤذن الأول فهو مطالب بمحاكاته فإن فرغ منه وسمع مؤذنا آخر فإن من حق هذا المؤذن الآخر أن يحاكيه ولا علاقة لأذان هذا بذاك فهو من باب تجدد السبب وتعدده أو هو إليه أقرب كما لو سمع أذان الظهر فأجابه ثم سمع أذان العصر فلا يكفي عنه إجابة أذان الظهر فإن قيل قد اختلف الوقت وجاء أذان جديد فيقال قد اختلف المؤذن فجاء أذان جديد

وأقرب ما يكون لهذه المسألة مسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكره في حديث قوله صلى الله عليه وسلم "آمين آمين" ثلاث مرات وهو يصعد المنبر ولما سئل عن ذلك قال "أتاني جبريل فقال يا محمد من ذكرت عنده ولم يصل عليك باعده الله في النار فقل آمين فقلت آمين" وذكر بقية المسائل فإن بهذا يتعين تكرار الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عند كل ما يسمع ذكره صلوات الله وسلامه عليه وهنا عليه تكرار محاكاة المؤذن كما رجحه ابن عبد السلام والله تعالى أعلم

(153/8)

تنبيه

وإذا سمع المؤذن وهو في صلاة فلا يقول مثل ما يقول المؤذن وإذا كان في قراءة أو دعاء أو ذكر خارج الصلاة فإنه يقطعه ويقول مثل قول المؤذن.

قاله ابن تيمية في الفتاوى وابن قدامة في المغني والنووي في المجموع

تنبيه

ولا يجوز النداء للصلاة جمعة أو غيرها من الصلوات الخمس إلا بهذه الألفاظ المتقدم ذكرها وما عداها مما

أدخله الناس لا أصل له كالتسبيح قبل الفجر والتسبيح والتحميد والتكبير يوم الجمعة بما يسمى"بالتطليع"

ونحوه فكل هذا لا نص عليه ولا أصل له

وقد نص في فتح الباري ردا على ابن المنير حيث جعل بعض الهيئات أو الأقوال من مكملات الإعلام فقال ابن حجر وأغرب ابن المنير ولو كان ما قاله على إطلاقه لكان ما أحدث من التسبيح قبل الصبح وقبل الجمعة ومن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من جملة الأذان وليس كذلك لا لغة ولا شرعا .

وفي الحاشية للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز تعليق على كلام ابن المنير بقوله هذا فيه نظر والصواب أن ما أحدثه الناس من رفع الصوت بالتسبيح قبل الأذان والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعده كما أشار إليه الشارع بدعة يجب على ولاة الأمر إنكارها حتى لا يدخل في الأذان ما ليس منه وفيما شرعه الله غنية وكفاية عن المحدثات فتنبه.

وقال في الفتح أيضا ما نصه وما أحدث الناس قبل وقت الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى وقال ابن الحاج في المدخل جلد 2 ص 452 وينهي المؤذنين عما أحدثوه من التسبيح بالليل وإن كان ذكر الله تعالى حسنا وعلنا لكن في المواضع التي تركها الشارع صلوات الله وسلامه عليه ولم يعين فيها شيئًا معلوما

وقال بعده بقليل وكذلك ينبغي أن ينهاهم عما أحدثوه من صفة الصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم عند طلوع الفجر وإن كانت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أكبر العبادات

(154/8)

وأجلها فينبغي أن يسلك بها مسلكها فلا توضع إلا في مواضعها التي جعلت لها

وقال صاحب الإبداع في مضار الابتداع ما نصه ومن البدع ما يسمى بالأولى والثانية أعني ما يقع قبل الزوال يوم الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ولا خلاف في

أن ذلك لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد السلف الصالح وإنما النظر في ذمه واستحسانه ا هـ.

وهذا النظر مفروغ منه في التنبيهات المتقدمة لابن حجر وابن الحاج وابن باز

والقاعدة الأصولية الفقهية أن العبادات مبناها على التوقيف وما لم يكن دينا ولا عبادة عند السلف الصالح فلا حاجة إليه اليوم كما قال مالك رحمه الله لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها

وقد ذكر صاحب الإبداع أيضا تاريخ إحداث رفع الصوت بالصلاة والتسليم على النبي الكريم عقب الأذان فقال كان ابتداء ذلك في أيام السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب وبأمره في مصر وأعمالها لسبب مذكور في كتب التاريخ ا هـ.

والسبب يتعلق ببدعة الفاطميين بسبب بعض الأشخاص على المنابر والمنائر فغير عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما كان على المنابر بقوله إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر وكذلك غير صلاح الدين ما كان بعد الأذان بالصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم

تنبيه

من أسباب تمسك بعض البلاد بهذين العملين هو ألا يؤذن قبل الجمعة فاعتاضوا عن الأذان بما يسمى التطليع أو بالأولى والثانية أي التطليعة الأولى والتطليعة الثانية وكذلك لا يؤذنون للفجر قبل الوقت فاستعاضوا عنه بالتسبيح والتكبير وغيره.

أما الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم عقب كل أذان فقد قاسوا المؤذن على السامع في حديث "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإن من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرًا.

فقالوا والمؤذن أيضا يصلي ويسلم ثم زادوا في القياس خطة وجعلوا صلاة

المؤذن وتسليمه على النبي صلى الله عليه وسلم بصوت مرتفع كالأذان وبهذا تعلم أنه ما أميتت سنة إلا ونشأت بدعة وأن قياس المؤذن على السامع ليس سليما

وتقدم لك أن محاكاة المؤذن لربط السامع بالأذان ليتجاوب معه في معانيه ولو قيل إن للمؤذن أن يصلي ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم سرا بعد الفراغ من الأذان وأن يسأل الله الوسيلة للرسول صلى الله عليه وسلم ليشارك في الأجرين أجر الأذان وأجر سؤال الوسيلة لكان له أجر والعلم عند الله تعالى

حي على خير العمل في الأذان

اتفق الأئمة رحمهم الله على أنها ليست من ألفاظ الأذان وحكاها الشوكاني عن العترة وناقش مقالتهم وأدلتها بأسانيدها .

ومما جاء فيها عندهم أثر عن ابن عمر أنه كان يؤذن بها أحيانا

ومنها عن علي بن الحسين أنه قال هو الأذان الأول

ثم قال: وأجاب الجمهور عن كل ذلك بأن أحاديث ألفاظ الأذان في الصحيحين وغيرهما لم يثبت فيهما شيء من ذلك.

قالوا: وإذا صح ما روي أنه الأذان الأول فهو منسوخ بأحاديث الأذان لعدم ذكره فيها

وقد أورد البيهقي حديثا في نسخ ذلك ولكن من طريق لا يثبت النسخ بمثلها ا ه ملخصا

وقد ذكر صاحب جمع الفوائد حديثا عن بلال رضي الله عنه أنه كان يؤذن للصبح فيقول حي على خير العمل فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل مكانها الصلاة خير من النوم وترك حي على خير العمل وقال رواه الطبراني في الكبير بضعف ا هـ

ولا يبعد أن يكون أثر بلال هذا هو الذي عناه علي بن الحسين وعلى كل فهذا الأثر وإن كان ضعيفا فإنه مرفوع وفيه التصريح بالمنع منها وعليه الأئمة الأربعة وغيرهم إلا ما عليه الشيعة فقط .

ومن جهة المعنى فإن معناها لا يستقيم مع بقية النصوص الصحيحة الصريحة،

وذلك أنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن خير العمل أمر نسبي وأن خير جميع الأعمال كلها هو أولا وقبل كل شيء الإيمان بالله وذلك أنه صلى الله عليه وسلم سئل أي الأعمال أفضل يا رسول الله قال: "إيمان بالله" قيل ثم ماذا ؟ فقال مرة " الجهاد في سبيل الله" وقال مرة: "الصلاة على أول وقتها" وقال مرة: "بر الوالدين" وفي كل مرة يقدم إيمانا بالله.

فعليه الإيمان بالله هو خير العمل وليست الصلاة ثم بعد الإيمان بالله فهو بحسب حال الناس وحالة كل شخص فمن كان قويا وليس عليه حق لوالديه فالجهاد أفضل الأعمال في حقه مع من الحفاظ على الصلاة فإن كان ذا والدين فبرهما مقدم على كل عمل ولم لا فإن الصلاة على أول وقتها لغير هؤلاء فإطلاق القول بالصلاة خير العمل في حق جميع الناس لا يصح مع هذه الأحاديث ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا أن يقولها وجعلها خيرا من النوم وهذا لا نزاع فيه ولا بالنسبة لأي أحد من الناس والله تعالى أعلم

الصلاة بين أذان عثمان رضي الله عنه والأذان الذي بين يدي الإمام

تعود الناس في جميع الأمصار صلاة ركعتين عند الأذان الأول والذي يقع الآن قبل الوقت وقبل جلوس الإمام على المنبر وهو المسمى عند الفقهاء بأذان عثمان وقد تساءل الناس عن هذه الصلاة أهي سنة أم لا ويتجدد هذا السؤال من حين إلى آخر وأجمع ما رأيت فيه هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة خاصة جوابا على سؤال وجه إليه هذا نصه:

هل الصلاة بعد الأذان الأول يوم الجمعة فعلها النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من أصحابه أو التابعين أو الأئمة أم لا وهل هو منصوص في مذهب من مذاهب الأئمة المتفق عليهم وقوله صلى الله عليه وسلم "بين كل أذانين صلاة" هل هو مخصوص بيوم الجمعة أم هو عام في جميع الأوقات فأجاب رحمه الله بقوله

أما النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن يصلي قبل الجمعة بعد الأذان شيئا ولا نقل هذا عن أحد فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤذن على عهده إلا إذا قعد على المنبر ويؤذن بلال ثم يخطب النبي صلى الله عليه وسلم الخطبتين ثم يقيم بلال فيصلي بالناس فما كان يمكن أن يصلي بعد الأذان لا هو ولا أحد من المسلمين

الذين يصلون معه صلى الله عليه وسلم ولا نقل عن أحد أنه صلى صلى الله عليه وسلم في بيته قبل الخروج يوم الجمعة ولا وقت بقوله صلاة مقدرة قبل الجمعة بل ألفاظه فيها الترغيب

(157/8)

في الصلاة إذا قدم الرجل المسجد يوم الجمعة من غير توقيت كقوله"من بكر وابتكر ومشى ولم يركب وصلى ما كتب له" الحديث.

وهذا المأثور عن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا أتوا المسجد يوم الجمعة يصلون من حين يدخلون ما تيسر منهم من يصلي ثماني ركعات ومنهم من يصلي أقل من ذلك ولهذا كان جمهور الأئمة متفقين على أنه ليس قبل الجمعة سنة مؤقتة بوقت مقدرة بعدد.

ثم قال وهذا مذهب مالك ومذهب الشافعي وأكثر أصحابه وهو المشهور من مذهب أحمد

وذهب طائفة من العلماء إلى أن قبلها سنة فمنهم من جعلها ركعتين ومنهم من جعلها أربعا تشبيها لها بقبل الظهر وقالوا إن الجمعة ظهر مقصورة وهذا خطأ من وجهين وساقهما وخلاصة ما ساقه فيهما أن الجمعة لها خصائص لا توجد في الظهر فليست ظهرا مقصورة

وكذلك أنه لم يكن صلى الله عليه وسلم يصلي في سفره سنة للظهر أي وهي مقصورة في السفر فلا تمسك في ذلك

أما عن حديث "بين كل أذانين صلاة" فالصواب أنه لا يقال إن قبل الجمعة سنة راتبة مقدرة وأنه صلى الله عليه وسلم قال "بين كل أذانين صلاة" مرتين وقال في الثالثة"لمن شاء" .

وهذا يدل على أن الصلاة مشروعة قبل الأوقات الخمسة وأن ذلك ليس بسنة راتبة وقد احتج بعض الناس بهذا على الصلاة يوم الجمعة.

وعارض غيره قائلا الأذان الذي على المنارة لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ويتوجه

عليه أن يقال هذا الأذان الثالث لما سنه عثمان رضي الله عنه واتفق عليه المسلمون صار أذانا شرعيا

وحينئذ فتكون الصلاة بينه وبين الأذان الثاني جائزة حسنةوليست سنة راتبة كالصلاة قبل المغرب وحينئذ

فمن فعل ذلك لم ينكر عليه ومن ترك ذلك لم ينكر عليه وهذا أعدل الأقوال

وكلام أحمد يدل عليه وحينئذ فقد يكون تركها أفضل إذا كان الجهال يعتقدون أن هذه سنة راتبة أو واجبة لا

سيما إذا داوم الناس عليها فينبغي تركها أحيانا كما ينبغي

(158/8)

ترك قراءة السجدة يوم الجمعة أحيانا.

ثم قال وإذا كان رجل مع قوم يصلونها فإن كان مطاعا إذا تركها وبين لهم السنة لم ينكروا عليه بل عرفوا السنة

فتركها حسن وإن لم يكن مطاعا ورأى في صلاتها تأليفا لقلوبهم إلى ما هو أنفع أو دفعا للخصام والشر لعدم

التمكن من بيان الحق لهم وقولهم له ونحو ذلك فهذا أيضا حسن

فالعمل الواحد يكون مستحبا فعله تارة وتركه تارة باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة

الشرعية.

كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم بناء البيت على قواعد إبراهيم إلى آخره ا هـ ملخصا

فأنت تراه رحمه الله قد بين أولا أنها ليست من فعله صلى الله عليه وسلم لعدم وجود مكان لها في عهده ولا في

عهد صاحبيه من بعده وأن فعلها بعد حديث عثمان رضي الله عنه يرجع إلى حال الشخص فإن كان عاميا

التمس له مخرج من حديث "بين كل أذانين صلاة" لا على أنها سنة راتبة.

أما العالم الذي يقتدى به فإن كان مطاعا فتركها أحسن

وتعليم الناس متعين وإن كان غير مطاع ويرجو نفعهم أو يخشى خصومة عليهم تضيع عليهم منفعتهم منه ففعلها

تأليفا لقلوبهم فهذا حسن ا هـ ملخصا.

وهذا منه رحمه الله من أدق مسالك سياسة الدعوة إلى الله حيث ينبغي للداعي أن يراعي حالة العامة وأن يكون بفعله مؤثرا كتأثيره بقوله مع مراعاة الأحوال ما هو أصلح لهم فيما فيه سعة من الأمر كما بين أنها ليست بسنة راتبة.

وقد ساق ضمنا كلام العلماء في حكم الصلاة قبل الجمعة مطلقا أي عند المجيء وقبل الأذان وهذا كله ما عدا الداخل للمسجد وقت الخطبة فيما يتعلق بتحية المسجد.

وقال النووي في المجموع بعد مناقشة كلام المذهب قال:

وأما السنة قبلها فالعمدة فيها حديث عبد الله بن معقل المذكورين "بين كل أذانين صلاة" والقياس على الظهر قال: وذكر أبو عيسى الترمذي أن عبد الله بن مسعود كان يصلي قبل الجمعة أربعا وإليه ذهب سفيان الثوري وابن المبارك وهذا منهم على أنها

(159/8)

راتبة الظهر انتقلت إلى الجمعة ولا علاقة لها بالأذان بل من حين مجيئه إلى المسجد

قوله تعالى ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ .

قال الزمخشري ونقله عنه أبو حيان من في قوله ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ بيان لإذا وتفسير له ا هـ.

يعني ﴿إِذَا نُودِيَ﴾ فهي بيان لإذا الظرفية وتفسير لها.

﴿والْجُمُعَةِ﴾ بضم الجيم والميم قراءة الجمهور وبضم الجيم وتسكين الميم قراءة عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما وهما لغتان وجمعها جمع وجمعات

قال الفراء يقال الجمعة بإسكان الميم والجمعة بضمها والجمعة بفتح الميم فتكون صفة لليوم أي يجمع الناس

وقال ابن عباس نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرؤها جمعة يعني بضم الميم

وقال الفراء وأبو عبيد والتخفيف أقيس وأحسن مثل غرفة وغرف وطرفة وطرف وحجرة وحجر وفتح

الميم لغة بني عقيل وقيل إنها لغة النبي صلى الله عليه وسلم حكاه القرطبي وغيره

وقال الزمخشري قرىء بهن جميعا وقال غيره والأول أصح لقول ابن عباس رضي الله عنهما

وذكر في سبب تسمية هذا اليوم عدة أسباب لا تناقض بين شيء منها

من ذلك ما قاله ابن كثير رحمه الله إنها مشتقة من الجمع وأهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع.

ومنها أنه تم فيه خلق جميع الخلائق فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض وفيه خلق آدم يعني جمع خلقه وفيه الحديث عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له "يا سلمان ما يوم الجمعة" قلت الله ورسوله أعلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يوم الجمعة يوم جمع الله فيه أبواكم -أو- أبوكم" قال ابن كثير وقد روي عن أبي هريرة من كلامه نحو هذا فالله أعلم

والذي يظهر، والله تعالى أعلم أن ما حكاه عن أبي هريرة له حكم الرفع، كما جاء

(160/8)

في الموطإ في فضل يوم الجمعة "أنه خير يوم تطلع فيه الشمس فيه خلق آدم" إلى آخر الحديث وسيأتي إن شاء الله عند بيان فضلها.

وقد كان يقال له في الجاهلية يوم العروبة

ونقل عن الزجاج والفراء وأبي عبيدة أن العرب العاربة كانت تسمي الأيام هكذا السبت شبار الأحد أول الاثنين أهون الثلاثاء جبار الأربعاء دبار الخميس مؤنس الجمعة العروبة وأول من نقل العروبة إلى الجمعة كعب بن لؤي نقل من بذل المجهود شرح أبي داود.

وقيل أول من سماه بالجمعة كعب بن لؤي وقد كان معروفا بهذا الاسم في أول البعثة كما جاء في سبب أول جمعة صليت بالمدينة.

قال القرطبي: وأول من سماها جمعة الأنصار ونقل عن ابن سيرين قوله جمع أهل المدينة من قبل أن يقدم النبي

صلى الله عليه وسلم المدينة وقبل أن تنزل الجمعة هم الذين سموها الجمعة وذلك أنهم قالوا إن لليهود يوما يجتمعون فيه في كل سبعة أيام يوم وهو السبت وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوما لنتذاكر الله ونصلي فيه ونستذكر أو كما قالوا فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة وهو أبو أمامة رضي الله عنه فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة حتى اجتمعوا فذبح لهم أسعد شاة فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم

فهذه أول جمعة في الإسلام.

أما أول جمعة أقامها النبي صلى الله عليه وسلم فهي التي أقامها مقدمة إلى المدينة حين نزل قباء يوم الإثنين ومكث الثلاثاء والأربعاء والخميس وفي صبيحة الجمعة نزل إلى المدينة فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدا فجمع بهم صلى الله عليه وسلم وخطب وهو موضع معروف إلى اليوم في بني النجار وقد ساق القرطبي خطبته صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم ثم كانت الجمعة التي تلتها في الإسلام في قرية جوانا بالأحساء اليوم

وقد خص الله المسلمين بهذا اليوم وفضله كما قال ابن كثير وغيره، لحديث أبي

(161/8)

هريرة رضي الله عنه عند البخاري ومسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد" لفظ البخاري وفي لفظ لمسلم "أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي بينهم قبل الخلائق" ذكره ابن كثير من خصائص يوم الجمعة

كما اختصت هذه الأمة بيوم الجمعة عن سائر الأيام فقد اختص يوم الجمعة نفسه بخصائص عن سائر الأيام أجمعها ما جاء في الموطإ مالك عن أبي هريرة أنه قال خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما حدثته أن قلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط من الجنة وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه .

قال كعب ذلك في كل سنة قلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو هريرة فلقيت بصرة بن أبي بصرة الغفاري فقال من أين أقبلت فقلت من الطور فقال لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس" ، يشك.

قال أبو هريرة ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته به في يوم الجمعة فقلت قال كعب ذلك في كل سنة يوم قال قال عبد الله بن سلام كذب كعب فقلت ثم قرأ التوراة فقال بل هي في كل جمعة فقال عبد الله بن سلام صدق كعب ثم قال عبدالله بن سلام قد علمت أية ساعة هي قال أبو هريرة فقلت له أخبرني بها ولا تضن علي فقال عبد الله بن سلام هي آخر ساعة في يوم

الجمعة قال أبو هريرة فقلت وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي" وتلك الساعة ساعة لا يصلى فيها فقال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول الله

صلى الله عليه وسلم "من جلس مجلسا ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلي" قال أبو هريرة فقلت بلى قال فهو كذلك.

فهذا نص صريح في أنه خير يوم طلعت عليه الشمس ثم بيان أن الخيرية فيه لما وقع به من أحداث وإلا فجميع الأيام حركة فلكية لا مزية فيها إلا ما خصها الله دون غيرها من الوقائع

وقد تعددت هنا في حق أبينا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ولذا قيل يوم الجمعة يوم آدم ويوم الإثنين يوم محمد صلى الله عليه وسلم أي لقوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن كثرة صيامه يوم الإثنين قال "ذلك يوم ولدت فيه وعلي فيه أنزل" الحديث.

ولما كان يوم الجمعة هو يوم آدم فيه خلق وفيه أسكن الجنة وفيه أنزل إلى الأرض وفيه تاب الله عليه وفيه قيام الساعة فكان يوم العالم من بدء أبيهم إلى منتهى حياتهم فكأنه في الإسلام يوم تزودهم إلى ذلك المصير

وروى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ الم ﴾ [32/1]، و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ [76/1]، في فجر يوم الجمعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وذلك لما فيهما من ذكر خلق الله آدم وحياة الإنسان ومنتهاه كما في سورة السجدة في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [32/4–9].

وفي سورة ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ ، قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا

وَسَعِيراً إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ [76/1-5] .

ففي هذا بيان لخلق العالم كله جملة ثم خلق آدم ثم تناسل نسله ثم منتهاهم ومصيرهم ليتذكر بخلق أبيه آدم وما كان من أمره كيلا ينسى ولا يسهو عن نفسه

وهكذا ذكر مثل هذا التوجيه في الجملة ابن حجر في الفتح وناقش حكم قراءتهما والمداومة عليهما أو تركهما وذلك في باب ما يقرأ في صلاة الجمعة.

وفي المنتقى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ يوم الجمعة في صلاة الصبح ﴿آلم تَنْزِيلُ﴾ [32/1-2] و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ وفي صلاة الجمعة بسورة "الجمعة" و"المنافقون" رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي

وناقش الشوكاني السجود فيها أي في فجر الجمعة أو في غيرها من الفريضة إذا قرأ ما فيه سجدة تلاوة وحكي السجود في فجر الجمعة عن عمر وعثمان وابن مسعود وابن عمر وابن الزبير وقال هو مذهب الشافعي وقال كرهه مالك وأبو حنيفة وبعض الحنابلة فراجعه

الساعة التي في يوم الجمعة

فقد تقدم كلام أبي هريرة رضي الله عنه مع عبد الله بن سلام وهو قول الأكثر ويوجد عند مسلم أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يفرغ من الصلاة وقد ناقش هذه المسألة جميع العلماء وحكى أقوالهم الزرقاني في شرح الموطأ وكلاهما بسند صحيح إلا أن سند مالك لم يطعن فيه أحمد وسند مسلم قد نقل الزرقاني الكلام فيه ومن تكلم عليه والذي يلفت النظر ما يتعلق بقيام الساعة في يوم الجمعة من قوله صلى الله عليه وسلم"ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس" ففيه التصريح بأن الدواب عندها هذا الإدراك الذي تفرق به بين أيام الأسبوع وعندها هذا الإيمان بيوم القيامة والإشفاق منه وأخذ منه العلماء أن الساعة تكون في يوم الجمعة وفي أوله فإذا كان هذا أمر غيب عنا فقد أخبرنا به صلى الله عليه وسلم فعلينا أن نعطي هذا اليوم حقه من الذكر والدعاء مما يليق من العبادات إشفاقا

أو تزودا لهذا اليوم لا أن نجعله موضع النزهة واللعب والتفريط وقد يكون إخفاؤها مدعاة للاجتهاد كل اليوم كليلة القدر وقد نفهم من هذا كله المعنى الصحيح لحديث" من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب

(164/8)

بدنة" إلى آخره وأن الحق فيه ما ذهب إليه الجمهور على ما سيأتي إن شاء الله عند مناقشة وقت السعي إلى الجمعة .

قال النيسابوري في تفسيره وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر غاصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج وقيل أول بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، إذ البكور إليها من شدة العناية بها .

قوله تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .

قرأ الجمهور ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ ، وقرأها عمر: ﴿ فامضوا ﴾ روى ابن جرير رحمه الله أنه قيل لعمر رضي الله عنه إن أبيا يقرؤها ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ قال أما إنه أقرؤنا وأعلمنا بالمنسوخ وإنما هي ﴿ فامضوا ﴾

وروي أيضا عن سالم أنه قال ما سمعت عمر قط يقرؤها إلا فامضوا!

وبوب له البخاري قال باب قوله﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [3/62]،وقرأ عمر "فامضوا" وذكر القرطبي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأه"فامضوا إلى ذكر الله" وقال لو كانت ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ لسعيت حتى يسقط ردائي اهـ

وبالنظر فيما ذكره القرطبي نجد الصحيح قراءة الجمهور لأمرين الأول لشهادة عمر نفسه رضي الله عنه أن أبيا أقرؤهم وأعلمهم بالمنسوخ وإذا كان كذلك فالقول قوله لأنه أعلمهم وأقرؤهم أما قراءة ابن مسعود فقال القرطبي إن سنده غير متصل لأنه عن إبراهيم النخعي عن ابن مسعود وإبراهيم لم يسمع من ابن مسعود شيئًا اهـ .

وقد اختلف في معنى السعي هنا وحاصل أقوال المفسرين فيه على ثلاثة أقوال لا يعارض بعضها بعضا

الأول: العمل لها والتهيؤ من أجلها.

الثاني: القصد والنية على إتيانها.

الثالث: السعي على الأقدام دون الركوب

واستدلوا لذلك بأن السعي يطلق في القرآن على العمل قاله الفخر الرازي وقال هو مذهب مالك والشافعي، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ [205/2]، وقال:

(165/8)

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [4/92]، أي: العمل.

واستدلوا للثاني بقول الحسن والله ما هو بسعي على الأقدام ولكن سعي القلوب والنية

واستدلوا للثالث بما في البخاري عن أبي عبس بن جبر واسمه عبد الرحمان وكان من كبار الصحابة مشى إلى الجمعة راجلا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار" ذكره القرطبي ولم يذكره البخاري في التفسير.

وبالتأمل في هذه الأقوال الثلاثة نجدها متلازمة لأن العمل أعم من السعي والسعي أخص فلا تعارض بين أعم وأخص والنية شرط في العمل وأولى هذه الأقوال كلها ما جاء في قراءة عمر رضي الله عنه الصحيحة ﴿ فامضوا ﴾ فهي بمنزلة التفسير للسعي.

وروي عن الفراء أن المضي والسعي والذهاب في معنى واحد والصحيح أن السعي يتضمن معنى زائدا وهو الجد والحرص على التحصيل كما في قوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ [51/22]، بأنهم حريصون على ذلك وهو أكثر استعمالات القرآن

قال الراغب الأصفهاني السعي المشي السريع وهو دون العدو ويستعمل للجد في الأمر خيرا كان أو شرا قال

تعالى ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ [114/2]، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ ﴾ [205/2]، ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [19/17]، وجمع الأمرين الخير والشر ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [53/39–40]، وهو ما تشهد له اللغة كما في قول زهير بن أبي سلمى وأن سعيه

سوف يرى وهو ما تشهد له اللغة كما في قول زهير بن أبي سلمى:

سعى ساعيا غيظ ابن مرة بعد ما . . . تبزل ما بين العشيرة بالدم

وكقول الآخر:

إن أجز علقمة بن سعد سعيه . . . لا أجزه ببلاء يوم واحد

(166/8)

تنبيه

من هذا كله يظهر أن السعي هو المضي مع مراعاة ما جاء في السنة من الحث على السكينة والوقار لحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا"

وهذا أمر عام لكل آت إلى كل صلاة ولو كان الإمام في الصلاة لحديث أبي قتادة عند البخاري قال بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال فلما صلى قال "ما شأنكم" قالوا استعجلنا إلى الصلاة قال "فلا تفعلوا إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" هـ.

وكذلك حديث أبي بكرة رضي الله عنه لما ركع خلف الصف ودب حتى دخل في الصف وهو راكع فقال له صلى الله عليه وسلم "زادك الله حرصا ولا تعد" على رواية تعد من العود.

وهنا يأتي مبحث بم تدرك الجمعة؟

الأقوال في القدر الذي به تدرك الجمعة ثلاثة وتعتبر طرفين وواسطة

الطرف الأول: القول بأنها لا تدرك إلا بإدراك شيء من الخطبة هذا ما حكاه ابن حزم عن مجاهد وعطاء وطاوس وعمر ولم يذكر له دليلا.

والقول الآخر تدرك ولو بالجلوس مع الإمام قبل أن يسلم وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومذهب ابن حزم بل عند أبي حنيفة رحمه الله أنه لو أن الإمام سها وسجد وفي سجود السهو أدركه المأموم لأدرك الجمعة بإدراكه سجود السهو مع الإمام لأنه منها ولكن خالف الإمام أبا حنيفة صاحبه محمد على ما سيأتي

والقول الوسط هو قول الجمهور أنها تدرك بإدراك ركعة كاملة مع الإمام وذلك بإدراكه قبل أن يرفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية فحينئذ يصلي مع الإمام ركعة ثم يضيف إليها أخرى وتتم جمعته بركعتين وإلا صلى ظهرا .

أما الراجح من ذلك فهو قول الجمهور للأدلة الآتية

أولا أن القول الأول لا دليل عليه أصلا ويمكن أن يلتمس لقائله شبهة، من قوله

(167/8)

تعالى: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ لحمل ذكر الله على خصوص الخطبة، لقوله تعالى بعدها ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾

فسمى الصلاة في الأول بالنداء إليها وسمى الصلاة أخيرا بانقضائها وذكر الله جاء بينهما ولكن يرده استدلال الجمهور الآتي.

والقول الثاني: وهو قول أبي حنيفة رحمه الله وابن حزم استدل له بحديث"فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" والجمعة ركعتان فقط فإتمامها بتمام ركعتين واعتبروا إدراك أي جزء منها إدراكا لها وقد خالف أبا حنيفة في ذلك صاحبه محمد لأدلة الجمهور الآتية

وأدلة الجمهور من جانبين:

الأول: خاص بالجمعة وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"من أدرك من صلاة الجمعة ركعة فليضف إليها أخرى" أي فتتم له جمعة بركعتين وأخذوا من مفهوم إدراك ركعة أن من لم يدرك ركعة كاملة فلا يصح له أن يضيف لها أخرى وعليه أن يصلي ظهرا .

والجانب الثاني: عام في كل الصلوات وهو حديث الصحيحين"من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة" .

وقد رد الأحناف على الحديث الأول بأنه ضعيف واعتبروا الإدراك في الحديث الثاني يحصل بأي جزء

ورد عليهم الجمهور بالآتي:

أولا: الحديث الخاص بمن أدرك ركعة من الجمعة فليضف إليها أخرى ذكره ابن حجر في بلوغ المرام وقال رواه النسائي وابن ماجه والدارقطني واللفظ له وإسناده صحيح لكن قوى أبو حاتم إرساله وقال الصنعاني في الشرح وقد أخرج الحديث من ثلاث عشرة طريقا عن أبي هريرة ومن ثلاث طرق عن ابن عمر وفي جميعها مقال إلى أن قال ولكن كثرة طرقه يقوي بعضها بعضا مع أنه خرجه الحاكم من ثلاث طرق

(168/8)

إحداها من حديث أبي هريرة وقال فيها على شرط الشيخين إلى آخره اهـ

وقال النووي في المجموع ويغني عنه ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة" فهذا نص صحيح وهو صريح في أن إدراك الصلاة إنما هو بإدراك ركعة وبالإجماع لا يكون إدراك الركعة بإدراك الجلوس قبل السلام لأن من دخل مع الإمام في إحدى الصلوات وهو جالس في التشهد لا يعتد بهذه الركعة إجماعا وعليه الصلاة كاملة

والنص الخاص أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة فليضف إليها أخرى يجعل معنى الإدراك لركعة كاملة يعتد بها ومن لم يدرك ركعة كاملة لم يكن مدركا للجمعة

وقد حكى النووي في المجموع أن الجمعة تدرك بركعة تامة لحديث الصحيحين المذكور وقال احتج به مالك في

الموطأ والشافعي في الأم وغيرهما .

وقال الشافعي: معناه: لم تفته تلك الصلاة ومن لم تفته الجمعة صلاها ركعتين وقال وهو قول أكثر العلماء حكاه

ابن المنذر عن ابن مسعود وابن عمر وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب والأسود وعلقمة والحسن البصري

وعروة بن الزبير والنخعي والزهري ومالك والأوزاعي والثوري وأحمد وإسحاق وأبي ثور وأبي يوسف

وتقدم أن الذي وافق الجمهور من أصحاب أبي حنيفة إنما هو محمد لما في كتاب الهداية ما نصه

وقال محمد رحمه الله إن من أدرك أكثر الركعة بني عليها الجمعة وإن ادرك أقلها بنى عليها الظهر

وفي الشرح أن أكثر الركعة هو بإدراك الركوع مع الإمام.

وبالنظر في الأدلة نجد رجحان أدلة الجمهور للآتي

أولا: قوة استدلالهم بعموم "من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدرك الصلاة" وهذا عام في الجمعة وفي غيرها وهو

من أحاديث الصحيحين.

ثم بخصوص "من أدرك من الجمعة ركعة مع الإمام فليضف إليها أخرى" وتقدم

(169/8)

الكلام على سنده وتقوية طرقه بعضها ببعض

وقد أشرنا إلى معنى الإدراك وهو ما يمكن الاعتداد به في عدد الركعات وهي نقطة هامة لا ينبغي إغفالها وأن

مفهوم: "من أدرك ركعة مع الإمام فليضف إليها أخرى أن من لم يدرك ركعة كاملة لا يتأتى له أن يضيف إليها

أخرى بل عليه كما قال الجمهور أن يصلي أربعا .

ثانيا: ضعف استدلال المعارض، لأن "ما أدركتم فصلوا" على "من أدرك من الجمعة ركعة" خاص بها .

ثم إن معنى الإدراك ليس كما ذهب المستدل إليه بل لا بد أن يكون إدراكا لما يعتد به

وأشرنا إلى أن الإجماع على أن من لم يدرك ركعة كاملة لايعتد بها في عدد الركعات ويشير إلى هذا المعنى

حديث أبي بكرة حيث ركع قبل أن يصل إلى الصف ليدرك الركعة قبل أن يرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه ولو كان إدراك الركعة يتم بأي جزء منها لما فعل أبو بكرة هذه الصورة وقد قال صلى الله عليه وسلم "زادك الله حرصا ولا تعد" .

ومعلوم أنه اعتد بتلك الركعة لإدراكه الركوع منها وبهذا تعلم أنه لا دليل لمن اشترط إدراك شيء من الخطبة لأن من أدرك ركعة فقد فاتته الخطبة كلها وفاتته الأولى من الركعتين وأدرك الجمعة بإدراك الثانية والعلم عند الله تعالى.

حكم صلاة الجمعة عند الفقهاء:

قوله تعالى ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

فيه الأمر بالسعي إذا نودي إليها والأمر يقتضي الوجوب ما لم يوجد له صارف ولا صارف له هنا فكان يكفي حكاية الإجماع على وجوبها كما حكاه ابن المنذر وابن قدامة وغيرهما قاله الشوكاني وهو قول الأئمة الأربعة رحمهم الله ولكن وجد من يقول إن الجمعة ليست واجبة ولعله ظن أن في الآية صارف للأمر عن الوجوب وهو ما جاء في آخر السياق في قوله تعالى﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فقالوا إن الأمر لتحصيل الخير المذكور وقد نقل عن بعض اتباع بعض الأئمة رحمهم الله ما يوهم أنها ليست بفرض وهو مسطر في كتبهم مما قد يغتر به بعض البسطاء ولا سيما مع ضعف

الوازع وكثرة الشاغل في هذه الآونة مما يستوجب إيراده وبيان رده من أقوال أصحابهم وأئمتهم رحمهم الله جميعا

فعند المالكية حكاية ابن وهب عن مالك أن شهودها سنة

وعند الشافعية قال الخطابي فيها الخلاف هل هي من فروض الأعيان أو من فروض الكفاية ؟

وعند الأحناف قال في شرح الهداية وقد نسب إلى مذهب أبي حنيفة أنها ليست بفرض

وكلها أقوال مردودة في المذهب من أصحابهم وأئمة مذاهبهم فلزم التنبيه عليها وإن الحق فيها من كتبهم ومن كلام أصحابهم وإليك بيان ذلك

أما ما نسب لمالك رحمه الله فقد حكاه ابن العربي عن ابن وهب ورده بقوله وحكى ابن وهب عن مالك أن شهودها سنة ورد عليه قوله بتأويلين أحدهما أن مالكا يطلق السنة على الفرض والثاني أنه أراد سنة على صفتها لا يشاركها فيها سائر الصلوات حسب ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله المسلمون وقد روى ابن وهب عن مالك عزيمة الجمعة على كل من سمع النداء ا ه نقلا من نيل الأوطار

ومما يؤيد قول ابن العربي في الوجه الأول ما ذكره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن مالك وغيره في تحرزهم في الفتيا من قول حلال وحرام وواجب إلخ في سياق ما وقع من خلاف والنهي عن التعصب وأن مالكا أشد تحفظا في ذلك ومما يؤيد الوجه الثاني أيضا رواية المدونة بما نصه ما قول مالك إذا اجتمع الأضحى والجمعة أو الفطر فصلى رجل من أهل الحضر العيد مع الإمام ثم أراد ألا يشهد الجمعة هل يضع ذلك عنه شهود صلاة العيد ما وجب عليه من إتيان الجمعة قال لا كان مالك يقول لا يضع ذلك عنه ما وجب عليه من إتيان الجمعة وقال مالك ولم يبلغني أن أحدا أذن لأهل العوالي إلا عثمان ولم يكن مالك يرى الذي فعل عثمان وكان يرى أن من وجبت عليه الجمعة لا يضعها عنه إذن الإمام وإن شهد مع الإمام قبل ذلك من يومه ذلك عيدا ا هـ من المدونة فهذه نصوص صريحة عن مالك أن الجمعة واجبة لا يضعها عمن وجبت عليه إذن الإمام بصرف النظر عن فقه مسألة العيد والجمعة فإن فيها خلافا مشهورا ولكن يهمنا

(171/8)

تنصيص مالك على خصوص الجمعة وفي مختصر خليل عند المالكية ما نصه ولزمت المكلف الحر الذكر بلا عذر قال شارحه الخرشي لزمت ووجب إثم تاركها وعقوبته فهذه أقوال المالكية وحقيقة مذهب مالك رحمه الله.

أما الشافعية فقال صاحب المهذب ما نصه صلاة الجمعة واجبة لما روى جابر وساق حديثه قال النووي في المجموع شرح المهذب إنما تتعين على كل مكلف حر ذكر مقيم بلا مرض ونحوه إلى أن قال أما حكم المسألة فالجمعة فرض عين على كل مكلف غير أصحاب الأعذار والنقص المذكورين هذا هو المذهب وهو المنصوص للشافعي في كتبه وقطع به الأصحاب في جميع الطرق إلا ما حكاه القاضي أبو الطيب في تعليقه وصاحب الشامل وغيرهما من بعض الأصحاب أنه غلط فقال هي فرض كفاية قالوا وسبب غلطه أن الشافعي قال من وجبت عليه الجمعة وجبت عليه صلاة العيدين وغلط من فهمه لأن مراد الشافعي من خوطب بالجمعة وجوبا خوطب بالعيدين متأكدا واتفق القاضي أبو الطيب وسائر من حكى هذا الوجه على غلط قائله قال القاضي أبو إسحاق المروزي لا يحل أن يحكى هذا عن الشافعي ولا يختلف أن مذهب الشافعي أن الجمعة فرض عين ونقل ابن المنذر في كتابيه كتاب الإجماع والإشراق إجماع المسلمين على وجوب الجمعة اهـ من المجموع للنووي وهذا الذي حكاه النووي وابن المنذر والمروزي عن الشافعي هو المنصوص عنه في كتاب الأم للشافعي نفسه قال مجلد "1" ص 881 تحت عنوان إيجاب الجمعة بعد ما ذكر الآية ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ ، قال ودلت السنة من فرض الجمعة على ما دل عليه كتاب الله تبارك وتعالى وساق حديث "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع" إلى أن قال والتنزيل ثم السنة يدلان على إيجاب الجمعة وقال ومن كان مقيما ببلد تجب فيه الجمعة من بالغ حر لا عذر له وجبت عليه الجمعة فهذه نصوص الشافعي عامة في الوجوب وخاصة في الأعيان وهذا بيان كاف لمذهب الشافعي رحمه الله من نص كتابه الأم اهـ.

الحديث الذي استدل به الشافعي رحمه الله "نحن الآخرون السابقون" هو عين الحديث الذي بوب عليه البخاري وجوب الجمعة ووجه الاستدلال منه قوله صلى الله عليه وسلم "ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم" ، ففيه التنصيص على الفرضية.

أما الأحناف فقال في شرح الهداية ما نصه وقد نسب إلى مذهب أبي حنيفة أنها ليست بفرض ثم قال وهذا من جهلهم وسبب غلطهم قول القدوري ومن صلى الظهر يوم الجمعة في منزله ولا عذر له كره له ذلك وجازت صلاته وإنما أراد حرم عليه وصحت الظهر بترك الفرض إلى آخره

ثم قال: وقد صرح أصحابنا بأنها فرض آكد من الظهر وذكر أول الباب اعلم أن الجمعة فريضة محكمة بالكتاب والسنة والإجماع فحكي الإجماع على وجوبها وجهل من نسب إلى مذهبهم القول بعدم فرضيتها وهذه أيضا حقيقة مذهب أبي حنيفة رحمه الله وأنها عند أصحابه آكد من الظهر

أما الحنابلة فقال في المغني ما نصه الأصل في فرض الجمعة الكتاب والسنة والإجماع وساق الآية ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ الآية، وقال بعدها: فصل وتجب الجمعة والسعي إليها سواء كان من يقيمها سنيا أو مبتدعا أو عدلا أو فاسقا نص عليه أحمد وهذا أعم وأشمل حتى مع الإمام غير العادل وغير السني

فهذه نصوص المذاهب الأربعة في وجوب الجمعة وفرضها على الأعيان فلم يبق لأحد بعد ذلك أدنى شبهة يلتمسها من أي مذهب ولا تتبع شواذه للتهاون بفرض الجمعة لنيابة الظهر عنها

ثم اعلم أن في الآية قرينة على هذا الوجوب وأنه لا صارف للأمر عن وجوب السعي إليها وذلك أن مع الأمر بالسعي إليها الأمر بترك البيع والنهي عنه وإذا كان ترك البيع واجبا من أجلها فما وجوب هو من أجله كان وجوبه هو أولى قال في المغني فأمر بالسعي ويقتضي الأمر الوجوب ولا يجب السعي إلا إلى الواجب ونهي عن البيع لئلا يشغل به عنها فلو لم تكن واجبة لما نهي عن البيع من أجلها وهو واضح كما ترى والأحاديث في الوعيد لتاركها بدون عذر مشهورة تؤكد هذا الوجوب.

من ذلك حديث أبي الجعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"من ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه" رواه أبو داود وسكت عنه

وفي المنتقى قال رواه الخمسة أي ما عدا البخاري ومسلما وفي المنتقى عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على أعواد منبره"لينتهين

أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين" رواه مسلم

وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقوم يتخلفون عن الجمعة" لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم " رواه أحمد ومسلم وقد فسر الطبع في حديث أبي الجعد بأنه طبع النفاق كما في قوله تعالى في سورة" المنافقون" ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [3/63]، وقيل طبع ضلال كما في الحديث ثم يكون أي القلب كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا نسأل الله العافية والسلامة لنا ولجميع المسلمين والتوفيق لفضل هذا اليوم الذي خص الله به هذه الأمة.

مسألة

من المخاطب بالسعي هنا أي من الذي تجب عليه الجمعة تستهل الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وهو نداء عام لكل مؤمن ذكر وأنثى وحر وعبد صحيح ومريض فشمل كل مكلف على الإطلاق كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ الواو فيه للجمع وإن كانت للمذكر إلا أنها عائدة إلى الموصول السابق وهو عام كما تقدم فيكون طلب السعي متوجها إلى كل مكلف إلا ما أخرجه الدليل

وقد أخرج الدليل من هذا العموم أصنافا منها المتفق عليه ومنها المختلف فيه

فمن المتفق عليه ما أخرج من عموم خطاب التكليف كالصغير والنائم والمجنون لحديث" رفع القلم عن ثلاثة" .

وما خرج من خصوص الجمعة كالمرأة إجماعا فلا جمعة على النساء

وكالمريض فلا جمعة عليه اتفاقا كذلك

وهو من يشق عليه أو يزيد مرضه ومن يمرضه تابع له وقد اختلف في المسافر

والمملوك ومن في حكم المسافر وهم أهل البوادي

قال القرطبي قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب للمكلفين بإجماع ويخرج منه المرضى والزمنى والعبيد والنساء بالدليل والعميان والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة

روى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريضا أو مسافرا أو امرأة أو صبيا أو مملوكا فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غني حميد" خرجه الدارقطني ا هـ.

ويشهد لما رواه القرطبي ما رواه ابن حجر في بلوغ المرام عن طارق بن شهاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال"الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة مملوكا وامرأة وصبيا ومريضا"رواه أبو داود.

وقال طارق لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أبو داود أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه وأخرجه الحاكم من رواية طارق المذكور عن أبي موسى ا هـ

قال الصنعاني يريد المؤلف بهذا أي برواية عن أبي موسى أنه أصبح متصلا

قال وفي الباب عن تميم الداري وابن عمر ومولى لابن الزبير رواه البيهقي وناقش سنده

وقال وفيه أيضا من حديث أبي هريرة مرفوعا"خمسة لا جمعة عليهم المرأة والمسافر والعبد والصبي وأهل البادية" ا هـ.

وقد ذكر صاحب المنتقى حديث طارق كما ساقه صاحب البلوغ وقال الشوكاني فيه قال الحافظ وصححه غير واحد.

وقال الخطابي ليس إسناد هذا الحديث بذاك وذكر صحبة طارق ونقل قول العراقي فإذا ثبتت صحبته

فالحديث صحيح وغايته أن يكون مرسل صحابي وهو حجة عند الجمهور إنما خالف فيه أبو إسحاق الاسفرائيني بل ادعى بعض الأحناف الإجماع على أن مرسل الصحابي حجة اهـ

(175/8)

وقال الشوكاني: على أنه قد اندفع الإعلال بالإرسال بما في رواية الحاكم من ذكر أبي موسى إلى آخره أي صار موصولا كما قال ابن حجر سابقا.

ووجه حجية مرسل الصحابي عندهم هو أن الصحابي إذا أرسل الحديث ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم واسطة وتلك الواسطة هي صحابي آخر والصحابي ثقة فتكون الواسطة الساقطة ثقة فيصح الحديث ولذا دعي بعض الأحناف أن مرسل الصحابي حجة لهذا السبب وعلى هذا مناقشة أهل الحديث والتفسير لهذه المسألة وبالتأمل في الآية الكريمة وعموم السياق يظهر من مجموعه شهادة القرآن إلى صحة ذلك لدلالة الإيماء

أما عن النساء ففيه الإجماع كما تقدم ويشهد له أن الدعوة إلى السعي إلى الجمعة وترك البيع من أجلها ثم الانتشار بعدها في الأرض والابتغاء من فضل الله بالعمل والكسب يشعر بأن هذا كله للرجال لأن المرأة محلها في بيتها كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [33/33] .

وتقدم لفضيلة والدنا الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث مفصل استدل بدليل قرآني على سقوط الجمعة عن النساء وذلك عند قوله تعالى﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ [24/36–37] . وبين رحمة الله تعالى علينا وعليه مفهوم﴿ رِجَالٌ ﴾ هل هو مفهوم صفة أو مفهوم لقب وساق علاقة النساء بالمساجد في الجمعة وغيرها

أما المملوك فمما يستأنس له أيضا من السياق في قوله تعالى﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ، إذ البيع والشراء ابتداء ليس من حق العبيد إلا بإذن السيد

وقوله ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ، فإن المملوك لا ينتشر في الأرض إلا بإذن السيد أيضا .

وكذلك المسافر فليس مشتغلا ببيع ولا محل اشتغال به وهو منتشر في الأرض بسفره وسفره شاغل له وبسفره يقصر الصلاة ويجمعها

وقد حكى الشوكاني الاتفاق بين الفقهاء على سقوط الجمعة عن المملوك إلا داود،

(176/8)

وكذلك المسافر إذا كان سائرا أما إذا كان نازلا فخالف فيه داود أيضا.

ومما استدل به الجمهور على سقوط الجمعة عن المسافر وقت نزوله ما وقع من فعله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع إذ كانت الوقفة يوم الجمعة وكان صلى الله عليه وسلم نازلا ولم يصل الجمعة بدليل أنه لم يجهر بالقراءة ونازع في ذلك ابن حزم وقال غاية ما فيه ترك الجهر في الجهرية وهذا لا يبطلها ولكن يمكن أن يقال له لقد قال صلى الله عليه وسلم "خذوا عني مناسككم"

والصلاة أثناء الحج مما يؤخذ عنه صلى الله عليه وسلم كالجمع تقديما في عرفة وتأخيرا في مزدلفة ولا يتأتى أن يترك الجهر في الجهرية وهو أقل ما فيه أنه خلاف الأولى ويأمرهم أن يأخذوه عنه

ومن هذا كله صح ما ذهب إليه الجمهور من أنه لا جمعة على مملوك ولا مسافر كما لا جمعة على المرأة والمريض وبالله تعالى التوفيق.

قال ابن كثير وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ويعذر المسافر والمريض ويتم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار.

أما سقوطها عن أهل البوادي ومن في حكمهم فهو قول الجمهور مع اختلافهم في تحقيق المناط في ذلك بين المصر والقرية والبادية وبالرجوع إلى أقوال الأئمة نجد الخلاف الآتي أقوال الأئمة في مكان الجمعة

أولا عند أبي حنيفة رحمه الله قال في الهداية ما نصه لا تصح الجمعة إلا في مصر جامع أو في مصلى المصر ولا تجوز في القرية لقوله صلى الله عليه وسلم "لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع" .

وفسر الشارح ابن الهمام المصر بقوله والمصر الجامع كل موضع له أمير وقاض في الأحكام ويقيم الحدود وناقش الأثر الذي أورده المصنف قائلا رواه ابن أبي شيبة موقوفا على علي رضي الله عنه "لا جمعة ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة" صححه ابن حزم.

ورواه عبد الرزاق من حديث عبد الرحمان السلمي عن علي رضي الله عنه قال: لا تشريق ولا جمعة إلا في مصر جامع اهـ.

(177/8)

مكتبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم